

باولو كويلو

الخيميائي

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الخيميائي

پاولو كويلو

ترجمة: جواد صيداوي

تدقيق لغوي: روحي طعمة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: O Alquimista

نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة، أسبانيا بوكالتهم عن پاولو كويلو

موقع پاولو كويلو على الإنترنت:

http://www.paulocoelho.com.br

Blog پاولو كويلو: www.paulocoelhoblog.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

e-mail: tradebooks@all-prints.com

website: www. all-prints.com

الطبعة السادسة عشرة ٢٠٠٨ - طبعة خاصة

ISBN: 978-9953-88-250-5

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الإخراج الفني: زاهية عاصي

مقدمة خاصة للطبعة الجديدة

وأنا أجالس هذه الورقة البيضاء، تذكرت إحدى ليالي شباط/ فبراير ١٩٨٨، يوم كنت، أيضاً جليس ورقة بيضاء.

كان القلق يتملكني بعد أن قضيت النهار بطوله أؤجل هذه اللحظة. يومها استيقظت مبكراً، وقررت ببساطة أن أقرأ الصحيفة بداية، وكان قراءة الصحف واحدة من أولويات الحياة! قرأتها كلّها، حتى إعلاناتها المبوّبة، أنا الذي ترك عمله ليغوص في عالم الأدب الخطر والمجهول. وبعد ساعة ونصف الساعة من القراءة الدقيقة والمنهجية للصفحات المطبوعة، قرّرت مغادرة المنزل، في محاولة مني لنسيان الأخبار التي لم تعد تثير رُعبنا، لأنها كانت تتكرر باستمرار.

كنتُ أنوي إفراغ رأسي من كل أمر، كمن يفرغ قبواً من محتوياته. وذلك لأكون مهيّأً للورقة البيضاء التي تنتظرني بفارغ الصبر على الآلة الكاتبة.

مشيت سريعاً على الرصيف البحري في كوباكابانا، والحنين يشدّني إلى إسبانيا، التي عشت فيها ردحاً، حيث تعودت رؤية السماء نفسها الملبّدة بالغيوم، والإحساس بحرارة الصباح نفسها. كانت الطبيعة التي تحيط بي وكأنها في صراع مع نفسها ومع عناصرها: أمواج البحر تصفع الشاطىء، الرياح تعصف بما بقي من شجر نخيل، العواصف التي تضرب السحب الحُبلى، لتلد بعد قليلٍ مسبّبة ازدحاماً خانقاً في السير.

تسارعت نبضات قلبي جداً. كان لدي فكرة، وكنت أملك قصة. لكنني لم أكن أعرف من أين أبدأ. أنزلت من قبل كتاباً وحيداً أسميته «مذكّرات مجوسي»، وهو يمثّل رحلتي على طريق الحج في شمال إسبانيا، الطريق التي كانت في ذلك الوقت شبه منسية. دهشت يومها لوقع هذا الموضوع الذي استرعى خيال القرّاء البرازيليين، ورفع مبيعات الكتاب إلى أرقام مهمة، عنى ذلك أن لدي فرصة سانحة لنشر كتاب آخر، وكنت في حاجة إلى انتهاز الفرصة. فرواية واحدة لا تتوجني كاتباً. كان عليّ المتابعة ما دمت أنوي المحافظة على الحلم، ونهر الكلمات لم يكن ليجفّ.

توجهت إلى منزلي.. لم تنبس زوجتي كريستينا ببنت شفة. كانت تدرك أنني أسيرُ عاصفةٍ كتلك التي ستضرب مدينة ريو دي جانيرو.

أتعبني أنني لم أفعل شيئاً. فأخذت قيلولة ما بعد الغداء وغرقت في نوم عميق خلا من الأحلام. عندما استيقظت، كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة مساء، وتلفزيونات الجوار تبث بصخب. وكان بمقدوري التقاط أصوات العائلات التي تتحضر لتناول العشاء، أو لمتابعة برنامج تلفزيوني، أو لخوض الأحاديث حول يوم العمل الذي انتهى منذ قليل. توجهت إلى مكتبي، وجالستُ الورقة البيضاء وأنا أشعرُ بالذنب.

قطعتُ عهداً على نفسي أن أمثُل هناك لنصف ساعة على الأقل، حتى وإن لم أتمكّن من كتابة كلمة.

تذكّرت قول فرناندو بيساوا: «المرآة تعكس بدقّة متناهية؛ لا تُخطئ أبداً، لأنها لا تفكّر» ينبغي ألا أفكّر. يجدر بي أن أتصرّف كمرآة، وأن أكون كالبحيرة التي تعكس السماء.

وضعت أصابعي على حروف آلتي الكاتبة الكهربائية الأوليفيتي، وهي هدية تلقّيتها بمناسبة خطوبتي التي أخفقت في تحوّلها زواجاً.

أردت أن أتحدث عن كل شيء. أردت أن أفهم لماذا تأخرت كل هذا الوقت. وقبل كل شيء أردت أن أثبت لنفسي أنني قادر على إبقاء تلك الشعلة متوهجة.

من أين أبدأ؟

سكون..

صوت الحياة في الخارج. بدا فجأة وكأنه يتلاشى.

صورة البحر الهائج لاحت لي فجأة من حيث لا أدري.

في الأفق البعيد لمحتُ نقطة سوداء، إنها سفينة تتهيّأ للإبحار، أراها تتراقص على وقع الموج. ثمة رجل يجذب المرساة ويجهّز نفسه للانطلاق في رحلة البحث عن مغامرة. كان عجوزاً، لكن عينيه الزرقاوين كانتا تشعّان. استطعت تعرّفه: إنه سانتياغو «العجوز والبحر» لهمنغواي. «كان اسم الرجل العجوز سانتياغو» لكن، في باقي الكتاب، لا يعود الكاتب إلى ذكر اسم البطل مرة ثانية على ما أذكر.

أبصرت السطر الأول يزدحم بالكلمات على ورقتي بيضاء: «كان اسم الصبي سانتياغو» وفي تلك اللحظة السحرية، عرفت أن وراء هذه الكلمات السحرية، يقبع كتاب.

كنت سأخبر القصة عن أنا سواي، قصة الراعي الذي طالما كنته، على الرغم من أنني لم أرعَ الغنم في حياتي، بل الأحلام فحسب. هوذا الذي سيغدو مرآة حياتي، ويعكس كل العقبات التي انتصبت في طريقي، وكل القرارات، والأخطاء التي ارتكبها يوم انطلق في بحثه عن الكنز.

تدريجاً، وصفحة وراء صفحة، اكتسبت قصة الصبي ملامحها. تابعت العمل بساعاتٍ قليلة، سرعان ما تحوّلت إلى أيام. وعلى مدى أسبوعين، كنت على إدراك أنني أعود إلى الماضي وأتقدّم نحو المستقبل بآن.

نُقلت إلى منطقة تينيريف، حيث عبرت ريح الصحراء جلدي، وحيث تأهلت بي ليلاً رائحة الواحة. ما هذه الطريق الطويلة التي قطعتُها منذ ذلك الوقت؟ كلمات.. أفكار.. ذكريات.. قصص.. حجارةُ الطريق.. وأنا أجالس هذه الصفحة المطبوعة، تمكّنت من رؤية تلك القطعة من الطريق، التي أمشيها مراراً في مخيّلتي.

وهكذا التقى الراعي بالملك، ووجد الشجاعة لكي يتقدّم.

وهكذا اتحد قدري بقدره، تماماً كما تصارعت سفينة الرجل العجوز مع البحر وأمواجه. استطعت أن أصمد في وجه الرياح والأمواج ورحابة الحياة. كل ذلك بفضل أمر ما، أنا بنفسي دوّنته في كتابي السابق، وتمكّنت أخيراً من فهمه:

«السفينة آمنةٌ على الشاطئ. لكنها ليست من أجل ذلك صُنعت»

اليوم وأنا أجالس هذه الورقة التي أنثر عليها بضع كلمات لكي أحتفل بالعيد العشرين لنشر روايتي «الخيميائي»، أريد أن أشكر قرائي من صميم قلبي، فالراعي وحلمه اجتازا الحدود، واكتشفا لغات جديدة، وعبرا المحيطات. الراعي الذي كان، والراعي الذي هو أنا، انطلق في رحلة إلى الكنز، وكان، في الوقت نفسه، يدرك أن الطريق التي تقطعها لا تقل أهمية عن المكان الذي ستصل إليه. ينتهي الكتاب بهذه الكلمات:

«أنا آتٍ يا فاطمة»

جملة وسؤال ظلا معلّقين بالهواء.

آمل أن يصل الراعي إلى المكان الذي يبتغيه. لكن قبل أن يفعل ذلك آمل أن يستمتع بكل الموانئ والمدن والمناظر الطبيعية والتحديات التي تنتظره على الطريق.

ولما كنت أسير إلى جانبه، آمل أن تكون رحلتنا رحلة طويلة ملأى بالمفاجآت والدروس التي نتعلّمها.

باولو كويلو

إلى ج.

الخيميائي الذي يعرف أسرار «الإنجاز العظيم» ويستخدمها.

وفيما هم سائرون دخل قرية فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها. وكانت لهذه أخت تدعى مريم التي جلست عند قدمي يسوع وكانت تسمع كلامه، وأما مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة. فوقفت وقالت يا ربُّ، أما تبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي. فقل لها أن تعينني فاجاب يسوع وقال لها مرثا مرثا أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة. ولكن الحاجة إلى واحد. فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها.

لوقا (الفصل العاشر، الآيات ٣٨ ـ ٤٢)

مقدمة الكاتب لسلسلة رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوّفي الإسلام، وسوف ندعوه هنا حسن، يُحتضَر، عندما سأله تلميذ من تلاميذه:

ـ من كان معلّمك ايها المعلّم؟

أجاب: «بل قل المئات من المعلمين. وإذا كان لي أن أسميهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عديدة، وربما سنوات. وسوف ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

ـ «ولكن، ألم يكن لبعضهم تأثير عليك أكبر من تأثير الآخرين؟»

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال:

«كان هناك ثلاثة في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانب كبير من الأهمية:

«أولهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم أتمكن من الوصول إلى البيت إلا في ساعة متأخرة جداً من الليل. وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت منه المساعدة، ففتح لي قفل الباب في لمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلّمني كيف فعل ذلك.

فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمّل، وأكثر من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، ما إذا كان قد غنم شيئاً. وكان جوابه يتّخذ، على الدوام، منوالاً واحداً لا يتغير: 'لم أوفّق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'.

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جرّاء عودته صفر اليدين. من بعدها، وخلال القسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقّق اتّصالي بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: 'لم أوفّق بشيء هذا المساء، لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'. كان ذلك يمنحني القوة على المتابعة».

ـ «ومن كان المعلّم الثاني؟»

ـ «كان كلباً. فقد حدث أن كنت متوجّهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عطشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غير انعكاس لصورته في الماء.

«دبّ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما بوسعه ليُبعد الكلب الآخر، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قرّر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة».

توقّف حسن قليلاً، ثم تابع:

ـ «أخيراً، كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيته يسير باتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب. ولما كان يقلقني أن

يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمعْ يا صبيّ: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تشعلها؟

«ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غبيًّا. من ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظات معينة، ولكنه لا يعرف إطلاقاً أين أُشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين، أسرّ بمشاعري وأفكاري لكلّ ما يحيط بي: للسحب والأشجار والأنهار والغابات، للرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنت تلميذ الحياة، وما زلت تلميذها. لقد استقيت المعرفة وتعلمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقّعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوّف في الإسلام، أن أحد أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبيّن لي أموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ لبنان»، في المنطقة نفسها التي كثيراً ما أثارت مخيلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماس لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله مني، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيراً، أن أتوجه بالشكر إلى الوكيلة ـ المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكناً، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

پاولو كويلو

مقدّمة

أمسك الخيميائي بكتاب، كان بحوزة أحد أعضاء القافلة. لم يكن للكتاب غلاف، ولكنه، مع ذلك، استطاع معرفة المؤلِّف: إنه أوسكار وايلد. وفيما هو يتصفّحه، وقع على حكاية تتحدّث عن نرسيس.

كان الخيميائي يعرف أسطورة نرسيس، ذلك الفتى الجميل الذي كان يذهب، كل يوم، ليتأمّل جمال وجهه في مياه إحدى البحيرات. وكان مفتوناً بصورته، إلى درجة أنه سقط، ذات يوم، في البحيرة، ومات غرقاً. وفي المكان الذي سقط فيه، نبتت زهرة سمُيت نرسيس (نرجس).

ولكن أوسكار وايلد لا ينهي القصة على هذا النحو.

بل يقول إنه، لدى موت نرسيس، جاءت الأورياديات، ربّات الغابات، إلى ضفّة البحيرة، ذات المياه العذبة، ووجدنها قد تحوَّلت جرن دموع.

سألت الأورياديات البحيرة:

ـ لمَ تبكين؟

ـ أبكي من أجل نرسيس.

ـ إن هذا لا يدهشنا إطلاقاً. لطالما كنّا نلاحقه في الغابات، باستمرار. لقد كنت الوحيدة التي تستطيع مشاهدة جماله عن كثب.

سألت البحيرة:

ـ وهل نرسيس كان جميلاً؟

فأجابت الأورياديات متعجبات:

ـ من يستطيع معرفة ذلك أكثر منك. ألم يكن ينحني فوق ضفافك كل يوم؟

سكتت البحيرة لحظة دون أن تقول شيئاً. ثم أردفت:

ـ أبكي من أجل نرسيس. ولكنني لم ألاحظ، قط، أن نرسيس كان جميلاً. أبكي من أجل نرسيس، لأنني كنت، في كل مرة ينحني فيها على ضفافي، أرى انعكاس جمالي الخاص في عمق عينيه.

قال الخيميائي:

«يا لها من حكاية رائعة».



القسم الأول

اسمه سانتياغو. كان النهار على وشك أن ينتهي عندما وصل، مع قطيعه، إلى باحة كنيسة قديمة مهجورة. كان السقف قد انهار منذ زمن بعيد، ونبتت شجرة جميز ضخمة مكان الغرفة الملحقة بالمذبح.

قرّر أن يقضي الليل في هذا المكان. أدخل كل نعاجه عبر الباب المنهدم. ووضع بعض الأخشاب على نحو يمنعها من الهرب أثناء الليل. لا توجد ذئاب في المنطقة، ولكن نعجة هربت، ذات مرة، فاضطر إلى إضاعة نهار اليوم التالي، بكامله، بحثاً عنها.

بسط رداءه على الأرض، وتمدّد مستخدماً الكتاب، الذي أنهى قراءته، وسادةً. قبل أن يغفو، فكّر بأنه ينبغي له أن يقرأ، بعد الآن، مؤلفاتٍ أكثر ضخامة: بذلك يقضي وقتاً أطول قبل أن ينتهي منها، وقد تغدو وسائد أكثر راحة للنوم.

كان الظلام ما زال مطبقاً عندما استيقظ. نظر إلى الأعلى، وشاهد لمعان النجوم عبر السقف المنهدم جزئياً.

قال في نفسه:

«كنت أود أن أنام وقتاً أطول». لقد راوده الحلم ذاته الذي راوده في الأسبوع السابق، واستيقظ، من جديد، قبل نهايته.

نهض وشرب جرعة من النبيذ، ثم أخذ عصاه وراح يوقظ النعاج التي كانت لا تزال نائمة. لاحظ أن غالبية ماشيته تُفيق من النوم فور إفاقته. لكأنَّ هناك طاقة غامضة توحّد بين حياته وحياة

هذه الأغنام التي تجوب البلاد برفقته، منذ عامين، بحثاً عن الكلأ والماء. قال لنفسه هامساً: «لقد ألفتْ عاداتي، جيداً، حتى باتت تعرف مواعيدي»، ثم فكّر، بعد لحظة، أن الأمر قد يكون عكس ذلك: إنه هو بالذات يعرف مواعيد ماشيته بدقّة.

هناك، مع ذلك، بعض النعاج، التي تتأخّر في النوم. فكان يوقظها، بعصاه، الواحدة تلو الأخرى، منادياً كلًّا منها باسمها. كان على يقين أن النعاج تفهم ما يقوله. لهذا كان يقرأ لها أحياناً بعض الفقرات من الكتب التي تأثَّر بها، أو يحدّثها عن عزلة الراعي، أو عن متعته بالعيش في أجواء الطبيعة، أو يعلِّق على السلع الجديدة التي شاهدها في المدن، التي عبرها مراراً. على أنه، منذ أول أمس، لم يكن لديه أيُّ موضوع آخر للحديث معها، سوى موضوع تلك الفتاة المقيمة في المدينة. إنها ابنة أحد التّجار. لم يكن قد زار تلك المدينة إلا مرة واحدة في السنة الماضية. كان التاجر صاحب دكان للمنسوجات، وكان يحبُّ أن يُجزَّ الصوف أمام عينيه، ليتجنَّب أيَّ غشٍّ في البضاعة. وقد سبق لأحد الأصدقاء أن دلّ الراعي على الدكان، فساق القطيع إليه.



قال للتاجر: «إنني بحاجة لبيع قليل من الصوف».

كان الدكّان مكتظاً بالزبائن، فطلب التاجر إلى الراعي أن ينتظر حتى بداية المساء، فذهب الراعي وجلس على رصيف الدكان، ثم أخذ كتاباً من خُرجه.

قال صوت أنثوي إلى جانبه: «لم أكن أعلم بأن الرعاة يستطيعون قراءة الكتب».

إنها فتاة ذات ملامح أندلسية، ولها شعر أسود طويل، وعينان تذكّران، على نحو غامض، بالغزاة المغاربة القدامى.

أجاب الراعي الشاب: «إن النعاج تعلّم أشياء أكثر مما تعلّمه الكتب».

ظلّا يتحدثان أكثر من ساعتين. قالت إنها ابنة التاجر، وحكت له عن الحياة في القرية، حيث تتشابه الأيام. وحكى لها الراعي عن الريف الأندلسي، والسلع الجديدة التي شاهدها في المدن التي مرَّ بها. وكان سعيداً، لأنه ليس مجبراً دائماً، على الحديث مع النعاج.

سألته الفتاة:

ـ كيف تعلّمت القراءة؟

ـ في المدرسة، مثل جميع الناس.

ـ بما أنك تحسن القراءة، فلمَ أنت مجزد راعٍ؟

سكت الفتى لئلا يجيب عن هذا السؤال. كان على يقين أن من

الصعب على الفتاة أن تفهم. وشرع يحكي قصصاً عن أسفاره، والعينان المغربيتان الصغيرتان تتفتّحان على مداهما، أو تضيقان تحت تأثير المتعة والدهشة. وبقدْر ما كان الوقت يمرُّ، كان يتمنّى ألَّا ينتهي هذا النهار أبداً، وأن يستمر والد الفتاة مشغولاً لوقت طويل، وأن يطلب إليه الانتظار لمدة ثلاثة أيام. وأدرك أنه يشعر بشيء لم يسبق أن شعر به حتى الآن: وهو رغبة البقاء في المدينة نفسها، لأن الأيام برفقة الفتاة ذات الشعر الأسود لن تكون متشابهة إطلاقاً.

ولكن التاجر جاء أخيراً وطلب إليه أن يجزَّ صوف أربع نعاج، ثم نقده الثمن المتوجّب، ودعاه للعودة في السنة المقبلة.



لم يبق أمامه، الآن، سوى أربعة أيام ليصل إلى المدينة ذاتها. كان شديد التأثّر، وشديد القلق، في آن: ربما كانت الفتاة قد نسيته، فالرعاة الذين يعبرون من هنا لبيع الصوف كثيرون.

قال مخاطباً نعاجه:

«لا أهمية لذلك. فأنا أعرف أيضاً فتيات أخريات في مدن أخرى».

ولكنه كان يدرك في أعماقه أن الأمر أبعد من أن يكون عابراً، وأن الرعاة، مثل البحّارة، ومثل التجّار المتجوّلين، متى حلّوا في مدينة، يجدوا، على الدوام، مَنْ ينسيهم متعة التجوال في العالم بكل حرية.



مع أشعة الفجر الأولى، بدأ الراعي يسوق غنمه باتجاه مشرق الشمس. قال في نفسه: «ليست النعاج بحاجة إلى اتّخاذ قرار، ربما أبقاها ذلك قريبة مني باستمرار». إن الحاجة الوحيدة للغنم هي الماء والغذاء. فما دام راعيها يعرف المراعي الخصبة في الأندلس تبقى صديقة له، حتى وإن كانت الأيام، جميعها، تتشابه بساعاتها الطويلة التي تتمطّى بين شروق الشمس وغروبها؛ وإن كانت الخراف لم تقرأ أيَّ كتاب، إطلاقاً، خلال وجودها القصير، وتجهل لغة البشر الذين يروون ما يجري في القرى. إنها تكتفي بالماء والغذاء، وهذا بالفعل كافٍ. وفي المقابل، تقدّم بسخاء صوفها ورفقتها، وأحياناً لحمها.



قال الراعي في سرّه: «وإذا تحوّلتُ، بين لحظة وأخرى، وحشاً، وأقدمت على قتلها، الواحدة تلو الأخرى، فلن تدرك ذلك إلا بعد إفناء القطيع بكامله، لأنّها تثق بي، ولأنّها توقّفت عن الوثوق بغرائزها. وهذا، كلُّه، لأنني أنا من يقودها إلى المرعى».

بدأ الفتى يستغرب أفكاره، هذه، ويجدها شاذّة. ربَّما كانت الكنيسة، مع شجرة الجميز بداخلها، مسكونة بالأرواح. أَوَليس هذا ما جعل ذلك الحلم يراوده من جديد، وبات يشعر، الآن، بنوع من الغضب تجاه نعاجه، صديقاته الوفيات باستمرار؟ شرب النبيذ القليل الباقي من عشاء الأمس، وادَّثر بمعطفه. بعد ساعات قليلة، حين تغدو الشمس في كبد السماء، سوف يشتدُّ الحر إلى درجة يصعب معها سوق قطيعه إلى البرية، وهو يعرف ذلك. في هذا الوقت بالذات، تنام إسبانيا بأسرها. ويستمر الحر حتى الليل، وعليه أن يحمل معطفه طوال هذا الوقت. رغم كل شيء وعندما يبدأ بالتذمّر من عبء المعطف، يتذكّر أنّه، بفضل هذا العبء تحديداً، لم يشعر ببرد الصباح الباكر.

قال في نفسه حينئذ: «ينبغي لنا أن نعيش مستعدّين لمجابهة مفاجآت الطقس»، وتقبّل بامتنان عبء معطفه.

إن هذا المعطف، إذن، كالفتى نفسه. نه ما يبرز وجوده. بعد عامين من التجوال في سهول الأندلس، بات يعرف، عن ظهر قلب، كل مدن المنطقة، وهذا بالذات ما أعطى معنى لحياته: الترحال.

في نيته، هذه المرة، أن يشرح للفتاة كيف بإمكان فلّاح بسيط أن يعرف القراءة: فحتّى السادسة عشرة تردَّد إلى مدرسة إكليريكية. وكان والداه يرغبان بأن يجعلا منه كاهناً ليغدو فخراً لذويه الريفيين البسطاء، الذين يكدحون من أجل الطعام والماء، مثل خرافه تماماً. درس اللاتينية والإسبانية واللاهوت. ولكنه كان يحلم منذ نعومة أظفاره بأن يخبر الحياة، وذلك شيء أكثر أهمية من معرفة الرب وآثام البشر. وذات مساء، حين ذهب لزيارة أسرته، تسلَّح بالشجاعة، وقال لوالده إنه لن يصبح كاهناً، بل يريد أن يسافر.

قال الأب:

ـ يا بني: إن أناساً أتوا من العالم بأسره قد مرّوا بهذه القرية. أتوا إلى هنا بحثاً عن أشياء جديدة لكنهم ظلّوا على حالهم. يذهبون إلى التلة لزيارة القلعة، ويجدون أن الماضي أفضل من الحاضر. كانوا من ذوي الشعر الأشقر أو الأسود، ولكنهم كانوا مشابهين لأهل هذه القرية.

ـ ولكنني لا أعرف قلاع البلدان التي كان أولئك الناس يأتون منها.

ـ أولئك الناس يقولون، عندما يشاهدون حقولنا ونساءنا، إنهم يودّون لو يعيشون هنا دائماً.

قال الفتى، عندئذٍ:

ـ أريد أن أعرف نساءهم، والأراضي التي يأتون منها، لأنهم لا يبقون بيننا.

ـ ولكن أولئك الناس يملأ المال جيوبهم. وهُنا، ليس سوى الرعيان يشاهدون بلداناً أخرى.

ـ إذاً سوف أصير راعياً.

لم يضف الأب على ما قاله شيئاً. في اليوم التالي، أعطى ابنه ثلاث قطع ذهبية إسبانية، قائلاً:

ـ لقد وجدت هذه القطع، ذات يوم، في أحد الحقول، وكنت أفكّر بأن أقدمها للكنيسة بمناسبة سيامتك كاهناً. اشترِ بها قطيعاً من الماشية، واسرح في العالم حتى اليوم الذي تدرك فيه أن قلعتنا هي الأكثر أهمية، وأن نساءنا هنّ الأجمل.

ثم منحه بركته. قرأ الفتى في عينيْ والده رغبته، هو أيضاً، بالسفر. إنها رغبة تعيش، في أعماقه، باستمرار، رغم عشرات السنين التي حاول، خلالها، إشباع رغبته، وهو مقيم في المكان ذاته: به ينامُ كلّ ليلة، وبه يتناول طعامه وشرابه.



اصطبغ الأفق باللون الأحمر، ثم بانت الشمس. تذكَّر الفتى حواره مع والده، وشعر بالسعادة. لقد سبق له أن عرف الكثير من القلاع والعديد من النساء (ولكن ما من امرأة تشبه تلك التي تنتظره بعد يومين). لديه معطف، وكتاب يمكن أن يستبدله بآخر، وقطيع من الغنم. غير أن الأهم من ذلك كلِّه، هو أنه يحقِّق، كل يوم، حلم حياته الكبير: السفر. وعندما يملُّ من سهول الأندلس، سوف يبيع غنمه ويغدو بحاراً، وعندما يتعب من البحر، يكون قد عرف الكثير من المدن، والعديد من النساء، والكثير من الفرص التي أسعدته.

تساءل، وهو ينظر إلى الشمس البازغة: «كيف يمكننا أن نبحث عن الرب في المدرسة الإكليريكية؟». إنه يحاول أن يجد، في كل مرة يكون ذلك ممكناً، طريقاً جديدة ينتهجها، لم يأت إطلاقاً إلى هذه الكنيسة، مع أنه عبر من هنا غير مرة. إن العالم كبير، لا ينتهي، وإذا ترك خرافه تقوده لأفضى به الأمر إلى اكتشاف أشياء مثيرة للاهتمام. «المشكلة هي أنها لا تدرك بأنها تذرع، كل يوم، طرقات جديدة، ولا تدرك أبداً أن المراعي تتغيَّر، وأن الفصول تختلف. لأن شغلها الشاغل هو الغذاء والماء».

قال الراعي في سرِّه: «ربَّما كان الأمر هو ذاته الذي يشغل جميع البشر، ويشغلني شخصياً، حيث ليس في رأسي أيُّ نساء أخريات منذ لقائي ابنة ذلك التاجر».

نظر إلى السماء. وبالاستناد إلى حساباته، سيبلغ مدينة طريفا قبل موعد الفطور. هناك، يمكنه أن يستبدل بكتابه كتاباً ضخماً، ويملأ قنينته بالنبيذ، ويحلق ذقنه، ويقصّ شعره، ينبغي له أن يكون لائقاً لكي يقابل الفتاة، ولا يريد أن يتصوّر أن ثمّة راعياً آخر قد وصل قبله، مع عدد أكبر من الخراف، لكي يطلب يدها.

قال في نفسه: «تلك، بالضبط، إمكانية تحقيق حلم يجعل الحياة جميلة»؛ وكان يرفع نظره، من جديد، نحو السماء، حاثّاً خطاه. وسرعان ما تذكّر، أن في طريفا إمرأة عجوزاً تعرف تفسير الأحلام. وفي ليلته هذه، راوده الحلم ذاته الذي راوده من قبل.



قادت المرأة العجوز الراعي الفتى، داخل منزلها، إلى غرفة تفصلها عن الصالة ستارة بلاستيكية متعددة الألوان. في الغرفة طاولة، وصورة قلب يسوع، وكرسيّان.

جلست العجوز وطلبت إليه الجلوس. ثم أخذت يديه بين يديها، وراحت تصلّي بصوت خفيض.

صلاتها تشبه صلاةً غجرية. لقد سبق له أن التقى العديد من الغجر في طريقه. إن الغجر يتجوّلون، هم أيضاً، ولكنهم لا يهتمون بالمواشي. وثمّة شائعة تقول إن الغجري هو شخص يقضي وقته في خداع الناس. ويقال، أيضاً، إنهم عقدوا حلفاً مع الشيطان، وإنهم يسرقون الأطفال ليجعلوا منهم عبيداً في مخيّماتهم المريبة. عندما كان صغيراً، كان يخاف باستمرار أن يسرقه الغجر. وقد عاد إليه هذا الخوف، حين أمسكت العجوز بيديه.

حاول أن يطمئن نفسه: «ولكن توجد هنا صورة قلب يسوع». لا يريد أن ترتجف يده، وأن تلاحظ العجوز خوفه. تلا بصمت «أبانا الذي في السموات».

قالت العجوز، دون أن تبعد عينيها عن يد الفتى: «شيء مهم...». ثم سكتت من جديد.

شعر أنه يتوتّر أكثر فأكثر، وبدأت يداه ترتجفان رغماً عنه، ولاحظت العجوز ذلك، فسحب يديه بسرعة.

قال في نفسه: «لم آت إلى هنا لقراءة خطوط الكف»، وهو نادم

على دخوله هذا المنزل. بعد لحظة فكَّر أن من الأفضل له أن يدفع ثمن الاستشارة، ويغادر دون أن يعرف شيئاً. لا شك في أنه يعلّق الكثير من الأهمية على حلم يعاوده.

قالت العجوز، حينئذٍ:

«لقد جئت تسألني عن الأحلام. إن الأحلام هي لغة الرب. عندما يتكلم الرب بلغة العالمين، أستطيع تفسير كلامه. ولكن عندما يتكلّم بلغة روحك، فليس هناك، عندئذ، أحد سواك يستطيع الفهم. في كل حال، ينبغي لك أن تدفع لي ثمن الاستشارة».

ظنّ الفتى أن ذلك حيلة أخرى. ولكنه قرَّر، رغم ذلك، أن يجازف. إن الراعي معرَّض، باستمرار، لخطر الذئاب أو الجفاف، وهذا ما يجعل عمله أكثر إثارة.

فقال للمرأة:

«لقد راودني الحلم ذاته، مرتين متتاليتين. وجدت نفسي، مع نعاجي، في أحد المراعي، وإذا بطفل يظهر ويلعب مع الحيوانات. لا أحب أن يأتي أحد ليلهو مع نعاجي، لأنها تشعر ببعض الخوف من الناس الذين لا تعرفهم. ولكن من دأب الأطفال أن يأتوا ليلهوا معها دون أن تشعر بالخوف منهم. لست أدري سبب ذلك، ولست أدري كيف تستطيع الحيوانات أن تعرف أعمار البشر.

قالت العجوز:

ـ عُدْ إلى حلمك، لقد وضعتُ قِدراً على النار. وأنت، بالمقابل، لا تملك الكثير من المال، فلا تُشغل وقتي كلّه.

تابع الراعي، وهو محرج قليلاً:

ـ استمر الطفل يلهو مع النعاج فترة من الوقت. وفجأة أمسك بيدي وقادني حتى أهرامات مصر.

توقَّف عن الكلام، لحظة، ليرى هل تفهم العجوز معنى كلمة الأهرامات. ولكنها بقيت صامتة.

«عند ذلك، وأمام أهرامات مصر (لفظ «أهرامات مصر» بوضوح لكي تتمكّن العجوز من الفهم)، قال الطفل لي: إذا جئت إلى هنا سوف تجد كنزاً مخبوءاً. وفي اللحظة التي عمد فيها إلى تحديد المكان بالضبط، استيقظت. جرى ذلك في المرتين».

بقيت العجوز صامتة بعض الوقت، ثم أمسكت بيديْ الفتى من جديد وقرأتهما بانتباه.

«لن آخذ منك مالاً الآن، ولكنني أريد عُشر الكنز في حال عثورك عليه».

انطلق الفتى يضحك من الفرح.

سيوفّر ما بحوزته من دراهم قليلة، بفضل حلم يتعلّق بكنز مخبوء. لا شك في أن هذه العجوز الساذجة غجرية. إن الغجر أغبياء.

سألها الفتى:

«كيف تفسرين هذا الحلم، إذن؟».

ــ يجب أن تُقسم، أوّلاً، على إعطائي عُشر الكنز مقابل ما أقوله لك.

ــ أقسم.

وطلبت إليه العجوز أن يكرّر القسم، وعيناه مثبتتان على صورة قلب يسوع المقدس.

وقالت له:

«إنه حلم بلغة العالمين، ويمكنني تفسيره، لكن بصعوبة بالغة. لذلك يبدو لي أنني أستحق حصّتي مما سوف تجده.

«أنصتْ إلى التفسير: يجب أن تذهب إلى أهرامات مصر، التي لم أسمع أحداً يحدثني عنها، ولكن إذا كان من أراك إياها طفلاً، فإنها قائمة بالفعل؛ وهناك سوف تعثر على الكنز الذي يجعلك ثريّاً.

فوجئ الفتى، في البداية، ثم شعر بالسخط. لم يكن مضطراً أن

ياتي ويقابل هذه المرأة لأمر تافه كهذا، ولكن تذكّر أنه لن يدفع شيئاً. فقال لها:

ـ إذا كان الأمر مثلما تقولين، فلست بحاجة لإضاعة وقتي.

ـ أرأيت! لقد قلت لك إن حلمك يصعب تفسيره. إن الأشياء البسيطة هي الأكثر غرابة. والعلماء، وحدهم، يستطيعون إدراكها. وبما أنني لست واحدة منهم، فينبغي لي أن أستعين بفنون أخرى: القراءة في الكف، مثلاً.

ـ وماذا أفعل حتى أذهب إلى مصر؟

ـ مهمّتي تفسير الأحلام، وليس بمقدوري تحويلها حقيقة. لهذا السبب أراني مضطرة للعيش ممَّا تعطيني إياه بناتي.

ـ وإذا لم أبلغ مِصر؟

ـ عند ذلك، لن أحصل على شيء؛ ولن تكون هذه المرّة الأولى.

لم تضف العجوز شيئاً، بل طلبت إلى الفتى أن يغادر، لأنه أضاع الكثير من وقتها.



غادر الفتى خائباً، وعازماً على عدم الاعتقاد بالأحلام إطلاقاً. تذكّر أن عليه القيام بعدة أعمال: شراء ما يأكله، واستبدال كتاب أضخم حجماً بكتابه، والجلوس على مقعد، في الساحة، ليتذوّق، قدر ما يشاء، النبيذ الجديد الذي اشتراه. إنه نهار شديد الحرارة، والنبيذ قادر، بأحد أسراره العصيّة، على إنعاشه قليلاً. وكان قد أودع قطيع أغنامه حظيرة، عند مدخل المدينة، تخصّ صديقاً له. إنه يعرف العديد من الناس في هذه الأنحاء. ولهذا السبب بالذات يحب السفر، لأن السفر يساعدنا، باستمرار، على اكتساب أصدقاء جدد، دون أن نكون مضطرين إلى البقاء معهم يوماً بعد يوم. عندما نشاهد دائماً الأشخاص أنفسهم مثلما كانت الحال في المدرسة الإكليريكية، فسوف يؤدي ذلك إلى اعتبارهم جزءاً من حياتنا. وإذا بهم يحاولون تغييرها، في نهاية المطاف. لم نكن مثلما يتمنّون أن يرونا، يستاؤون، لأن الناس، جميعهم، يعتقدون بأنهم يعرفون، بالضبط، كيف ينبغي لنا أن تكون حياتنا.

ولكن لا أحد يعرف، إطلاقاً، كيف ينبغي له أن يعيش حياته. فجميعهم أشبه بامرأة حاملة، تجهل كيف تجسّد أحلامها.

قرّر الانتظار حتى تنخفض الشمس قليلاً، قبل أن يذهب إلى البراري مع نعاجه. بعد ثلاثة أيام سيرى، من جديد، ابنة التاجر.

باشر قراءة الكتاب الذي زوّده به كاهن طريفاً. إنه كتاب ضخم. ومنذ الصفحة الأولى، طالعته جنازة. ثم هناك، فوق ذلك،

أسماء الشخصيات، المعقّدة جداً. فإذا أتيح له، يوماً، أن يؤلّف كتاباً، فسوف يعزف الشخصيات، شخصية إثر أخرى، لكي يجنّب القرّاء مشقّة حفظ أسمائهم جميعها، دفعة واحدة.

وفي حين بدأ يركّز تفكيره على القراءة، (لا سيما وأن الدفن يجري في الثلج ما يعطيه إحساساً بالطراوة تحت هذه الشمس الحارقة)، جلس رجل عجوز إلى جانبه، وراح يحاوره.

قال الشيخ، وهو يشير إلى العابرين في الساحة: «ماذا يفعل هؤلاء الناس؟».

أجاب الراعي بجفاء: «إنهم يعملون». وتظاهر بالانهماك في ما يقرأ. ولكنه كان، في الحقيقة، يفكر بأنه سوف يذهب ليجزّ صوف أغنامه أمام ابنة التاجر، لكي تكون على قناعة بأنه قادر على إنجاز أعمال مهمة. وقد سبق له أن تصوَّر ذلك المشهد عشرات المرات. وكان يرى الفتاة تعجب عندما يشرح لها أن جزَّ صوف الأغنام يبدأ من الوراء إلى الأمام. كما حاول أيضاً أن يتذكّر بعض الحكايات الجميلة ليرويها لها، وهو يجزُّ الصوف. وهي، في الغالب، حكايات قرأها في الكتب، ولكنه سوف يرويها كما لو أنه عاشها بالفعل. لن تدرك الفارق، لأنها لا تحسن القراءة.

بيد أن الرجل الشيخ ألحَّ، وقال إنه متعب وعطشان، وطلب أن يشرب جرعة من النبيذ، فقدّم له الفتى قنينته، على أمل أن يتركه بسلام.

ولكن الشيخ كان يرغب في الثرثرة بأيّ ثمن. سأل الفتى عن الكتاب الذي كان منصرفاً إلى قراءته. بيد أن الفتى فكّر أن يتصرّف على نحو فظّ ويغيّر المقعد؛ ولكن والده كان قد علّمه أن يحترم المسنّين. عند ذلك، قدَّم الكتاب إلى الرجل العجوز، لسببين اثنين: الأول، أنه وجد نفسه عاجزاً عن النطق بالعنوان، والثاني، أن الشيخ، إذا كان يجهل القراءة، فسوف يعمد إلى تغيير مقعده لئلا يشعر بالمهانة.

همهم الشيخ، وهو يتفحَّص الكتاب من مختلف جوانبه، كما لو أنه شيء نادر، فقال: «إنه كتاب مهم ولكنه مملٌّ جداً».

فوجئ الفتى كثيراً، فالعجوز يحسن القراءة، وسبق له أن قرأ هذا الكتاب بالذات. إذا كان كتاباً مملًّا، فلديه متّسع من الوقت لاستبداله.

تابع الشيخ:

«إنه كتاب يتناول، كمعظم الكتب، الشيء ذاته، أي عجز الناس عن اختيار مصيرهم الخاص. وفي النهاية، يحمل على الاعتقاد بأكبر خديعة في العالم».

سأل الفتى مندهشاً:

ـ وما هي أكبر خديعة؟

ـ في لحظة معيّنة من وجودنا، نفقد السيطرة على حياتنا، فتغدو، منذ ذلك، مسوقة بالقدر. ههُنا تكمن أكبر خديعة في العالم.

ـ لكن لم يجرِ الأمر معي على هذا النحو. لقد أرادوا أن يجعلوني كاهناً، غير أنني قررت أن أغدو راعياً.

ـ هذا أفضل لك، لأنك تحب السفر.

قال سانتياغو في نفسه: «لقد حَزِر أفكاري».

في هذا الوقت، كان الشيخ منصرفاً إلى تصفّح الكتاب دون أدنى نية بإعادته. وقد لاحظ الفتى أن الشيخ يرتدي زيّاً غريباً، كما أن سيماه تدلّ على أنه عربي، وهذا لا يبدو مستغرباً في هذه المنطقة، ذلك أن أفريقية تقع على مسافة ساعات قليلة من طريفا، يكفي لبلوغها اجتياز المضيق بالمركب. وغالباً ما يأتي عرب للتسوق في هذه المدينة، ويشاهدون، وهم يؤدون صلاتهم غير مرة في اليوم.

سأل الفتى:

ـ من أين أنت؟

ــ من عدة أماكن.

ــ لا أحد يستطيع أن يكون من عدة أماكن، فأنا راع، ويمكنني أن أتواجد في أماكن مختلفة، ولكنني أنتمي إلى مكان واحد: مدينة مجاورة لقلعة قديمة، حيث ولدت.

ــ إذن، لنقل أنني ولدت في سالم.

لا يعرف الفتى أين تقع سالم، ولكن لم يشأ أن يستوضح لكي لا يُحرَج، لجهله. شَرَع ينظر إلى الساحة، فترةً: الناس يروحون ويجيئون ويبدون منشغلين للغاية.

سأل أخيراً، سعياً منه للحصول على إشارة ما:

ــ كيف هي الحال، في سالم؟

ــ مثلما هي دائماً وأبداً.

لا يحمل هذا الجواب اي إشارة. لقد عرف، على الأقل، أن سالم ليست في الأندلس، وإلا لكان سمع بها.

ــ وماذا تفعل في سالم؟

«ماذا أفعل في سالم؟» قالها الشيخ وهو يضحك، لأول مرّة، من الأعماق. وتابع: «إنني ملك سالم، يا له من سؤال!».

كثيراً ما يتفوّه الناس بأشياء مستهجنة. لعل من الأفضل، أحياناً، أن نعيش مع النعاج الخرساء التي تكتفي بالبحث عن الغذاء والماء؛ أو مع الكتب التي تروي أشياء خيالية عندما نكون راغبين بمعرفتها. ولكننا عندما نتكلّم إلى الناس، فإنهم يقولون بعض الأشياء التي تجعلنا عاجزين عن متابعة الحوار.

قال الشيخ:

ــ اسمي ملكي صادق. كم تملك من الخراف؟

ــ أملك ما يكفي.

لا بدَّ أن الشيخ أراد أن يعرف المزيد عن حياته:

ـ في هذه الحال، لدينا مشكلة. لا أستطيع مساعدتك ما دمت تفكّر أن لديك ما يكفي من الخراف.

بدأ الفتى يشعر بالانزعاج، فهو لم يطلب أي مساعدة، بل إن الشيخ هو من طلب منه النبيذ، وأراد التحدّث، وأبدى اهتماماً بكتابه.

قال:

ـ أعدْ لي هذا الكتاب. ينبغي أن أذهب إلى خرافي وأكمل طريقي.

ـ أعطني عُشر القطيع، وسأعلمك كيف تبلغ مكان الكنز المخبوء.

لدى سماعه ذلك، تذكَّر الفتى حلمه من جديد. وفجأة، بدا كلُّ شيء واضحاً. فالمرأة العجوز لم تأخذ منه شيئاً، ولكن هذا الشيخ (ربّما كان زوجها) يحاول أن يحصل على ما لم تحصل عليه، مقابل نبوءة. قد يكون غجرياً، هو أيضاً.

بيد أن الشيخ، قبل أن ينطق الفتى بكلمة، انحنى والتقط قشّة، وراح يكتب على رمل الساحة، ولدى انحنائه لمع شيء ما على صدره لمعاناً شديداً جعل عينيْ الفتى تنبهران، ولكن الشيخ، بحركة سريعة، لا تلائم سنه، جمع أطراف معطفه على جسده، فزال الانبهار من عيني الفتى، وبات باستطاعته أن يقرأ ما يكتبه العجوز.

على رمل الساحة الرئيسة للمدينة الصغيرة، قرأ اسم والده واسم والدته. وقرأ مسيرة حياته حتى هذه اللحظة، بما في ذلك ألعاب طفولته، والليالي الباردة في المدرسة الإكليريكية؛ قرأ أشياء لم يكن قد ذكرها أمام أحد إطلاقاً، مثل تلك الحادثة، حين سرق بندقية والده ليصطاد الأيائل، أو تجربته الجنسية الأولى بمفرده.

قال الشيخ: أنا ملك سالم.

سأله الفتى، بضيق ودهشة كبيرة:

ـ لمَ يتكلّم ملك إلى راعٍ؟

ـ هناك عدة أسباب لذلك، ولكن لنقل السبب الأكثر أهمية، وهو أنك استطعت إنجاز **أسطورتك الشخصية**.

لم يفهم الفتى ما الذي تعنيه عبارة **الأسطورة الشخصية**.

«هي ما تمنيت، باستمرار، أن تفعله. إن كلًّا منا يعرف، في مطلع شبابه، ما هي **أسطورته الشخصية**.

«ففي تلك المرحلة من الحياة، يكون كل شيء واضحاً وممكناً، ولا نخاف أن نحلم بكل ما نحبّ أن نفعله في الحياة. بيد أن قوة غامضة تحاول، مع مرور الوقت، أن تثبت أن من المستحيل تحقيق **أسطورتنا الشخصية**».

لم يجد الراعي في ما قاله الشيخ معنىً مهماً، ولكنه أراد أن يعرف ما هي تلك «القوى الغامضة» التي ستُذهل ابنة التاجر لدى سماعها.

«إنها تبدو قوى سيئة، ولكنها تعلّمك كيف تحقق **أسطورتك الشخصية**، وهي التي تهيّئ عملك وإرادتك، لأن هناك حقيقة كبرى في هذا العالم: أيّاً تكن، ومهما تفعل، عندما ترغب حقاً بشيء ما، فإن تلك الرغبة تولد من روح الكون. هذه هي مهمتك على الأرض.

ـ حتى وإن كنا فقط راغبين بالسفر؟ أو بالزواج من ابنة تاجر المنسوجات؟

ـ «أو بالبحث عن كنز. إن روح الكون تغتذي بسعادة البشر، أو بشقائهم ورغباتهم وحسدهم. إن إنجاز **الأسطورة الشخصية** هو الواجب الوحيد المفروض على البشر. ليس الكلُّ سوى شيء واحد.

«وعندما ترغب في شيء ما، فإن الكون بأسره يطاوعك على القيام بتحقيق رغبتك».

سكتا لحظة يتأمّلان، خلالها، الساحة والمارة. ثم قطع الشيخ الصمت قائلاً:

ـ لماذا تحتفظ بالخراف؟

ـ لأنني أحب الترحال.

أشار الرجل إلى بائع للفشار، يقف بعربته الحمراء، على ناصية الساحة:

«رافقت طفولة هذا الرجل رغبة في السفر. ولكنه فضَّل أن يشتري عربةً صغيرة ليبيع الفشار، ويجمع المال، طوال سنوات عدة. حتى إذا غدا شيخاً، يذهب لقضاء شهر في أفريقية. لم يدرك، إطلاقاً، أننا نملك، دائماً، إمكانية تحقيق ما نحلم به».

فكَّر الفتى بصوت مسموع:

ـ كان عليه أن يختار مهنة الرعي.

ـ لقد فكَّر بالأمر فعلاً، ولكن بائعي الفشار أهم بكثير من الرعيان، لأن لهم مساكن يأوون إليها، في حين ينام الرعيان في العراء. والناس يفضّلون تزويج بناتهم لبائعي الفشار، أكثر منهم للرعاة.

شعر الفتى بانقباض في صدره، وهو يفكر بابنة التاجر. ذلك أن المدينة التي تعيش فيها، هناك، لا بُدَّ أن يكون فيها بائع فشار.

«وأخيراً، فإن ما يفكّر الناس فيه، بشأن بائعي الفشار، والرعيان، يغدو، بنظرهم أكثر أهمية من **الأسطورة الشخصية**».

فتح الشيخ الكتاب وتسلّى بقراءة إحدى صفحاته. انتظر الراعي قليلاً، ثم قاطعه بنفس الطريقة التي قاطعه بها:

ـ لمَ تقول لي هذه الأشياء؟

ـ لأنك تحاول أن تعيش **أسطورتك الشخصية**، ولأنك على وشك أن تعدل عن ذلك.

ـ وهل تعلن ظهوركَ دائماً في مثل هذه اللحظات؟

ـ ليس بهذا الشكل دائماً، ولكنني لا أتخلَّف عن الظهور إطلاقاً. أحياناً أظهر في شكل فكرة جميلة. وأحياناً أخرى، وفي لحظة حاسمة، أتصرّف على نحو تغدو الأمور، معه، أكثر سهولة، وهكذا، ولكن معظم الناس لا يلاحظون شيئاً.

وحكى أنه اضطُرَّ، في الأسبوع الماضي، أن يظهر، لمنقِّب، في شكل حجر. ذلك أن الرجل تخلَّى عن كل شيء لينصرف إلى البحث عن الزُمرُّد. واستمر يبحث، طوال خمس سنوات على ضفاف أحد الأنهار، حيث كسر ٩٩٩ ٩٩٩ حجراً، محاولاً العثور على زمردة، دون جدوى. ففكَّر، عندئذ، بالتوقف عن البحث، ولم يكن ينقصه سوى حجر واحد ليجد زمردته. وبما أنه كان يراهن على **أسطورته الشخصية**، فقد قرَّر الشيخُ التدخل، فتحوّل حجراً يتدحرج عند قدميْ المنقِّب. لكن المنقِّب تحت تأثير الغضب، وبسبب شعوره بالإحباط بعد خمس سنوات راحت سدى، قذف الحجر بعيداً، وبقوّة أدّت، لدى اصطدامه بحجر آخر، إلى انفلاقه، فإذا، بداخله، أجمل زمرّدة في العالم.

قال الشيخ، وبعينيه*مسحة من المرارة:

«إن الناس يدركون، في سن مبكرة، الغاية من وجودهم، وربما كمن هذا السبب ذاته وراء تخلّيهم المبكر عنها. ولكن هكذا يسير العالم».

تذكّر الفتى، عندئذ، أن الحوار انطلق من موضوع الكنز المخبوء.

تابع الشيخ:

ـ إن السيل الجارف هو الذي يكشف الكنوز وهو الذي يدفنها في آن. إذا كنت تريد أن تعرف المزيد عن كنزك فينبغي لك إعطائي عِشر قطيعك.

ـ ألا ترضى بعشر الكنز؟

بدا الشيخ خائباً:

ـ إذا وعدت بما لم تملكه بعد، فسوف تفقد الرغبة في الحصول عليه.

فأجابه الفتى أنه وعد الغجرية بعشر الكنز.

عقّب الشيخ قائلاً:

ـ الغجر ماكرون. وفي كل حال، فإن من المستحسن أن تدرك أن لكل شيء في الحياة ثمنه. وهذا ما يحاول محاربو الضوء تعليمه.

وأعاد الكتاب إلى الفتى.

وقبل أن يختفي في إحدى زوايا الساحة، قال له:

«غداً، في مثل هذا الوقت تأتيني بعشر قطيعك، وسوف أشرح لك كيف تنجح بالعثور على كنزك المخبوء. عمت مساءً».



حاول الفتى العودة إلى القراءة، ولكنه لم يستطع التركيز. كان مستثاراً ومتوتّراً، لأنه يعرف أن الشيخ يقول الحقيقة. ذهب إلى البائع المتجوّل، واشترى منه كيس فشار، وتساءل: هل ينبغي أن يحكي له ما قاله الشيخ أم لا؟ ارتأى أن تترك الأمور أحياناً على ما هي عليه، ولم يقل شيئاً. إذا حدَّثه عن ذلك، فقد يقضي البائع ثلاثة أيام يفكّر ليعرف: هل سيترك كل شيء رغم أنه قد ألف، إلى حدٍّ بعيد، عربته الصغيرة؟

بوسعه أن يجنِّب البائع هذا الشك الموجع. انطلق يتجوّل في المدينة حتى بلغ المرفأ. ثمة مبنى صغير ذو نافذة خاصة يؤمّها الناس لشراء تذاكر السفر. إن مصر تقع في أفريقية.

سأله موظف شباك التذاكر: «أتريد شيئاً؟».

أجاب وهو يبتعد: «ربَّما غداً». بثمن نعجة واحدة يستطيع العبور إلى الضفة الأخرى من المضيق. أرعبته هذه الفكرة.

وفي حين أن الفتى كان يبتعد، قال موظف شباك التذاكر لزميله:

«إنه حالم آخر لا يملك ثمن تذكرة السفر».

عندما كان أمام شباك التذاكر، فكَّر بخرافه، إنه يخاف من العودة إليها. لقد تعلَّم، خلال هاتين السنتين، كل شيء عن تربية الغنم. وهو يتقن جزَّ الصوف، والعناية بالنعاج الحوامل، وحماية

قطيعه من الذئاب، ويعرف كل حقول الأندلس ومراعيها، كما يعرف ثمن المبيع وثمن الشراء لكل من بهائمه.

قرر العودة إلى حظيرة صديقه عبر الطريق الأطول. لهذه المدينة قلعتها أيضاً، وهو يودّ تسلّق المنحدر الصخري والجلوس على السور. باستطاعته أن يرى، من علٍ، أفريقية. لقد قال له أحدهم، ذات يوم، إن العرب جاؤوا من هناك، وفتحوا معظم إسبانيا لزمن طويل. إنه يحسب أن العرب هم الذين جاؤوا بالغجر.

ومن علٍ يستطيع، أيضاً، أن يشاهد القسم الأكبر من المدينة، بما في ذلك الساحة التي تحادث فيها مع الرجل العجوز.

قال الفتى في نفسه: «اللعنة على الساعة التي التقيت، فيها، ذلك الشيخ». لقد ذهب ببساطة، ليقابل امرأة قادرة على تفسير الأحلام. لكن لا المرأة ولا هذا الشيخ أبديا اهتماماً بكونه راعياً. إنهما شخصان منعزلان لا يأبهان لأيّ أمر من أمور الحياة، ولا يفهمان أن الرعيان ينتهي بهم الأمر إلى التعلّق بماشيتهم. إنه يعرف كل واحدة، بمفردها، من ماشيته، ويعرف إذا كانت إحداها تعرج، وتلك التي ستلد بعد قليل؛ ويميّز الأغنام الكسولة؛ كذلك يتقن أيضاً جزّ صوفها، وذبحها. إذا قرر الرحيل، فسوف تتألّم لفراقه.

بدأت الرياح تهبّ. إنه يعرف هذه الرياح، فهي تدعى الرياح الشرقية، لأنها، هي بالذات، التي جاءت معها العصابات. قبل أن يتعرّف إلى مدينة طريفا لم يكن يتصور أفريقية قريبة إلى هذا الحدّ. وهذا يشكّل خطراً كبيراً؛ إذ باستطاعة المغاربة غزو البلاد من جديد.

ازداد عصف الريح. وقال في نفسه: «أنا حائر بين أغنامي والكنز». يجب أن يقرر، أن يختار بين شيء تعوّده وشيء يودّ، بشغف، الحصول عليه. ثم هناك ابنة التاجر، ولكنها ليست بأهمية النعاج، لأنها غير مرتبطة به. وهو على يقين بأن الفتاة إذا لم

تشاهده، بعد يومين، لن تولي الأمر كبير أهمية: فهي ترى جميع الأيام متشابهة. وإذا تشابهت الأيام، هكذا، فذلك يعني أن الناس توقّفوا عن إدراك الأشياء الجميلة التي تمثُل في حياتهم، ما دامت الشمسُ تعبر السماء.

قال في نفسه: «تركت أبي، وأمي، وقلعة المدينة حيث وُلدت. وقد تعوّدا غيابي، كما تعوّدت غيابهما. والأغنام، أيضاً، سوف تألف غيابي».

تأمّل، من علٍ، الساحة. ما زال البائع المتجوّل يبيع الفشار، في حين أن المقعد، الذي جمعه بحديث إلى الشيخ، قد شغله شاب وفتاة مستغرقَين في قبلة طويلة.

همس في نفسه: «بائع الفشار...» دون أن يكمل الجملة، لأن الريح الشرقية تعصف بقوة، ويشعر بعصفها على وجهه. إنها تأتي بالمغاربة، بلا ريب، ولكنها تحمل أيضاً رائحة الصحراء والنساء المحجبات، وتحمل العرق وأحلام الرجال الذين انطلقوا، ذات يوم، للبحث عن المجهول والذهب والمغامرات، و... عن الأهرامات. بدأ الفتى يغبط الرياح على حريتها، وقد أدرك أن باستطاعته أن يغدو حراً مثلها. لا شيء يمنعه عن ذلك، اللهمَّ إلا نفسه بالذات.

إن النعاج وابنة التاجر وحقول الأندلس، ليست سوى مراحل من **أسطورته الشخصية**.



في ظهيرة اليوم التالي التقى الفتى الشيخ، ومعه الخراف الستة وقال له: «إنني مندهش، لقد اشترى صديقي القطيع على الفور. قال لي إنه كان يحلم طوال حياته بأن يغدو راعياً. إنها إشارة طيبة».

ــ هكذا هو الأمر دائماً. هذا ما نسميه **المبدأ الملائم**. إذا لعبت الورق، لأول مرة، فسوف تربح حتماً. إنه حظ المبتدئ.

ــ لِمَ ذلك؟

ــ لأن الحياة تريدك أن تعيش **أسطورتك الشخصية**.

ثم راح يعاين الخراف الستة، واكتشف أن أحدها يعرج. فقال له الفتى أن لا أهمية لذلك، وأن هذا الخروف أذكى خرافه، ويعطي الكثير من الصوف.

ثم سأل الشيخَ: «أين يوجد الكنز؟».

ــ الكنز في مصر، على مقربة من الأهرامات.

اعترت الفتى رجفةٌ. لقد قالت له المرأة العجوز الشيء نفسه، ولكنها لم تتقاضَ أجراً.

«لكي تصل إلى الكنز، ينبغي لك أن تنتبّه إلى الإشارات. لقد كتب الربُّ، في العالم، لكلٍّ منّا الطريق التي يجب عليه اتّباعها. ومهمتك تقتصر على قراءة ما كُتب لك».

قبل أن يقول الفتى شيئاً ما، طارت فراشة بينه وبين الشيخ. تذكَّر جدَّه الذي أخبره، عندما كان طفلاً، أن الفراشات فأل

حسن. كذلك هي الجداجد، والجراد الأخضر اللون، والعظايات الصغيرة الرمادية اللون، والنفل ذات الأربع وريقات.

قال الشيخ، القادر على قراءة أفكاره:

«هذا صحيح، تماماً مثلما قال لك جدُّك. تلك هي الإشارات».

ثم فتح المعطف الذي يغطّي ملابسه، فدهش الفتى ممّا شاهده، حينذاك، وتذكَّر البريق الذي بهره يوم أمس. ذلك أن الشيخ يرتدي صدرية من الذهب الخالص، ترصّعها الأحجار الكريمة.

إنه ملك بالفعل. لا ريب أنه متنكّر، على هذا النحو، لينجو من اللصوص.

قال الشيخ، وهو ينتزع درّة بيضاء ودرّة سوداء من وسط الصدرية: «خذهما، إنهما تدعيان **أوريم وتوميم**. السوداء تعني «نعم»، والبيضاء تعني «لا». وعندما تعجز عن اكتشاف مواضع الإشارات، تساعدانك. ولكن ليكن سؤالك موضوعيًا باستمرار.

«حاولْ، إجمالاً، أن تتّخذ قراراتك بنفسك. إن الكنز موجود على مقربة من الأهرامات، وهذا أمر سبق أن عرفته، ولكنك اضطررت إلى إعطائي الخراف الستة لأنني أنا، من ساعدك على اتخاذ قرار».

خبّأ الفتى الدرّتين في خُرجه. سوف يتّخذ، من اليوم فصاعداً، قراراته بنفسه.

«لا تنسَ: ليس الكل إلا واحداً، ولا تنس لغة الإشارات، ولا تنس، خصوصاً، الذهاب إلى نهاية **أسطورتك الشخصية**.

«وأودّ، قبل أن نفترق أن أروي لك هذه الحكاية القصيرة:

«أرسل أحد التجار ابنه لكي يتعلّم سرَّ السعادة من أكبر حكيم بين البشر. سار الفتى، طوال أربعين يوماً، في الصحراء قبل أن يصل، أخيراً، إلى قصر جميل يقع على قمة جبل، حيث يعيش الحكيم الذي يبحث عنه. «وبدل أن يلتقي رجلاً قدّيساً، دخل قاعة تعجّ بالحركة والناس: تجار يدخلون ويخرجون، وأناس يثرثرون في

إحدى الزوايا، وجوقة تعزف قطعاً موسيقية عذبة، ومائدة حافلة بأشهى أطعمة هذه المنطقة من العالم. وكان الحكيم يتكلّم إلى هؤلاء وأولئك، فاضطر الفتى أن يصبر ساعتين كاملتين قبل أن يحين دوره.

«استمع الحكيم، بانتباه، إلى الفتى وهو يشرح سبب زيارته، لكنه قال أن لا وقت لديه، الآن، ليكشف عن سر السعادة. واقترح على الفتى أن يقوم بجولة في القصر، وأن يعود إليه بعد ساعتين.

«وأضاف الحكيم، وهو يعطي الفتى ملعقة صغيرة فيها نقطتا زيت: 'بيد أنني أريد منك أثناء تجوالك أن تمسك بهذه الملعقة، على نحو لا يؤدّي إلى انسكاب الزيت منها'.

«بدأ الفتى يصعد وينزل على سلالم القصر مثبتاً عينيه، باستمرار، على الملعقة. وعاد بعد ساعتين إلى مقابلة الحكيم.

«سأله الحكيم: هل شاهدت السجاجيد الفارسية في غرفة طعامي؟ هل شاهدت الحديقة التي استغرق إنشاؤها عشر سنوات على يد أمهر بستاني؟ هل لاحظت الرقَّ الجميل في مكتبتي؟

«اعترف الفتى، مرتبكاً، أنه لم يشاهد شيئاً، بل كان همّه الوحيد عدم انسكاب نقطتيْ الزيت اللتين عهد الحكيم بهما إليه.

«فقال الحكيم: حسناً عُدِ، الآن، وتعرَّف إلى روائع عالمي الخاص. لأننا لا نستطيع الوثوق برجل، إذا نحن لم نتعرّف إلى المنزل الذي يسكنه.

«أخذ الفتى الملعقة، وقد غدا أكثر ثقة بنفسه، وعاد يتجوّل في القصر، مولياً انتباهه، هذه المرة، إلى شتى التحف الفنية المعلّقة على الجدران، وعلى السقوف. وشاهد الحدائق والجبال المحيطة بها، وأناقة الأزهار، ورهافة الذوق في وضع كل تحفة فنية في المكان الذي يلائمها. ولدى عودته إلى الحكيم، تحدَّث بدقّة عن كل ما شاهده. وحين سأله الحكيم: أين هما نقطتا الزيت اللتان عهدت بهما إليك؟ أدرك الفتى، وهو ينظر إلى الملعقة، حينذاك، ضياعهما.

«عندئذ، قال حكيم الحكماء: تلك هي النصيحة الوحيدة التي يمكنني أن أسديها إليك: إن سرَّ السعادة هو في أن تشاهد كل روائع الدنيا دون أن تنسى، إطلاقاً، نقطتيْ الزيت في الملعقة».

استمرَّ الراعي صامتاً. لقد فهم حكاية الملك العجوز. فبمقدور الراعي أن يحبَّ الأسفار، ولكن دون أن ينسى نعاجه إطلاقاً.

نظر الشيخ إلى الفتى، ورسم، براحتيه المفتوحتين، حركات غريبة فوق رأسه، ثم جمع الخراف الستة، وغادر.



ثمة حصن قديم، بناه المغاربة، يشرف على مدينة طريفا الصغيرة. ومن يجلس على أسواره، يمكنه مشاهدة ساحة عامة، وبائع فشار، وبقعة من أفريقية.

جلس ملكي صادق، ملكُ سالم، ذلك المساء، على أسوار الحصن، وشعر بهبوب الريح، التي تُدعى شرقية، على وجهه. وكانت النعاج، قربه، لا تكفُّ عن التحرك، إنها قلقة، ومضطربة جرّاء استبدال راعيها، وبسبب كل هذه البلبلة. إن كل ما ترغب فيه هو الحصول، فقط، على الطعام والماء.

راقب ملكي صادق المركب الصغير، وهو يبتعد من المرفأ. فكما استحال عليه أن يرى إبراهام ثانية، كذلك لن يرى الراعي الفتى، بعد أن جعله يدفع له العشر. إلّا أن ذلك، هو عمله.

يجب ألّا يكون عند الآلهة أمنيات، لأن ليس لها **أسطورة شخصية**. غير أن ملك سالم تمنّى، في أعماقه، النجاح للفتى.

«يا للأسف! سوف ينسى اسمي قريباً. كان يجب أن أكرّره على مسامعه غير مرة. حتّى إذا تحدّث عني يقول إنني ملكي صادق، ملك سالم».

ثم رفع عينيه نحو السماء مرتبكاً من هذه الأفكار التي تراوده: «إنني أعلم أن ذلك باطل الأباطيل، مثلما قلت، **أنت ذاتك**، أيها الرب.

ولكن يحقُّ للملك عجوز أن يكون، أحياناً، فخوراً بنفسه».

* * *

قال الفتى في نفسه:

«يا لها من بلاد عجيبة، أفريقية هذه!».

كان جالساً في مقهى يشبه سائر المقاهي التي استطاع مشاهدتها أثناء تجواله في شوارع المدينة الضيقة. ثمّة رجال يدخّنون ما يشبه الغليون العملاق (النارجيلة) ينقل من فم إلى فم.

نسي، وهو منهمك في الاستعداد للسفر الكبير، تفصيلاً صغيراً ووحيداً يمكن أن يبقيه بعيداً عن كنزه لمدة طويلة. ذلك أن الجميع، في هذه البلاد، يتكلّمون اللغة العربية.

اقترب صاحب المقهى منه، وأشار بإصبعه إلى شراب قدَّمه لزبائن الطاولة المجاورة، وهو شايٌ مرُّ الطعم. لكنّه يفضّل احتساء النبيذ.

لم يكن الوقت مناسباً للتفكير بمثل هذه الأمور. عليه ألّا يفكّر إلا بكنزه، وبطريقة الحصول عليه. فمن جرّاء بيع الخراف أودع جيبه مبلغاً معقولاً من المال. كان يعرف أن للمال فعل السحر: مع المال، لا يكون المرء وحيداً على الإطلاق. بعد قليل من الوقت، ربما بضعة أيام، سيجد نفسه عند سفح الأهرامات. إن رجلاً مسنًّا، مع كل ذلك الذهب الذي كان يلمع على صدره، لا يحتاج إلى رواية الأكاذيب ليحصل على ستة خراف.

لقد حدَّثه الملك العجوز عن الإشارات. وفكّر هو، أثناء عبوره المضيق، بالإشارات. أجل، إنه يعرف جيداً عمَّا يتكلم: فطوال ذلك الوقت، الذي قضاه في ربوع الأندلس، تعوّد أن يقرأ، على الأرض وفي

السماوات، التوجيهات المتعلقة بالطريق التي ينبغي له سلوكها. وتعلّم أن طائراً يكشف عن وجود أفعى قريبة، وأن شجيرة تتيح لنا أن نعلم بوجود الماء على مسافة بضعة كيلومترات. إن الخراف هي التي علّمته هذه الأشياء.

قال في سرّه:

«إذا كان الربُّ يرشد الأغنام جيداً، فسوف يرشد الإنسان، أيضاً»، وشعر بالاطمئنان، وبدا له الشاي أقل مرارةً.

سمع أحداً يسأله بالإسبانية: «من أنت؟».

شعر بارتياح غامر. كان يفكّر بالإشارات، وإذا بشخص يظهر له.

سأل بدوره: «أوَليس غريباً أن تتكلّم بالاسبانية؟».

كان القادم الجديد فتى يرتدي الزيّ الأوروبيّ، ولكن لون بشرته يدلُّ، بوضوح، على أنه من هذه المدينة. إنه يشبهه في طول القامة وفي العمر.

ـ هنا، يكاد كل الناس يتكلمون الإسبانية. إننا على بعد ساعتين من إسبانيا فقط.

ـ اجلس، لأطلب لك شيئاً. أما أنا، فسوف أطلب نبيذاً. إنني أمقت هذا الشاي.

ـ لا يوجد نبيذ في هذه البلاد، لأن الدين يحرّمه.

قال الفتى، عندئذ، إنه يريد الذهاب إلى الأهرامات، وكان على وشك أن يتحدّث عن الكنز، ولكنه آثر الصمت، فقد يطلب إليه العربي جزءاً من الكنز ليرافقه إلى هناك. وتذكّر ما قاله العجوز له في شأن الاقتراحات.

ـ أبوسعك إرشادي إلى هناك؟ وسوف أنقدك أجراً على ذلك. ألديك فكرة عن كيفية بلوغ ذلك المكان؟

لاحظ الفتى أن صاحب المقهى، الذي كان قريباً منهما، يُنصت

إلى الحوار باهتمام. فشعر بعدم الارتياح لوجوده. لكنه التقى دليلاً، ولا يريد إضاعة هذه الفرصة.

قال الشاب:

«ينبغي اجتياز الصحراء الكبرى بكاملها، ومثل هذا الأمر يتطلّب مالاً. ألديك المال الكافي أوّلاً؟».

استغرب الفتى هذا السؤال، ولكنه يثق بالرجل العجوز، الذي كان قد قال له: عندما نريد شيئاً ما، حقّاً، فإن الكون بأسره يطاوعنا لإيجاده.

أخرج نقوده من جيبه، وأراها لمرافقه الجديد. اقترب صاحب المقهى، منهما، أكثر، ونظر بدوره. تبادل الرجلان بضع كلمات بالعربية، وبدا صاحب المقهى غاضباً.

قال الشاب:

«لنغادر هذا المكان، إنه ليس راغباً في بقائنا هنا».

شعر الفتى بمزيد من الاطمئنان. نهض ليدفع ما يتوجّب عليه، ولكن صاحب المقهى أمسك بذراعه، وأسمعه عظة طويلة، دون توقّف. كان الفتى قويَّ البنية؛ بيد أنه غريب. وإذا بالصديق الجديد يدفع صاحب المقهى جانباً، ويمضي بالفتى إلى الخارج.

قال له:

«إنه يطمع بمالك. فطنجة ليست كسائر مناطق أفريقية. نحن هنا في ميناء؛ والموانئ، جميعها، مغارات لصوص».

يمكنه إذاً الوثوق بهذا الصديق الجديد الذي أتى لمساعدته عندما كان في وضع حرج. أخرج المال من جيبه وعدّه.

أخذ الشاب النقود، ثمّ أضاف:

«نستطيع الوصول، غداً، إلى الأهرامات، ولكن ينبغي أن أشتري جملين اثنين».

وانطلقا، معاً، في شوارع طنجة الضيّقة. كانت كل النواصي

والحوانيت، مملوءة بضائع معروضة للبيع. وصلا، أخيراً، إلى وسط ساحة كبيرة، حيث تُقام السوق. كان ألوف الأشخاص في المكان يتجادلون ويبيعون ويشترون، وكانت المنتوجات الزراعية تجاور الخناجر والسجاد والغلايين من شتى الأنواع. ولكن الفتى لم يحوّل نظره عن صديقه الجديد، فهو لا ينسى أن كل نقوده باتت بين يديه. فكَّر، غير مرة، باستعادتها. ولكن كان يقول لنفسه، إن تصرّفه ذاك لن يكون لائقاً. ثم إنه يجهل عادات هذه البلاد الغريبة التي يجوب الآن أرضها.

وقال في نفسه: «يكفي أن أراقبه». إنه أقوى من الآخر.

في وسط هذه الزحمة، وقعت عيناه فجأة على سيف لم يرَ أجمل منه؛ سيف له غمد من الفضة، ومقبض أسود اللون رُصِّع بالأحجار الكريمة. فوعد نفسه بشراء هذا السيف لدى عودته من مصر.

وقال لمرافقه:

«سلْ التاجر عن ثمنه». ولكنه أدرك أنه ذَهل عنه لدقيقتين عندما كان يتأمّل السيف.

انقبض قلبه، كما لو أن صدره قد تقلَّص فجأة، وخشي النظر إلى جانبه، مدركاً تماماً ما الذي ينتظره. أبقى عينيه مثبتتين، لحظةً، على السيف، ثم تشجّع أخيراً، واستدار.

ما زال كل شيء حواليه: السوق، والناس يروحون ويجيئون ويصرخون ويشترون السجاد والبندق، كذلك لا تزال الخُضر قرب الصواني النحاسية، والرجال المتشابكو الأيدي في الشارع، والنساء المحجّبات، وتوابل الطعام الغريبة... ولكن لا أثر لمرافقه في أيِّ مكان، لا أثر له، على الإطلاق.

حاول أن يوهم نفسه أنّ كلًّا منهما غاب عن نظر الآخر، مصادفة. وقرَّر أن يبقى في مكانه آملاً بعودة الآخر. بعد برهة، صعد رجل إلى أحد تلك الأبراج الشهيرة وبدأ يؤذِّن. ركع الموجودون

في المكان، جميعهم، وراحوا يصلّون. بعد ذلك، ومثل خليّة نمل تعمل، نزعوا الأكواخ الخشبية وغادروا.

وتوارت الشمس، بدورها، حدَّق الفتى إليها فترة طويلة، حتى اختبأت وراء المنازل البيضاء، المحيطة بالمكان، وقال في سرّه إنه عندما بزغت هذه الشمس صباح هذا اليوم، كان، في قارّة أخرى، وكان راعياً يملك ستين رأساً من الضَّان، وكان على موعد مع فتاة. وصباح هذا اليوم، غداً، وهو يسير عبر الحقول، يعرف ما سوف يحدث.

إلَّا أنه، مع غياب الشمس، يجد نفسه غريباً، في بلد غريب حيث لا يستطيع حتى فهم اللغة التي يتكلّم الناس بها. لم يعد راعياً، ولا يملك شيئاً، حتى المال الضروري ليعود أدراجه، ويبدأ من جديد.

قال في نفسه:

«لقد حدث ذلك، كلُّه، بين شروق الشمس وغروبها». وأشفق على ذاته، وهو يرى أن الأشياء قد تتغير في الحياة، خلال ومضة، وحتى قبل أن يتوافر الوقت الكافي لتعوّدها.

من المخجل أن يبكي. لم يسبق له أن بكى إطلاقاً أمام أغنامه. ولكن ساحة السوق مقفرة، وهو بعيد عن وطنه.

بكى. بكى لأن الربَّ يكافئ الناس الذين يؤمنون بأحلامهم الخاصة، على هذا النحو. «عندما كنت مع أغنامي، كنت سعيداً، وكنت أقتسم سعادتي مع كل من جاورني. إذا شاهدني الناس مقبلاً نحوهم، استقبلوني بحفاوة. أما الآن، فإنني حزين وبائس. ماذا أفعل؟ يجب أن أكون أكثر حذراً، وألَّا أثق بأحد، لأن أحدهم خانني، وسوف أكره كل من وجد كنزاً مخبوءاً، لأنني لم أجد كنزي. وسوف أسعى، باستمرار، للمحافظة على ما لديَّ، لأنني أصغر من أن أفهم العالم».

فتح خُرجه ليرى ما بداخله. ربَّما بقيت قطعة من الشطيرة التي أكلها على متن المركب. ولكنه لم يجد سوى الكتاب

الكبير، والمعطف، والحجرين الكريمين اللذين أعطاه إياهما الرجل العجوز.

أحسّ، لدى رؤيتهما، بارتياح غامر. لقد استبدل بستّة خراف هذين الحجرين الكريمين المنتزعين من صدرية ذهبية.ويمكنه بيعهما ليشتري بثمنهما تذكرة العودة. قال في نفسه، وهو يتناولهما من خُرجه ليخبّئهما في قعر جيبه: «سوف أغدو، من الآن فصاعداً، أكثر مكراً. إنه، هنا، في ميناء، والشيء الحقيقي الوحيد، الذي قاله له ذلك الشاب: إن الموانئ مغارات لصوص.

لم يدرك قبل الآن سبب الجهد اليائس الذي بذله صاحب المقهى: كان يحاول تحذيره من ذلك الشاب. «إنني، مثل كل الناس، أرى العالم بمنظار من يريد أن تحدث الأمور كما يشتهي، وليس كما تحدث في الواقع».

ظلَّ يتفخص الحجرين الكريمين. يتلمّس كلًّا منهما بحنان، ويتحسّس حرارتهما وسطحهما الأملس. إنهما كنزه، يكفي أن يلمسهما حتى يزوِّداه بنوع من الاطمئنان. إنهما يذكّرانه بالرجل العجوز، الذي قال له:

«عندما تريد شيئاً ما، حقًّا، فإن الكون بأسره يطاوعك للحصول عليه».

كان بودّه أن يفهم كيف يمكن أن يتحقّق ذلك. إنه هنا، في ساحة السوق المقفرة، وبلا أيِّ فِلس في جيبه، ودون أغنام يقوم بحراستها ليلاً. ولكن هذين الحجرين يؤكدان أنه التقى بالفعل ملكاً، ملكاً يعرف سيرته الشخصية، ويعلم بما فعله بسلاح والده، وبأول تجربة جنسية له.

«إن هذين الحجرين أوريم وتوميم يُستخدمان في التنجيم». أعادهما إلى مكانهما في الخرج، وقرر أن يقوم بالتجربة. كان الشيخ قد قال له: ينبغي طرح أسئلة واضحة، لأن الحجرين لا يؤديان خدمة، إلّا إذا كنا نعرف ماذا نريد.

سأل الفتى، حينئذ عمّا إذا كانت بركة الشيخ لا تزال ترافقه.

وأخرج أحد الحجرين. إنه حجر «أجل».

وأردف:

«هل سأعثر على كنزي؟».

أدخل يده في الخرج ليمسك بأحد الحجرين، ولكن الحجرين انزلقا من ثقب في قماش الخرج. لم ينتبه، من قبل، أن خرجه كان ممزقاً. انحنى ليلتقط أوريم وتوميم، ويعيدهما إلى الخرج. ولكنه، مع مشاهدته لهما على الأرض، تذكّر جملة أخرى قالها العجوز:

«تعلّم أن تحترم الإشارات وتطيعها».

«إشارة !»، ضحك الفتى من تلقاء نفسه، ثم التقط الحجرين، وأعادهما إلى خرجه. ليس في نيّته أن يخيطه من جديد، وليفلت الحجرين عبر الثقب في أي وقت. لقد أدرك أن هناك أشياء يجب ألّا نطلبها، لكي لا نُفلت من قدرنا الخاص. وقال:

«لقد وعدت بأن أتّخذ قراراتي بنفسي».

ولكن الحجرين قالا إن الشيخ إلى جانبه، وقد أعاد ذلك إليه ثقته بنفسه. تأمّل، من جديد، السوق المقفرة. ولم يعد يشعر باليأس الذي شعر به من قبل. ليس هذا العالم بالعالم الغريب: بل هو عالم جديد.

إن كلّ الذي جرى كان، في الواقع، يمثّل ما أراده بالضبط: التعرّف إلى عوالم جديدة. حتى وإن لم يبلغ الأهرامات، فإنه ذهب إلى أبعد ممّا ذهب إليه أيُّ راعٍ من الرعيان الذين يعرفهم.

«آه! لو كانوا يعرفون أنه، على بعد أقل من ساعتين من الإبحار على متن المركب، يوجد الكثير من الأشياء المختلفة...».

إن العالم الجديد يتّخذ، أمام عينيه، شكل سوق مقفرة، بيد أنه سبق أن شاهده زاخراً بالحياة، ولن ينساه أبداً. تذكَّر السيف؛ لقد

دفع ثمناً غالياً جداً مقابل تأمُّله للحظة واحدة: ولكنه لم يكن قد شاهد ما يشبهه إطلاقاً. وراوده، فجأة، شعورٌ بأنه يستطيع أن ينظر إلى العالم كضحية تعيسة لأحد اللصوص، أو كمغامر يبحث عن كنز.

وقال في نفسه: «إنني مغامر يبحث عن كنز»، ثم استغرق في النوم، وقد هدَّه التعب.



أحسّ وهو يستيقظ أنّ أحداً ما هزّه من كتفه. لقد نام في وسط الساحة تماماً، حيث ستعود السوق إلى استئناف نشاطها.

نظر حواليه، باحثاً عن أغنامه. ثم أدرك أنه، الآن، في عالم آخر. وبدل أن يحزنه ذلك، شعر بالسعادة. لم يعد مضطراً للذهاب بحثاً عن الماء والعشب، بل يمكنه أن ينطلق للبحث عن كنز. ليس في جيبه فلس واحد، ولكنه مؤمن بالحياة. لقد اختار، مساء أمس، أن يكون مغامراً يشبه أبطال الكتب التي تعوّد قراءتها.

راح يتنزّه ببطء، في الساحة. وكان التجار قد بدأوا بنصب أكواخهم؛ فساعد رجلاً يبيع الحلويات على تركيب كوخه. كانت تلوح على وجه هذا الرجل ابتسامة لا تشبه ابتسامة الآخرين: كان مفعماً بالحبور، ومنفتحاً على الحياة، ومستعداً لمجابهة يوم طيب للعمل. إنها ابتسامة تذكّره، على نحو ما، بالشيخ، ذلك الملك العجوز الغامض، الذي تعرَّف إليه. قال الفتى في نفسه: «إن هذا التاجر لا يصنع الحلويات لأنه يريد السفر، أو الزواج من ابنة تاجر، بل لأنه يحب مهنته». ولاحظ أنه قادر أن يفعل مثل الشيخ: أن يعرف، بمجرّد النظر إلى الشخص، ما إذا كان قريباً من **أسطورته الشخصية**، أو بعيداً منها: «إنه شيء سهل، ولكني لم أستطع التنبّه إليه من قبل».

عندما أنهيا تشييد الكوخ الخشبي، قدّم الرجل له أول قطعة حلوى أعدَّها، فأكلها بسرور كبير، وشكره، ثم مضى في

طريقه. ما إن ابتعد قليلاً، حتى فكَّر بأن الكوخ قد شُيِّد بأيدي شخصين اثنين: أحدهما يتكلم العربية، والآخر يتكلّم الإسبانية.

ومع ذلك، فإن هذين الشخصين تفاهما على نحو رائع.

وقال في نفسه:

«ثمَّة لغة تتخطّى الكلمات، وقد مررت، مسبقاً، بهذه التجربة مع الأغنام. وها أنا أمر، الآن، بالتجربة ذاتها مع البشر».

فهو، إذن، بصدد تعلُّم أشياء جديدة متنوّعة، أشياء سبق له أن اختبرها وصادفها في طريقه؛ لكنه لم ينتبه إلى وجودها، لأنه تعوّد رؤيتها، وهي على ذلك جديدة. فقال في نفسه: «إذا تعلّمتُ فكّ رموز تلك اللغة التي تتخطّى الكلمات، فسوف أتوصّل إلى فكّ رموز العالم».

وتذكّر قول الرجل العجوز: «ليس الكل إلا واحداً أوحد».

قرر أن يتسكّع، بهدوء، في شوارع طنجة الضيّقة. فبهذه الطريقة، وحدها، ينجح في إدراك الإشارات. وهذا الأمر يتطلّب سعة صدر، والصبر أول فضيلة يتعلّمها الراعي.

مرة أخرى، أدرك أنه يطبّق، في هذا العالم الغريب، الدروس ذاتها، التي علّمته إياها أغنامه.

ألم يقل الرجل العجوز: «إن الكل واحد أوحد؟»



استقبل تاجر الأواني البلّوريّة النهار الجديد، وقد انتابه نفس الشعور بالقلق الذي ينتابه كل صباح. فهو، منذ قرابة ثلاثين عاماً، يشغل هذا المكان الذي يمثّل حانوتاً يقع في قمة شارع صاعد، حيث يندر مرور الزبائن. والآن، فات الأوان على تغيير أيِّ شيء: إن كل ما تعلَّمه، في حياته، هو شراء الأواني البلّوريّة وبيعها. وقد مرَّ زمن كان حانوته، فيه، يؤمّه أناس كثيرون: تجار عرب، علماء آثار فرنسيون وإنكليز، جنود ألمان، كانت جيوبهم مليئة بالنقود. كان بيع الأواني البلّوريّة، في ذلك الزمن، مغامرة كبرى، وكان يحلم كيف سيغدو رجلاً ثريّاً، وبكلّ النساء الجميلات اللواتي سيحظى بهن في شيخوخته.

ثم مضت تلك الحقبة، رويداً رويداً، ومضت المدينة معها أيضاً. ذلك أن مدينة سبتة ازدهرت أكثر من طنجة، واتخذت التجارة طريقاً مختلفة. فانتقل بعض جيرانه إلى أماكن أخرى، ولم يبق سوى بعض الحوانيت القليلة في هذه الطلعة. وليس هناك من يرغب في تسلّق هذا الشارع الصاعد من أجل بضعة حوانيت بائسة.

لكن التاجر لم يكن لديه الخيار. قضى ثلاثين سنة من حياته وهو يبيع الأواني البلورية ويشتريها. وها قد فات الأوان على اختيار مهنة جديدة.

كل صباح، ينصرف إلى مراقبة العابرين القلائل، ذهاباً وإياباً، في الشارع الصغير. هذا ما يفعله منذ سنوات، حتى بات يعرف عادات كلٍّ من المارة.

قبل دقائق معدودات من موعد الغداء، وقف شاب غريب أمام الواجهة الزجاجية. كان يرتدي ما يرتديه سائر الناس، ولكن عين التاجر الخبيرة جعلته يحزر بأنه معدم. ورغم كل شيء، فإنّه قرّر دخول حانوته، والانتظار بضع دقائق، حتى ينصرف الفتى.



عُلّقت على باب الحانوت لوحة صغيرة كتبت عليها عبارة: «نتكلم عدة لغات». وقد شاهد الفتى شخصاً وراء الصندوق. فخاطبه قائلاً:

«إذا شئتَ، أنظّف لك هذه الأواني، لأن من الصعب أن تباع وهي على حالتها هذه».

نظر التاجر إليه دون أن يقول شيئاً.

«وبالمقابل تدفع لي ما يسدّ رمقي، هل توافق؟».

بقي التاجر صامتاً. ففهم الفتى، عندئذ، أن عليه هو أن يقرِّر. تذكّر أن لديه معطفاً في الخرج: وهو لن يكون بحاجة إليه في الصحراء؛ فأخرجه، وراح ينظّف الفازات. وتمكَّن، خلال نصف ساعة، من تنظيف جميع الأواني البلورية التي تشغل الواجهة الزجاجية. دخل، أثناء ذلك، زبونان واشتريا عدّة أوانٍ.

بعد انتهائه من تنظيف كل شيء، طلب من التاجر أن يدفع له ثمن طعامه.

فقال التاجر: «هيّا بنا نمضي لتناول الطعام».

علَّق لوحة على الباب، وذهب مع الفتى إلى حانة تقع في أعلى الشارع. ولدى جلوسهما إلى طاولتها الوحيدة، قال التاجر مبتسماً:

«لم يكن من الضروري أن تنظّف شيئاً. إن القرآن يلزمنا بإطعام أي جائع».

ـ لمَ تركتني أقوم بهذا العمل، إذن؟

ـ لأن الأواني كانت متسخة، وكلّ منا بحاجة إلى تنظيف رأسه من الأفكار السيئة.

بعد تناول الطعام، التفت التاجر إلى الفتى، قائلاً:

ـ أريدك أن تعمل في حانوتي، فقد دخل اليوم زبونان، عندما كنت تنظّف الأواني البلورية: وهذه إشارة طيّبة.

«يتكلم الناس كثيراً عن الإشارات، ولكنهم لا يدركون، تماماً، عمّا يتكلمون. فأنا، مثلاً، لم أكن أدرك أنني أتكلّم مع أغنامي، طوال عدة سنوات، لغةً بلا كلام».

سأل التاجر ثانية:

ـ أتريد أن تعمل عندي؟

ـ أستطيع أن أعمل بقية هذا النهار. وبالمقابل، أحتاج إلى المال لكي أكون غداً في مصر.

ضحك التاجر، على الفور، وقال:

ـ حتى لو قمت بتنظيف بضاعتي طوال سنة كاملة، وحتى لو نلت عمولة جيدة على مبيع كل قطعة منها، فلا بدّ لك، فوق ذلك، أن تقترض مالاً لكي تذهب إلى مصر. ثمَّة آلاف الكيلومترات، عبر الصحراء، بين طنجة والأهرامات.

سيطرت، حينذاك، فترة من الصمت على نحو بدت المدينة، معه، وكأنها استسلمت، فجأة، للنوم. لم يعد هناك بازارات، ولا مجادلات تجّار، ولا رجال يصعدون إلى المآذن ويؤذّنون، ولا سيوف جميلة ذات مقابض مرصّعة. لقد انتهى الأمل، وانتهت المغامرة، والملوك العجزة، **والأساطير الشخصية**، ولم يعد هناك كنز، ولا أهرامات. بدا الأمر وكأن العالم بأسره قد غدا أبكم، لأن روح الفتى صمتت. ولم يعد هناك ألم، ولا معاناة، ولا يأس: مجرد نظرة فارغة تعبر من باب

الحانة الصغير، ورغبة جامحة في الموت، ورؤية كل شيء يزول إلى غير رجعة، في هذه اللحظة بالذات.

نظر إليه التاجر مذهولاً، لكأنَّ كل الحبور الذي شاهده هذا الصباح، قد تبخّر، فجأة.

وقال له:

«سأعطيك مالاً لكي تعود إلى بلدك، يا بني».

لبث الفتى هادئاً، ثم وقف، وأصلح ثيابه، والتقط خرجه، وقال:

«سأعمل عندك».

وبعد فترة صمت ثانية، أضاف مختتماً:

«أحتاج إلى المال لأشتري بعض الخراف».



القسم الثاني

مضى شهر ونيّف على عمل الفتى عند تاجر البلّور، ولم تكن طبيعة هذا العمل لترضيه حقاً. فالتاجر لا يكف عن التذمُّر طوال النهار، وهو يصدر من وراء طاولته الأمر تلو الآخر بالانتباه إلى السلع، لئلّا يكسر شيئاً منها.

بيد أنه ثابر، لأن التاجر، وإن كان كثير التذمّر، فهو، على الأقل، ليس ظالماً. فالفتى ينال عمولة لا بأس بها، على كل سلعة تباع. وقد استطاع، حتى الآن، أن يدخُر بعض المال. وقد قام، هذا الصباح، بإجراء حساباته: فإذا استمر في العمل، كل الأيام، على هذا النمط، فسوف يحتاج إلى سنة كاملة ليدّخر ثمن بضعة خراف.

وذات يوم، قال لرب عمله:

ـ أودُّ أن أعمل خزانة لعرض قطع الكريستال. يمكننا وضع رفوف في الخارج، وسوف تجذب المارة من بداية الطلعة.

ــ لم يسبق لي أن قمت بشيء مماثل. ثم إن وضع رفوف في الخارج قد يؤدّي إلى اصطدام أحد المارة يها، فتتكسّر المعروضات.

ــ عندما كنت أذرع البراري، مع أغنامي، كانت عرضة لأن تقع ضحية للدغة من أفعى؛ ولكن تلك المجازفة تشكّل جزءاً من حياة الأغنام والرعيان.

انصرف التاجر إلى الاهتمام بزبون يريد شراء ثلاث مزهريات من الكريستال. إنه يبيع، الآن، أفضل من ذي قبل، كما لو أن العالم

قد تراجع إلى الزمن الذي كان هذا الشارع فيه المكان الأكثر اجتذاباً في طنجة.

وقال لمساعده، بعد مغادرة الزبون:

«المارّة يزدادون تدريجاً. إن ما نربحه يتيح لي عيشاً أفضل، ويتيح لك أن تستعيد غنمك، في وقت قصير. فلماذا نطلب، إذن، المزيد من الحياة؟».

فأجاب الفتى دون أن يفكّر:

«لأن من المتوجّب علينا أن نتبع الإشارات». ثم ندم على قوله هذا، لأنه لم يسبق للتاجر أن التقى ملكاً.

«هذا ما نسميه **المبدأ الملائم** على حدّ زعم العجوز، أي حظّ المبتدئ، لأن الحياة تريدك أن تعيش **أسطورتك الشخصية**».

غير أن التاجر كان يدرك جيداً ما قاله مساعده. ذلك أن مجرّد وجود المساعد في الحانوت يشكّل إشارة. ومع مرور الأيام، وبالنظر إلى المال الذي يربحه، لن يشعر بالندم على استخدامه الفتى الإسباني، حتى وإن كان الفتى يكسب أكثر ممَّا يستحقّ مثل هذا العمل. وبما أنه كان يؤمن دائماً أن حجم المبيعات لن يزداد، فقد منحه عمولة مرتفعة نسبياً، وكان حدسه يقول له إنه سوف يعود، بعد وقت قصير، إلى أغنامه.

فسأله لكي يتجنّب الحديث عن خزانة العرض:

ـ لمَ تريد الذهاب إلى الأهرامات؟

ـ لأني سمعت الكثير من الأحاديث عنها.

وقد تجنّب الفتى، بدوره، الحديث عن حلمه. لقد بات الكنز، الآن، مجرد ذكرى موجعة على الدوام. وهو يحاول، جاهداً، ألَّا يفكِّر فيه.

فقال التاجر:

ـ لست أعرف أحداً، هنا، يرغب بعبور الصحراء، لكي يذهب لمشاهدة الأهرامات فحسب، فهي ليست سوى ركامٍ من الحجارة. وباستطاعتك أن تبني، أنت أيضاً، أهراماً في حديقتك.

فقال الفتى، وهو يمضي لاستقبال زبون دخل لتوّه إلى الحانوت:

ـ أنت لم تحلم قطّ بالسفر.

في اليوم التالي، تحدَّث التاجر، مجدّداً، إلى مساعده الفتى، عن خزانة العرض:

«لا أحبُّ التغيير كثيراً. فلا أنا ولا أنت، كالتاجر الثريّ حسن، الذي لا يتأثر كثيراً، إذا تعرّض لخسارة ما. لكن نحن الإثنين، علينا أن نتحمّل عبء أخطائنا».

فقال الفتى في نفسه:

«هذا صحيح تماماً».

وسأله التاجر:

ـ لمَ ترغب بخزانة العرض؟

ـ أريد أن أعود، بأسرع وقت، إلى أغنامي. عندما يكون الحظ إلى جانبنا، ينبغي لنا أن نستفيد منه، وأن نعمل أيَّ شيء لكي نساعده بالطريقة ذاتها التي ساعدنا بها. هذا ما يدعى **المبدأ الملائم**، ويدعى، أيضاً «حظ المبتدئ».

صمت التاجر، لحظة، ثم قال:

ـ لقد أملى علينا القرآن، الذي أُنزل على النبيّ، خمس فرائض علينا العمل بها طوال حياتنا. أهمها: الشهادة بأن لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له. أما الفرائض الأخرى فهي: تأدية الصلاة خمس مرات في اليوم، وصيام شهر رمضان، وإيتاء الزكاة لمساعدة المحتاجين.

ثم توقّف عن الكلام. ذلك أنه عندما تكلّم عن النبي امتلأت

عيناه بالدموع. فهو رجل شديد الورع، يحاول جاهداً أن يعيش وفق تعاليم الإسلام، حتى وإن كان نافد الصبر، أحياناً.

فسأله الفتى:

ــ وما هي الفريضة الخامسة؟

ــ «قلت لي، قبل يومين، بانني لم أحلم قطّ بالسفر. بيد أن الفريضة الخامسة على كلّ مسلم، صادق الإيمان، أن يقوم، في حياته، برحلة واحدة على الأقل إلى مكّة المكرَّمة.

«إن مكّة أبعد بكثير من الأهرامات. وعندما كنت شاباً فضّلت توظيف ما كان لديَّ، من مال قليل، في هذه التجارة. وكنت آمل أن أغدو، يوماً ما، على قدْر من الثراء، لأزور مكّة. وقد بدأت، بالفعل، أكسب المال. ولكنني لم أكن أستطيع أن أوكل إلى أحد العناية ببضاعتي، لا سيما وأن البلّور سريع العطب. وخلال ذلك الوقت، شاهدت العديد من الناس يمرّون أمام حانوتي، في طريقهم إلى مكة. كان بينهم حجّاج أثرياء، يرافقهم موكب من الخدم والجِمال؛ ولكن غالبية الحجاج كانوا أكثر فقراً مني.

«وكان الجميع يذهبون ويعودون، سعداء؛ ويعلّقون على أبواب منازلهم رموز تأديتهم الحجّ. قال لي أحد هؤلاء، وكان إسكافياً يعيش من مهنته، إنه مشى قرابة سنة في الصحراء، مع أنه كان يشعر بالإرهاق عندما يعبر بضع مجموعات من المساكن، في طنجة، لشراء الجلد».

ــ ولمَ لا تذهب إلى مكة الآن؟

ــ «لأن مكة هي التي تبقيني قيد الحياة. وهي التي تمنحني القوة على تحمُّل كل هذه الأيام المتشابهة، وهذه المزهريات الموضوعة فوق الرفوف، والغداء والعشاء في هذا المطعم البائس. إنني أخاف إذا حققت حلمي، ألّا يبقى لي، بعد ذلك، سبب للعيش.

«أنت تحلم بالغنم والأهرام؛ لكنّك تختلف عني، لأنك تريد تحقيق أحلامك. أما أنا، فكلّ ما أريده هو أن أحلم بمكة. لقد

تصوّرت، آلاف المرات، عبور الصحراء، وبلوغ الحرم، حيث الحجر الأسود، والدورات السبع حوله قبل أن يحقّ لي لمسه. كما تصورت من يكون إلى جانبي، ومن أمامي، والخطب الدينية، والدعوات التي نتبادلها ونرددها معاً. ولكنّ خوفي، أن يسفر الأمر عن خيبة مريرة، يجعلني أفضّل الاكتفاء بالحلم».

في ذلك اليوم، سمح التاجر للفتى أن يصنع خزانة العرض.

بيد أن الناس، جميعهم، لا يمكنهم أن يروا أحلامهم على النحو ذاته.



مرّ شهران آخران. وبدأت خزانة العرض تجذب العديد من الزبائن إلى حانوت الأواني البلوريّة. وقدَّر الفتى أنه، إذا عمل ستة أشهر إضافية، فقد يتمكّن من العودة إلى إسبانيا، وشراء ستين رأساً من الضان، بل ستين رأساً إضافية. ففي أقل من سنة، يكون قد ضاعف قطيعه مرتين. ربمّا استطاع التعامل مع العرب، لأنه نجح في تعلُّم هذه اللغة الغريبة. بعد ذلك الصباح الشهير في ساحة السوق، لم يلجأ إلى الاستعانة بأوريم وتوميم، لأن مصر غدت، في نظره، حلماً أبعد من حلم تاجر البلّور بمكة. ولكنه مرتاح، الآن، لعمله، ولا يكفُّ عن التفكير باليوم الذي سيصل فيه منتصراً إلى طريفا.

واستعاد ما قاله له الملك العجوز: «تذكَّرْ دائماً أن عليك معرفة ما تريده».

إن الفتى يعرف ما يريد، وهو يعمل على هذا الأساس. ربما كان كنزه هو في مجيئه إلى هذه الأرض الغريبة، وفي وقوعه بين يديْ لص، وفي مضاعفة قطيعه مرتين، دون أن ينفق فلساً واحداً.

إنه فخور بنفسه. لقد تعلّم أشياء مهمة، مثل تجارة البلور، واللغة التي بلا كلام، والإشارات.

بعد ظهر ذات يوم، شاهد رجلاً في أعلى الشارع الصاعد يشكو أنه، بعد كل هذا الصعود، لم يعثر على مكان يشرب فيه شيئاً. كان الفتى يدرك، حينئذٍ، لغة الإشارات، فقال لربِّ عمله:

ـ ينبغي أن نقدّم الشاي إلى الناس الذين يصعدون الشارع.

ـ إنّ أماكن شرب الشاي عديدة هنا.

ـ يمكننا تقديمه في أكواب من الكريستال. وبهذه الطريقة، يعجب الزبائن بالشاي ويشترون البلّور، لأن الجَمال يغري الناس أكثر من سواه.

نظر التاجر ملياً إلى مساعده، دون أن يجيب. ولكنه، بعد أن أدّى صلاته وأغلق حانوته، في المساء، جلس على الرصيف، ودعاه ليدخّن برفقته النارجيلة، ذلك الغليون المثير الذي يدخنه العرب.

سأل التاجر العجوز:

ـ إلى أين تبغي الوصول؟

ـ لقد أخبرتك عن ذلك؛ أريد استعادة نعاجي. ولأجل ذلك، لا بدَّ من المال.

وضع التاجر العجوز جمرة جديدة على رأس النارجيلة، وسحب نفساً عميقاً، وقال:

ـ لقد مرت عليّ ثلاثون سنة في هذا الحانوت. وبتّ أعرف شتى أنواع البلور، الجيد منها والرديء، كما أعرف خصائص هذه التجارة، جميعها. لقد ألفت حانوتي، وألفت مساحته، وزبائنه. فإذا بدأت أبيع الشاي في أكواب من الكريستال، فإن العمل يزداد أهمية. عندها، ينبغي أن أغيّر نمط حياتي.

ـ ألن يكون ذلك جيداً؟

ـ لقد ألفت وجودي. كنت أفكّر، قبل مجيئك، بأنني أضعت هذا الوقت كلّه في نفس المكان، في حين أن جميع أصدقائي قد بدّلوا أعمالهم، فتعثّر بعضُهم وحالف الحظّ بعضهم الآخر. وكان ذلك يغرقني في حزن شديد. وأدركت الآن أن الأمر لم يكن كذلك: إن لهذا الحانوت، في الواقع، الحجم الصحيح الذي تمنّيته باستمرار. أنا لا أريدُ التغيير، لأنني أجهله؛ كما أنني بدأتُ آلف، تماماً، نمط حياتي.

لم يعرف الفتى ما ينبغي قوله. استأنف الرجل، قائلاً:

«كنت نعمة عليّ، وها أنا، اليوم، أفهم شيئاً: إن كلَّ نعمة لا تقبل، تتحوّل إلى لعنة. أنا لا أنتظر شيئاً من الحياة. وها أنت تجبرني على استشفاف ثروات وآفاق لم أفكر فيها من قبل. والآن، وقد بتُّ أعرفها، وأعرف إمكانياتي الكبيرة، سوف أشعر أنني أكثر سوءاً من أي وقت مضى، لأنني أدرك أن باستطاعتي الحصول على كل شيء، ولكنني لا أريد ذلك».

قال الفتى في قرارة لنفسه: «لحسن الحظ أنني لم أقل شيئاً لبائع الفشار».

لبثا يدخّنان النارجيلة لبعض الوقت، في حين كانت الشمس تميل نحو الغروب. كانا يتحدّثان باللغة العربية، وكان الفتى مسروراً من نفسه، لأنه يتكلّم بالعربية. لقد مرَّ ردح من الزمن كان يعتقد فيه أن أغنامه تستطيع أن تعلّمه كل شيء عن العالم، ولكن الأغنام غير قادرة على تعليم اللغة العربية.

وفي حين أنه كان ينظر إلى التاجر دون أن يقول شيئاً، ردّد في نفسه: «لا بدَّ من وجود أشياء أخرى، في العالم، لا تعرف الأغنام تعليمها، لأن الأغنام لا تبحث إلا عن الماء والطعام. أعتقد أنها ليست هي التي تعلّم: بل أنا من يتعلّم».

قال التاجر أخيراً:

ـ كل شيء مكتوب.

ـ ما معنى ذلك؟

ـ ينبغي أن تكون قد ولدت عربياً لكي تفهم. ولكن الترجمة قد تكون شيئاً مثل: «قدر الإنسان مهيّأ من قبل».

ثم قال للفتى، وهو يطفئ جمر النارجيلة، أن باستطاعته تقديم الشاي للزبائن في أكواب من الكريستال.

أحياناً، يستحيل احتواء نهر الحياة.

* * *

كان الناس يتسلّقون الشارع الصاعد، ويشعرون بالإرهاق لدى بلوغهم نهايته. وهناك، في أعلى تلك الطلعة، حانوت لبيع البلّور الجيد والشاي بالنعناع المنعش جداً، يؤمّونه ليشربوا الشاي في أكواب رائعة من الكريستال.

قال أحد الرجال:

«لم تخطر هذه الفكرة على بال زوجتي، إطلاقاً». ثم اشترى بعض الأكواب لأن لديه مدعوين، هذه الليلة. وسوف يؤخذون بروعة هذه الأكواب الثمينة. وأكّد زبون آخر، من جهته، أن الشاي يغدو أطيب نكهة، إذا قُدّم في أكواب من الكريستال، لأنَّ عطره يكون محفوظاً على نحو أفضل. وقال ثالث إن العادة قد درجت، في الشرق، على استخدام الكريستال، عند تقديم الشاي، نظراً لتأثيره السحري.

انتشر الخبر في فترة قصيرة من الوقت. وراح الناس يتوافدون نحو نهاية الطلعة، ليتعرّفوا إلى الحانوت الذي ابتكر شيئاً جديداً في تجارة قديمة جداً. وعمدت حوانيت أخرى إلى تقديم الشاي في أكواب من الكريستال، ولكنها لا تقع في أعلى شارع صاعد، ما أدى إلى بقائها خالية من الزبائن.

وسارع التاجر إلى استخدام موظّفَيْن آخرَيْن. كما اضطر أن يستورد، فضلاً عن الأواني البلورية، كميات كبيرة من الشاي، يستهلكها، يوماً بعد يوم، رجال ونساء، متعطّشون إلى أشياء جديدة.

وهكذا مرّت ستة أشهر.



استيقظ الفتى قبل شروق الشمس. لقد مرَّ عليه أحد عشر شهراً وتسعة أيام مذ وطئت قدماه، لأول مرة، القارة الأفريقية. ارتدى لباساً عربياً، من الكتَّان الأبيض، اشتراه خصيصاً لهذا اليوم. واعتمر العمامة المربوطة بحلقة من جلد الحمل. وانتعل، أخيراً، صندله الجديد، وهبط دون أن يُحدث أيَّ ضجة.

لا تزال المدينة نائمة. صنع لنفسه شطيرة بالسمسم، وشرب شاياً ساخناً في كوب من الكريستال. ثم جلس على عتبة الحانوت، يدخِّن النارجيلة بمفرده.

دخَّن بهدوء، دون أن يفكّر بأي شيء، ودون أن يسمع سوى ضجيج الريح التي تهبّ حاملة رائحة الصحراء. وبعد أن انتهى، أدخل يده في أحد جيوبه واستمز يتأمل، لبعض الوقت، ما أخرجه من ذلك الجيب.

ثمَّة مبلغ محترم من المال، يساعده على شراء مئة وعشرين رأساً من الضَّان، وتذكرة للعودة، وترخيصاً بالتصدير والاستيراد بين بلده وهذا البلد الذي يقيم فيه حاليًّا.

انتظر، بصبر، أن يستيقظ العجوز بدوره، ويفتح مخزنه ليشربا الشاي معاً.

عند ذاك، قال الفتى:

«سأغادر اليوم، بالذات، فقد بات لديَّ المال الكافي لشراء الغنم، ولديك ما يكفي لزيارة مكة».

لم يقل الرجل شيئاً.

فتابع الفتى بإلحاح:

«أسألك أن تمنحني بركتك. لقد ساعدتني».

تابع الرجل إعداد الشاي بصمت. وبعد وقت قصير، التفت إلى الفتى، وقال:

ـ إنني فخور بك، لقد أعدت الروح إلى حانوت البلور. ولكنني لن أذهب إلى مكة، تعرف ذلك جيداً. كما تعرف، أيضاً، أنك لن تسترجع غنمك.

سأله الفتى، مذهولاً:

ـ من قال لك ذلك؟

فأجاب تاجر البلور العجوز ببساطة: «كلّ شيء مكتوب».

ثم باركه.



توجّه الفتى إلى غرفته، وجمع أغراضه، وملأ ثلاثة أكياس. وفيما هو على أهبة الخروج من الغرفة، شاهد، في إحدى الزوايا، خرجه القديم يوم كان راعياً. كان الخرج في حالة يرثى لها، ذلك أنه كاد ينسى حتى وجوده. وكان لا يزال في داخله كتابه ومعطفه. عندما أخرج المعطف، وفكّر في إعطائه لأول غلام يلتقيه في الشارع، تدحرج الحجران الكريمان أوريم وتوميم على الأرض.

ذكّره ذلك بالملك العجوز؛ واستغرب، عندما أدرك أنه لم يفكّر في ذلك اللقاء منذ زمن طويل. لقد عمل، سنة كاملة، دون كلل. ولم يهتمّ إلّا بكسب المزيد من المال، لئلّا يعود إلى أسبانيا منكسراً.

سبق أن قال له الملك العجوز:

«لا تتخلَّ، إطلاقاً، عن أحلامك، وانتبه إلى الإشارات».

التقط أوريم وتوميم عن الأرض. وعاوده الحدس الغريب بأن الملك موجود في مكان قريب. لقد عمل بجهد، طوال هذه السنة، ثم أوحت إليه الإشارات أن وقت الذهاب قد حان.

«سأجد نفسي، تماماً، مثلما كنت من قبل، وحيث لم تعلّمني النعاج اللغة العربية».

ومع ذلك، فإن النعاج قد علّمته، من جهة أخرى، شيئاً مهمّاً، فحواه أن في العالم لغة يفهمها الجميع؛ وقد استخدمها، هو ذاته، طوال هذا الوقت، لتطوير الحانوت. إنها لغة الحماسة، ولغة الأعمال

التي نؤديها بشغف واندفاع، لتحقيق نتيجة نتمنّى بلوغها، أو نتيجة نؤمن بها. لم تعد مدينة طنجة، الآن، مدينة غريبة عليه، وراوده شعور بأنه، إذا كان قد نجح في غزو هذا المكان، فبمقدوره، أيضاً، أن يغزو العالم.

وتذكّر قول الملك العجوز:

«عندما تريد شيئاً ما، حقاً، فإن الكون بأسره يطاوعك على تحقيق رغبتك».

بيد أن الملك العجوز لم يتكلّم عن اللصوص، والصحارى الشاسعة، والناس الذين يعرفون أحلامهم، ولكنهم لا يريدون تحقيقها. ولم يقل الملك العجوز إن الأهرامات ليست سوى ركام من الحجارة، وإن باستطاعة أيٍّ يكن أن يجمع ركاماً من الحجارة في حديقته. كما أنه نسي، أيضاً، أن يقول إن توافر المال لشراء قطيع يفوق القطيع الذي كان لدينا، يحتّم علينا أن نشتريه.

التقط الخرج، وحمله مع الأكياس الأخرى، وهبط الدرج؛ كان التاجر منصرفاً إلى خدمة زوجين أجنبيين، في حين كان زبائن آخرون يحتسون الشاي في أكواب من الكريستال. إنها بداية نهار طيّبة في هذه الساعة من الصباح. ولأول مرّة، لاحظ من مكانه، أن شعر تاجر البلور يذكُره بشعر الملك العجوز. وتذكَّر ابتسامة تاجر الحلويات في يومه الأوّل بطنجة، عندما استيقظ من النوم، وهو لا يدري إلى أين يذهب، وماذا يأكل؛ لقد ذكّرته تلك الابتسامة، أيضاً بالملك العجوز.

وقال في سرّه:

«لكأنّه مرَّ من هنا وترك بصماته»، ولكأنَّ كل واحد من هؤلاء الأشخاص عرف الملك، في وقت أو آخر، من وجوده. سبق أن قال إنه يظهر باستمرار لمن يعيش **أسطورته الشخصية**.

غادر من دون أن يودع تاجر البلور، لأنه لا يريد أن يبكي؛ فربّما تلاقيا. لكنّه سوف يتحسّر على هذه الفترة، وعلى كل

الأشياء التي تعلّمها. كان يشعر أن ثقته بنفسه تزداد؛ وأنه يرغب في غزو العالم.

«ولكنني عائد إلى البراري التي عرفتها من قبل، وسوق الأغنام من جديد». أحسّ أنه ليس راضياً عن اتّخاذه هذا القرار. لقد عمل سنة كاملة لكي يحقّق حلمه، وكان هذا الحلم بين دقيقة وأخرى، يفقد، من أهميته، لأنه في آخر المطاف، قد لا يكون حلمه بالذات.

«من يؤكّد، بعد كلّ ما جرى، أن ليس مستحسناً أن يغدو كتاجر البلور الذي لن يذهب أبداً إلى مكة، بل يعيش على الرغبة في الذهاب إليها؟». ولكنّه يملك أوريم وتوميم، وهذان الحجران الكريمان يزوّدانه بقوة الملك العجوز وإرادته. ورد إلى ذهنه أنه، بفعل المصادفة، أو بفعل إشارة ما، وصل إلى المقهى الذي ارتاده أول يوم. لم يشاهد اللصّ فيه، بل جاءه صاحب المقهى بكوب من الشاي.

قال في نفسه:

«أقدر، على الدوام، أن أعود راعياً. لقد تعلّمت العناية بالأغنام. ولن أنسى، إطلاقاً، كيف هي. لكن قد تفوتني فرصة الذهاب إلى أهرامات مصر. كان الملك العجوز يرتدي صدرية من ذهب، وكان يعرف سيرة حياتي. لقد كان ملكاً حقيقياً، ملكاً حكيماً».

ها هو يبعد، من سهول الأندلس، مسافة ساعتين، تقريباً، بالمركب. ولكن، بينه وبين إهرامات مصر، صحراء. وفهم أن من الممكن النظر إلى الوضع، على النحو التالي: إنه، في الحقيقة، يبعد، الآن، حوالى الساعتين عن كنزه. وحتى لو أراد أن يجتاز هذه المسافة التي تقتضي ساعتين اثنتين، فإنه في حاجة إلى سنة كاملة لتحقيق ذلك.

«إنني أفهم جيداً رغبتي في العودة إلى أغنامي، فأنا أعرف تلك الأغنام من قبل، وهي لا تحتاج إلى كثير من الجهد، وبوسعي أن

أحبّها. أيمكن أن أحبّ الصحراء؟ لا أدري. ولكن الصحراء هي التي تخفي كنزي. وإذا لم أعثر عليه، فبمقدوري العودة، متى شئت، إلى دياري. مع ذلك، فإن الحياة أعطتني، دفعة واحدة، المال الكافي، والوقت الكافي. إذن، لِمَ لا؟».

أحسَّ، في هذه اللحظة، بجذل غامر. ذلك أن بإمكانه أن يعود راعياً في أيّ وقت، وأن يعود بائع كريستال في أي وقت. ربَّما كان العالم يخفي كنوزاً أخرى مخبوءة، ولكنه حلم بكنزه غير مرة، والتقى ملكاً، ومثلُ هذا الأمر لا يحدث لجميع الناس.

كان في غاية السرور عندما غادر المقهى. تذكَّر أن أحد مُموِّلي التاجر كان يأتيه بالكريستال مستخدماً القوافل التي تعبر الصحراء. أبقى أوريم وتوميم في يده، وبسبب هذين الحجرين الكريمين، سوف يعود إلى طريق كنزه.

وتذكّر ما قاله له الملك العجوز:

«إنني، دائماً، إلى جانب أولئك الذين يعيشون **أسطورتهم الشخصية**».

لن يخسر شيئاً بذهابه إلى محطّ القوافل، ليعرف ما إذا كانت الأهرامات بعيدة فعلاً إلى هذا الحدّ؟



كان الرجل الإنكليزي جالساً داخل مبنى تتصاعد منه روائح البهائم، والعرق، والغبار. لا يمكن أن نسمي هذا المكان محطاً للقوافل. إنه، بالضبط، زريبة للبهائم.

قال في نفسه، وهو يتصفّح، ساهياً، مجلة في الكيمياء:

«لقد قضيت حياتي لكي أصل إلى هذا المكان. عشر سنوات من التحصيل سافتني إلى زريبة للبهائم».

ولكن عليه الاستمرار. ينبغي الإيمان بالإشارات. إن حياته كلّها، ودراساته كلَّها، تمحورت حول البحث عن لغة واحدة يتكلم بها الكون. لقد اهتم، في البداية، باللغة العالمية، ثم بالأديان، إلى أن انتهى الأمر به إلى الخيمياء. إنه يجيد التكلُّم باللغة العالمية، ويعرف مختلف الأديان جيداً، ولكنه لم يصبح، بعدُ، خيميائياً. لقد نجح، بلا ريب، في فك رموز أشياء مهمة، ولكن أبحاثه، في ذلك، بلغت نقطة لم يستطع تجاوزها. لقد حاول أن يكون على علاقة بأحد الخيميائيين، أيّاً يكن، ولم ينجح في ذلك. إلا أن الخيميائيين أناس غريبو الأطوار، لا يفكرون إلّا بأنفسهم، وغالباً ما يرفضون تقديم المساعدة. من قال إنهم لم يتوصلوا إلى اكتشاف **الحجر العظيم**، أو حجر الفلاسفة، وأنهم، لهذا السبب ينغلقون داخل صمتهم؟

لقد أنفق، من قبلُ، جزءاً من الثروة التي ورثها عن والده، باحثاً، دون جدوى، عن حجر الفلاسفة. زار أغنى مكتبات العالم، واشترى المؤلفات الخاصة بعلم الخيمياء، الأكثر أهمية، والأندر وجوداً. وقبل

سنوات، اكتشف في أحد تلك المؤلفات أن خيميائياً عربياً شهيراً زار أوروبا، يقال إنه ناهز المئتي سنة، وأن ذلك الخيميائي اكتشف حجر الفلاسفة وإكسير الحياة. وقد تركت تلك الحكاية تأثيرها البالغ في نفس الإنكليزي. إلّا أن ذلك، كلّه، كان يمكن أن يبقى مجرد أسطورة، بين سائر الأساطير، لو لم يخبره أحد أصدقائه، العائد من رحلة إلى الآثار في الصحراء، عن عربي يمتلك قدرات استثنائية.

قال صديقه:

ـ إنه يعيش في واحة الفيّوم، ويروي الناس أنه بلغ المئتي سنة، وأنه قادر على تحويل أيٍّ معدن من المعادن ذهباً.

ذُهل الإنكليزي، وشعر بإثارة لا حدود لها، ثم ألغى كلَّ ارتباطاته السابقة، وجمع أهم كتبه. وها هو، الآن، في محطّ القوافل هذا الذي يشبه زريبةً للبهائم.

وفي الخارج، كانت قافلة كبيرة تستعدّ لعبور الصحراء.

وسوف تمر هذه القافلة بالفيّوم.

قال الإنكليزي في نفسه:

«ينبغي لي أن ألتقي، حتماً، هذا الخيميائي اللعين»، في حين رائحة البهائم باتت محتملة أكثر من ذي قبل.

دخل شاب عربي المبنى الذي قبع الإنكليزي فيه، وكان يحمل، هو أيضاً، رُزماً من الأغراض، وألقى السلام عليه، سائلاً:

«إلى أين أنت ذاهب؟».

أجاب الإنكليزي: «إلى الصحراء»، وعاد إلى القراءة. لم يكن راغباً، في تلك اللحظة، بالمحادثة. إنه بحاجة إلى تذكّر كل ما تعلَّمه خلال تلك السنوات العشر، لأن الخيميائي سوف يُخضعه، بلا ريب، إلى نوع من الامتحان.

تناول الشاب العربي، بدوره، كتاباً وراح يقرأ، وكان الكتاب

باللغة الإسبانية. قال الإنكليزي في سرّه: «إنني محظوظ»، فهو يتقن الإسبانية أكثر ممّا يتقن العربية. فإذا كان هذا الشاب ذاهباً إلى الفيّوم، فسيحظى الإنكليزي برفيقٍ يتحدّث إليه، عندما لا يكون مستغرقاً في أمور مهمّة.



قال الشاب في قرارة نفسه، وهو يحاول أن يقرأ مجدّداً مشهد الدفن الذي تبدأ الرواية به: «إنّه لأمرٌ مستغرب حقًّا، لقد باشرت قراءة هذا الكتاب، منذ سنتين، ولم أتوصّل إلى أبعد من هذه الصفحات القليلة». حتى من دون وجود ملك يقاطعه، لم يتمكّن من التركيز. إنه ما زال متردداً بشأن القرار الذي يجب اتّخاذه. ولكنه أدرك، الآن، أمراً مهماً: هو أن القرارات تشكّل، فقط، بداية شيء ما. فعندما يتخذ شخص قراراً ما، يغوص، فعلاً، في تيار جارف يحمله نحو وجهةٍ لم يكن يتوقّعها، إطلاقاً، حتى في الحلم، لحظة اتخذ ذلك القرار.

وتأكيداً لتحليله، قال الشاب في نفسه: «عندما اخترت أن انطلق للبحث عن كنزي، لم أكن أتصور قطّ أنني سوف أعمل في متجر للأواني البلوريّة. وعلى النحو ذاته، يمكن لهذه القافلة أن تتوافق مع قرار اتخذته بنفسي، إلّا أن سيرها ووجهتها يبقيان في عالم الغيب».

ثمّة رجل أوروبي كان يجلسُ قبالته، هو، أيضاً، كان يقرأ كتاباً. إنه رجل سمج: لقد رمقه بنظرة احتقار لدى دخوله. كان من المحتمل أن يصبحا صديقين طيّبين، ولكن الأوروبي أبعد هذا الاحتمال على الفور.

أغلق الفتى كتابه. لم يشأ القيام بأي عمل قد يوحي بوجود تشابه بينه وبين هذا الأوروبي. أخرج أوريم وتوميم، من جيبه، وراح يلهو بهما.

صرخ الأجنبي:

ـ أوريم وتوميم!

سارع الفتى إلى وضع الحجرين في جيبه، وقال:

ـ ليسا للبيع.

ـ إنهما لا يساويان شيئاً يذكر، فهما مجرّد بلّورتين حجريّتين تتوافر الملايين منهما على الأرض. أما من يعرف سرّهما فيرى فيهما أوريم وتوميم. لم أكن أعلم أنهما موجودان في هذه المنطقة من العالم.

ـ إن ملكاً أهداهما إليّ.

لبث الإنكليزي مذهولاً، ثم أدخل يده في جيبه، وأخرج حجرين مماثلين، وهو يرتجف:

ـ لقد تكلّمت عن ملك.

فقال الفتى، وهو يرغب هذه المرة بوضع حدٍّ للحوار:

ـ يبدو أنك لا تصدّق أن ملكاً يمكن أن يتكلم إلى راعٍ.

ـ على العكس تماماً. لقد كان الرعاة أول من آمنوا بملك أنكره كل البشر. وهكذا، ليس من المستغرب، أبداً، أن يتكلم الملوك إلى الرعاة.

وأضاف، خشية ألّا يكون الشاب قد فهم ما قاله جيّداً:

ـ لقد ورد ذلك في التوراة، وهو الكتاب عينه، الذي علّمني أن أضع ذينك الأوريم والتوميم. وقد كان هذان الحجران الوسيلة الوحيدة للتنبؤ التي سمح بها الرب. ويحملهما الكهنة على صدارٍ من ذهب.

شعر الفتى، حينئذٍ، بالسعادة لوجوده في هذا المكان.

فقال الإنكليزي، كما لو أنه يفكّر بصوت مرتفع:

ـ ربّما كان في ذلك إشارة.

فسأله، وقد ازداد اهتمامه تدريجيًا:

ــ من حدّثك عن الإشارات؟

فردّ الإنكليزي، وقد عمد هذه المرّة إلى إغلاق المجلّة التي كان يقرأ فيها:

«إن كلَّ شيء في الحياة إشارة، والكون مخلوق بلغة يفهمها جميع البشر، ولكن البشر نسَوها. إنني أبحث، في جملة ما أبحث عنه من أمور، عن هذه اللغة الكونية. ومن أجل ذلك، أنا هنا. لأنني يجب أن ألتقي رجلاً يعرف هذه اللغة الكونية، وهو خيميائي.

وضع المسؤول عن محطّ القوافل، وهو عربيّ ضخم الجثة، حدّاً للحوار:

«إنكما محظوظان، فثمة قافلة تنطلق، بعد ظهر هذا اليوم، إلى الفيّوم.

فقال الفتى:

ــ أنا ذاهب إلى مصر.

فأجاب الرجل الضخم:

ــ الفيُّوم تقع في مصر. يبدو لي أنك عربيّ غريب الأطوار.

أوضح الفتى أنه أسباني. فسُرَّ الإنكليزي لسماع ذلك. حتى وإن ارتدى الزيَّ العربي، فهو، على الأقل، أوروبي.

قال الإنكليزي، بعد خروج الرجل:

«إنه يطلق على الإشارات اسم «حظ»، لو كان بوسعي أن أفعل، لكتبت موسوعة ضخمة عن كلمتَيْ «حظ» و«مصادفة». فبهاتين الكلمتين، تكتب اللغة الكونية».

ثم استأنفا الحديث. فقال للفتى إن الأمر لم يكن مصادفة أن

يرى بين يديه أوريم وتوميم. وسأله إن كان ذاهباً هو، أيضاً، للبحث عن الخيميائي.

فأجابه الفتى:

«أنا ذاهب للبحث عن كنز».

ثم ندم على الفور.

ولكن الإنكليزي بدا وكأنه لم يولِ ما قاله اهتماماً:

«وأنا أيضاً، على نحو ما».

فقال الفتى، في الوقت الذي كان مسؤول محطّ القوافل يناديهما للخروج:

«إنني لا أعرف حتى ما هي الخيمياء».



قال رجل ذو لحية طويلة وعينين سوداوين: «أنا رئيس القافلة، وإليّ ترجع حياة وموت كل الذين أقودهم، لأن الصحراء امرأة نزقة تجعل الرجال، أحياناً، مجانين».

ضمّت القافلة قرابة المئتي شخص، وضِعف هذا العدد حيوانات، من جِمال وخيول وبغال وطيور.

كان فيها نساء وأطفال، وعدّة رجال يحملون سيوفاً في أوساطهم أو بنادق على أكتافهم. وكان بحوزة الإنكليزي الكثير من الصناديق المليئة بالكتب. وقد عمّ المكان ضجيج صاخب. أما رئيس القافلة، فراح يردد خطبته، غير مرة، ليفهمها الجميع:

«تنطوي هذه القافلة على نماذج مختلفة من الناس، الذين يحملون في قلوبهم آلهة متعدّدين. لكن ربّي الوحيد هو الله. وأقسم بالله أنني سوف أعمل كل ما في وسعي، وأبذل كل طاقتي لكي أنتصر، مرة أخرى، على الصحراء. بيد أنني أريد، أيضاً، أن يقسم كل منكم بالرب الذي يؤمن به قسماً من أعماقه، على طاعتي في شتى الظروف، لأن العصيان في الصحراء يعني الموت».

اجتاحت الجمع همهمة خافتة. أقسم كل منهم بصوت خفيض، متخذاً من ربّه شاهداً عليه. أقسم الفتى بيسوع المسيح، بينما لزم الإنكليزي الصمت. طالت الهمهمة أكثر من الوقت اللازم لقسمٍ؛ كذلك طلب الناس، أيضاً، الحماية من السماء.

انطلق صوت بوق، واستمر بعض الوقت. فركب كلّ مطيّته.

وكان الفتى والإنكليزي قد اشتريا جملين، ولقيا بعض الصعوبة في اعتلاء السنام. وأبدى الفتى بعض الشفقة على جمل الإنكليزي المحمَّل بصناديق الكتب الثقيلة.

قال الإنكليزي، محاولاً استئناف الحوار الذي بدأ في محطّ القوافل: لا وجود للمصادفات؛ إن أحد أصدقائي هو الذي حملني على المجيء إلى هنا، لأنه يعرف رجلاً عربياً...».

وفي هذا الوقت، سارت القافلة، وغدا من الصعب سماع ما يقول. إلّا أن الفتى كان يدرك تماماً ما رمى إليه: هذه السلسلة الغامضة التي تجمع بين شيء وآخر، والتي جعلت منه راعياً، وجعلت الحلم ذاته يراوده غير مرة، ودفعته إلى أن يتواجد في مدينة قريبة من أفريقية، وأن يلتقي ملكاً في الساحة، وأن يُسرق ماله، فيضطر إلى الذهاب للتعرف إلى تاجرالأواني البلوريّة، و...

قال الفتى في سرّه: «بقدر ما يقترب المرء من حلمه، تغدو **الأسطورة الشخصية** الغاية الحقيقية للحياة».

انطلقت القافلة باتجاه الشرق، تُمْعِن في السير صباحاً، وتتوقَّف عندما يشتدّ القيظ، ثم تستأنف السير مع انخفاض الحرارة تدريجاً. لم يكن الفتى يتكلّم كثيراً مع الإنكليزي الذي يقضي معظم الوقت غارقاً في كتبه. لذلك راح يراقب، بصمتٍ، سير الحيوانات، والناس، عبر الصحراء. أصبح كل شيء الآن، مختلفاً، عن يوم الانطلاق. كان ذلك اليوم، يوم الفوضى، والصراخ، وبكاء الأطفال، وأصوات الحيوانات. وفي وسط تلك البلبلة، كلِّها، تتعالى الأوامر الحادّة للأدلّاء والتجار.

ولكن، في الصحراء، لا شيء سوى الريح الأبدية، والسكون، وحوافر الحيوانات، حتى الأدلّاء لا يتبادلون الكلام إطلاقاً.

قال جمّال ذات مساء: «سبق لي أن عبرت هذه المساحات من الرمال. ولكن الصحراء على درجة من الاتساع، والآفاق على درجة من البعد، بحيث نشعر، معهما، أننا صغار جداً، فنلزم الصمت».

أدرك الفتى ما رمى إليه الجمّال بقوله، رغم أنه لم يسلك صحراء من قبل. ولكنه في كل مرّة كان يشاهد فيها البحر أو النار، كان يقضي ساعات طويلة دون أن ينبس بكلمة واحدة، وهو مستغرق في صميم هذا الكون الشاسع وقوّة عناصره.

قال في نفسه: «لقد تعلّمت من أغنامٍ، وتعلّمت من بلوريات، وأستطيع، أيضاً، أن أتعلّم من الصحراء، فهي تبدو لي أكثر قِدماً، وأبلغ حكمة».

ما كانت الرياح لتهدأ قطّ. فتذكّر اليوم الذي شعر فيه بهذه الرياح في طريفا، عندما كان جالساً على الأسوار. قد تكون هذه الرياح، الآن، تدغدغ صوف أغنامه التي تذرع براري الأندلس، سعياً إلى الماء والكلأ.

أسرَّ إلى نفسه، دون أن يشعر بحنين حقيقي: «لم تعدْ أغنامي، لا بدَّ من أن تكون قد ألفت راعياً جديداً، ونسيتني تماماً. ربما كان الأمر أفضل هكذا، لأن من تعوّد الترحال، مثل الأغنام، يعرف أنه سيأتي يوم ينبغي فيه الرحيل».

ثمّ تذكّر ابنة التاجر، وهو على يقين بأنها تزوجت، ربّما من بائع فشار، أو من راعٍ يحسن القراءة، هو أيضاً، ويكون بوسعه أن يسمعها حكايات مثيرة. وفي كل حال، ليس من الضروري أن يكون الوحيد. ولكن هذا الشعور، الذي تملّكه، ولّد، في أعماقه، نوعاً من القلق. هل هو بصدد أن يتعلّم، بدوره، هذه اللغة الكونية الشهيرة التي تعرف ماضي البشر وحاضرهم؟ «إنها مجرّد هواجس»، كما كانت تردّد أمه في غالب الأحيان. لقد بدأ يدرك أن الهواجس هي حالات سريعة من غوص الروح في هذا التيار الكوني للحياة،

حيث يتعانق تاريخ جميع البشر في صميمه، على نحو يغدو، معه، تاريخاً واحداً، نستطيع أن نعرف، معه، كل شيء، لأن كل شيء مكتوب.

«مكتوب»، قالها، وهو يفكّر بتاجر أواني البلّور.

تبدو الصحراء تارة من رمل، وتارة من حجارة. وكلما بلغت القافلة كتلة صخرية، دارت حولها، وإذا كانت الكتل الصخرية مكدّسة، قامت بدورة أوسع. وعندما يكون الرمل ناعماً جداً تحت أخفاف الجمال، يجري البحث عن ممر تكون الرمال فيه أكثر ثباتاً. وتكون الأرض مغطّاة بالملح في مكانٍ جَمَعَ، من قبل، مياه الأمطار، فتجد الحيوانات صعوبة في السير. عند ذلك يترجّل الجمّالون ويساعدونها. وقد يضطرون، أحياناً، إلى حمل المتاع على ظهورهم لاجتياز الأماكن الصعبة؛ ثم يعودون لوضعها على ظهور المطايا. وإذا مرض أحد الأدلّاء، أو مات، يعمد الجمّالون إلى اختيار بديل له بواسطة القرعة.

ولكن ليس لذلك، كلّه، سوى غاية واحدة. فلا أهمية كبيرة لهذه الدورات التي تقوم القافلة بها، ما دامت تسير نحو الهدف نفسه. وبعد أن تجاوز كل العقبات، تجد أمامها النجم الذي يستمر في تحديد الاتجاه نحو الواحة. وعندما يرى المسافرون هذا النجم الذي يلمع في الصباح الباكر، يدركون أنه يرشدهم إلى حيث توجد النساء والماء والنخيل والتمور. وحده، الإنكليزي، لم يكن يبالي بأيّ شيء لأنه غارق معظم الوقت في كتبه.

كذلك كان لدى الفتى كتاب حاول أن يقرأه، في الأيام الأولى من السفر. لكنه وجد أن مراقبة القافلة، والإصغاء إلى صوت الريح أكثر إثارةً. ومذ تعلّم كيف يعامل جَمَله، وبدأ يتعلّق به، طرح الكتاب جانباً. فالكتاب عبءٌ إضافي؛ ومع ذلك، كان يخيّل إليه، على نحو خرافي، أنه سوف يلتقي شخصاً مهمّاً، في كل مرّة يفتح فيها هذا الكتاب.

وانتهى الأمر به إلى إقامة علاقة صداقة مع الجمَّال الذي يراه، باستمرار، إلى جانبه. وحين يُقبل المساء، ويطول السهر حول النار، يحكي له عن مغامراته، يوم كان راعياً.

وفي أحد هذه الأحاديث حكى له الجمّال، بدوره، عن حياته:

«كنت أقيم في محلّة قريبة من القاهرة، وكان لديَّ أرض أزرعها، وأولاد، وعشت حياة لم يكن من المفترض أن تتغير حتى مماتي. ذات سنة، غلّ الموسم خيراً فاق المألوف، سافرنا، جميعنا، إلى مكة. وبذلك أدَّيت الفريضة الوحيدة التي لم أكن قد أدَّيتها حتى ذلك الوقت، فبات بإمكاني أن أموت مطمئناً، الأمر الذي أسعدني كثيراً.

«وذات يوم أخذت الأرض تهتز، وفاض نهر النيل. وما كان، في اعتقادي، يصيب الآخرين فقط، أصابني، أنا أيضاً. خاف جيراني أن يفقدوا أشجارهم جزاء الفيضان. وخافت زوجتي أن ترى أولادنا غارقين في المياه. واعتراني الخوف لمجرّد التفكير في أن أرى كلّ ما بنيته في حياتي ينهار.

«ولكن لم يكن هناك من حلّ. ولم يبق لدى الأرض ما تزوّدنا به. ووجدت نفسي مكرهاً على إيجاد وسيلة أخرى للعيش. وها أنا، الآن، جمَّال، ولكنني كنت أصغي إلى قوله تعالى: قل إنَّ ربي يبْسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ من عبادِهِ ويَقْدِرُ له.

«إن كل ما كنا نخشاه هو فقداننا ما نملك، سواء أكان حياتنا، أم مزروعاتنا. بيد أن هذا الخوف يزول عندما ندرك أن تاريخنا وتاريخ العالم، إنما كتبا باليد ذاتها».



تتلاقى القوافل، أحياناً، في فترة المساء، حيث تتبادل المساعدات، كما لو أن كل شيء مكتوب، بيدٍ واحدة. ويتبادل الجمّالون المعلومات عن العواصف الرملية. ويجتمعون، حول المواقد، ويروون حكايات الصحراء.

وفي بعض الأحايين، كان يأتي، أيضاً، رجال غامضون ملثّمون، هم بُداة يراقبون المسالك التي تعبرها القوافل. ويقدّمون معلومات عن اللصوص والقبائل المتمرّدة. يأتون بهدوء وينصرفون بهدوء، متلفّعين بجلابيبهم الداكنة، ولُثمهم الشاشيّة التي تحجب كل شيء إلّا عيونهم.

في إحدى تلك السهرات، انضمّ الجمّال إلى الفتى والإنكليزي اللذين يجلسان قرب النار، وقال:

«ثمّة شائعات عن حرب دائرة بين القبائل».

استمرّ الصمت يلفّ الرجال الثلاثة. ولاحظ الفتى الإسباني إن هناك نوعاً من الخوف الغامض يخيّم، في حين لم يتفوّه أحد بكلمة. فاستشفّ، مرة أخرى، اللغة الخالية من الكلمات، أو اللغة الكونية.

بعد لحظات قليلة، سأل الإنكليزي: أهناك خطر ما؟

أجاب الجمّال:

«إن من يلتزم عبور الصحراء لا يمكنه العودة على أعقابه. وما

دمنا لن نعود إلى الوراء، فينبغي لنا ألّا نهتمّ إلا بأفضل طريق للتقدُّم إلى الأمام، والباقي مرهون بمشيئة الله، بما في ذلك الخطر».

واختتم ناطقاً بالعبارة الغامضة: «كل شيء مكتوب».

قال الفتى للإنكليزيّ، بعد مغادرة الجمال: «يجب أن تولي القوافل مزيداً من الانتباه، فهي تقوم بدورات كثيرة، ولكنها تتجّه باستمرار نحو النقطة نفسها».

ـ وأنت. عليك أن تقرأ المزيد عن العالم، لأن الكتب تشبه القوافل تماماً.

بعد ذلك، بدأ الموكب الطويل، من بشرٍ وحيوانات، يتقدّم بوتيرة أسرع. ولم يعد الصمت يخيم أثناء النهار، فحسب، بل في المساء أيضاً، حيث تعوّد الناس التجمُّع ليتحدّثوا حول النار، كان الصمت يخيّم تدريجاً. وذات مساء، قرّر قائد القافلة عدم إيقاد النار، منعاً للفت الأنظار خلال الليل.

فاضطر المسافرون، عندئذٍ، إلى النوم في وسط دائرة مغلقة تشكّلت من الحيوانات، ليتّقوا برودة الليل. وفي الوقت عينه، وزّع قائد القافلة حرّاساً مسلّحين حول المكان.

في إحدى تلك الليالي، جفا الإنكليزيَّ النومُ، فقصد الفتى الإسباني ليتنزَّها معاً، في الكثبان القريبة. كان القمر بدراً، وروى الفتى للإنكليزي حكايته كلَّها.

أبدى الإنكليزي اهتماماً خاصاً بالفصل المتعلّق بالمتجر الذي أخذ يزدهر، يوماً بعد يوم، مذ باشر الفتى العمل فيه. وقال:

«ها هو المبدأ الذي يُحرّك كل شيء. وهذا ما يُسمّى، في الخيمياء: **روح العالم**. عندما نرغب في شيء، من أعماق قلوبنا، نكون أكثر قرباً من **روح العالم**. إن لذلك، دائماً، قوة إيجابية.

[illegible] لا يشكّل امتيازاً للبشر فحسب، بل إن كلّ ما على سطح

الأرض، يملك، أيضاً، روحاً، سواء أكان معدناً أم نباتاً أم حيواناً أم مجرّد فكرة.

«إن كل ما هو تحت سطح الأرض أو فوقه، لا يكفُّ عن التحوّل، لأن الأرض كائن حي، له روحه. ونحن جزء من تلك الروح؛ ونادراً ما ندرك أنها تعمل لصالحنا. لكن يجب أن تدرك أن الأواني، ذاتها، في حانوت البلّور، قد ساهمت في نجاحك».

لزم الفتى الصمت، بعض الوقت، وهو يتأمّل القمر والرمل الفضي. وقال أخيراً:

«راقبت القافلة وهي تعبر الصحراء؛ إنهما تتكلّمان اللغة نفسها. لذلك، تسمح الصحراء للقافلة بأن تعبرها؛ وهي لا تكفّ عن الإحساس بكل خطوة من خطاها، لكي تتحقّق من أنها على تناغم معها. فإذا كان الأمر كذلك، فسوف تبلغ الواحة. أما إذا كان أحدنا لا يفهم هذه اللغة، فإنه، على الرغم من كل الشجاعة التي يتحلّى بها، سوف يموت، منذ اليوم الأول».

ظلّا يتأملان معاً ضوء القمر.

وتابع الفتى قائلاً:

ـ إنه سحر الإشارات. لقد شاهدت كيف يقرأ أدلّاؤنا إشارات الصحراء، وكيف تتحاور روح القافلة مع روح الصحراء.

صمت الإنكليزي لحظة، ثم قال أخيراً:

ـ ينبغي، بالفعل، أن أولي القافلة، انتباهاً أكثر.

ـ وأنا، ينبغي أن أقرأ كتبك.



إنها كتب غريبة حقاً، تتكلّم عن الزئبق والملح والتنّينات والملوك، لذلك لم يفهم شيئاً منها. غير أن ثمة فكرة يبدو أنها تتكرر، باستمرار، في معظم هذه الكتب: وهي أن الاشياء، جميعها، ليست سوى تجلّيات لمظهر واحد أوحد.

وقد اكتشف، في أحد الكتب، أن أهم بحث في الخيمياء جاء في بضعة أسطر فقط، كُتبت على زمرّدة بسيطة.

قال له الإنكليزي، فخوراً، بأنه علّم رفيقه شيئاً ما:

«إنه لوح الزمرُّد».

ــ لمَ كل هذه الكتب إذن؟

أجاب الإنكليزي، دون أن يكون مقتنعاً تماماً، بإجابته: «لكي تساعد على فهم تلك الأسطر القليلة».

وكان الكتاب، الذي أثار اهتمام الفتى أكثر من سواه، كتاباً يروي سِيَر الخيميائيين المشهورين. إنهم رجال كرّسوا حياتهم، بكاملها، لتطهير المعادن في المختبرات؛ وكانوا يعتقدون أن وضعَ معدن على النار، لسنوات وسنوات، سيفضي إلى تحرّره من كل خصائصه النوعية. ولا يبقى، عندئذ، مكانه سوى **روح العالم**. هذا هو **الشيء الوحيد** الذي يتيح للخيميائيين أن يفهموا كل ما على الأرض، لأنه يمثّل اللغة التي تتواصل بفضلها الأشياء. إن هذا الاكتشاف هو الذي أطلقوا عليه اسم **الإنجاز العظيم**، المكوَّن من جزء سائل وجزء صلب.

سأل الفتى:

ـ ألا يكفي أن نراقب البشر والإشارات لاكتشاف هذه اللغة؟

أجاب الإنكليزي، منزعجاً:

ـ يبدو أنَّك درجتَ على تبسيط كل شيء. إن الخيمياء عمل جديّ. ومن الضروري أن نتابع كل مرحلة من مراحل سير العملية، كما لقَّننا المعلمون.

اكتشف الفتى أن الجزء السائل من **الإنجاز العظيم** يُسمّى إكسير الحياة، وهو لا يقتصر على شفاء كلّ الأمراض، بل يمنع الخيميائي، أيضاً، أن يهرم. أما الجزء الصلب، فيسمَّى **حجر الفلاسفة**.

وقال الإنكليزي:

«ليس من السهل اكتشاف **حجر الفلاسفة**، فقد بقي الخيميائيون سنوات عديدة في مختبراتهم يراقبون هذه النار التي تطهِّر المعادن. وبقدر ما كانوا ينظرون إلى النار، كانوا يتوصّلون، في أعماقهم، شيئاً فشيئاً، إلى التخلّي عن أباطيل العالم. ثم ما لبثوا أن أدركوا، ذات يوم، أن تطهير المعادن قد أدى، في نهاية المطاف، إلى تطهُّرهم، هم بالذات».

تذكّر الفتى، عندئذ، تاجر البلّور الذي قال له: «إنه لأمر جيد أن ننظّف قطع الكريستال، لأننا بذلك نجد أنفسنا متحررين، في الوقت ذاته، من الأفكار السيئة». كان يقنع نفسه، أكثر فأكثر، بأن الخيمياء يمكن تعلُّمها في الحياة اليومية.

«إن حجر الفلاسفة يملك، فضلاً عن ذلك، ميزة خارقة جداً، إذْ يكفي جزء صغير جداً منه لتحويل كميات كبيرة من المعادن الرخيصة ذهباً».

انطلاقاً من ذلك، غدا اهتمام الفتى بالخيمياء اهتماماً بالغاً. وفكَّر أنه، مع قليل من الصبر، يمكنه أن يحوّل كل شيء ذهباً. قرأ سيرة حياة الأشخاص الذين حقّقوا ذلك، أمثال هلفتيوس وإيلي

وفولكانيلي وجيبير. إنها سِيَرٌ مذهلة: فقد عاشوا، جميعهم، حتى النهاية **أسطورتهم الشخصية**. كانوا يسافرون، ويلتقون العلماء، ويجترحون العجائب أمام أنظار المشكِّكين، ويملكون حجر الفلاسفة وإكسير الحياة المديدة.

ولكن، عندما أراد الفتى أن يتعلَّم كيفية تحقيق **الإنجاز العظيم**، وجد نفسه تائهاً كلياً، لأنه لم يرَ سوى رسوم، وتعليمات مرمَّزة ونصوص غامضة.

سأل الإنكليزيّ ذات مساء: «لماذا يستعلمون لغة صعبة الفهم إلى هذه الدرجة؟».

غير أنه لاحظ، في هذه المناسبة، أن الإنكليزي يبدو في مزاج سيئ، كما لو أنه يحنّ إلى كتبه.

بيد أن الإنكليزي أجاب عن سؤال الفتى:

ــ لئلّا يفهمها إلّا أولئك الذين يتمتّعون بمستوى رفيع من المسؤولية يجعلهم قادرين على فهمها. تصوَّرْ أن الناس، جميعهم، يعملون على تحويل الرصاص ذهباً، ألا يغدو الذهب، بعد وقت قصير، بلا أيّ قيمة. وحدهم ذوو النفوس المثابرة والباحثون العنيدون يستطيعون تحقيق **الإنجاز العظيم**. ومن أجل ذلك أنا هنا، في وسط هذه الصحراء،لألتقي، بالتحديد، خيميائياً حقيقياً يساعدني على فك الرموز.

ــ في أي عصر كتبت هذه المؤلفات؟

ــ منذ عدة قرون.

ــ لم يعرف ذلك الزمن المطبعة، ولم يكن من الممكن إطلاقاً أن يتوصّل الجميع إلى معرفة الخيمياء. فلمَ، إذن، هذه اللغة، الشديدة الغرابة وكل هذه الرسوم؟

على الرغم من هذا الإلحاح، لم يجب الإنكليزي عن السؤال. وقال إنه يراقب القافلة، بانتباه، منذ عدة أيام؛ وإنه لم يكتشف شيئاً جديداً، ولم يلاحظ سوى أمر واحد: وهو أنهم يتكلّمون، أكثر فأكثر، عن الحرب.

* * *

أعاد الفتى، ذات صباح، الكتب إلى الإنكليزي، الذي سأله بفضول وإلحاح، وكان في حاجة إلى مَن يثرثر معه، ليطرد خوفه من الحرب:

ـ حسناً، إذن، هل تعلَّمت الكثير؟

ـ تعلَّمت أن للعالم روحاً، وأنّ من يفهم تلك الروح يفهم لغة الأشياء. وتعلّمت أن العديد من الخيميائيين عاشوا **أسطورتهم الشخصية**، وأنهم نجحوا في اكتشاف روح العالم، وحجر الفلاسفة، وإكسير الحياة الطويلة. وتعلّمت، أكثر ما تعلّمت، أن هذه الأشياء على درجة من البساطة، بحيث يمكن أن تُحفر على زمرُّدة.

شعر الإنكليزي بالخيبة. فلا سنوات الدرس ولا الإشارات السحرية، ولا الكلمات العصيّة الفهم، ولا الأدوات المخبرية، تركت أثراً في الفتى. واستنتج أن الفتى يُعاني، بلا شك، شيئاً من البدائية يحول دون إدراكه هذه الأمور.

أخذ كتبه، وأعادها إلى الصناديق المعلّقة في سرج الجمل. وقال للفتى:

«عُدْ إلى قافلتك، فهي، أيضاً، لم تعلّمني شيئاً يُذكر».

عاد الفتى يتأمّل اتّساع الصحراء، والرمال التي تذرّيها الحيوانات أثناء سيرها. وكان يردّد في نفسه: «إنّ لكل امرئ أسلوبه في التعلُّم. فأسلوب كلٍّ منا يختلف عن أسلوب الآخر. بيد أننا، كلينا، نسعى إلى تحقيق **أسطورتنا الشخصية**، لذلك أقدّره».

* * *

بدأت القافلة تسير، من الآن فصاعداً، ليلَ نهار. وكان الرسل المُلثَّمون يظهرون في كل لحظة. وقد شرح الجمَّال، الذي غدا صديقاً للفتى، قائلاً: «إن حرباً اندلعت بين القبائل، وإننا سوف نكون محظوظين إذا نجحنا في بلوغ الواحة».

كانت الحيوانات منهكة، والناس أكثرَ صمتاً. وغدا الصمت أعمقَ تأثيراً خلال الليل. إذا رغا جمل (ورغاء الجمل كان مألوفاً من قبل) شعر الجميع بالخوف: فربّما عنى ذلك إشارة لهجوم.

مع ذلك، فإن الجمّال، كما بدا، لم يكن مبالياً كثيراً بأمر الحرب.

قال للفتى، وهو يأكل قبضة من التمر في ليلة لا قمر فيها ولا نار مواقد: «إنني حَيٌّ: عندما آكل، لا أفعل شيئاً آخر سوى الأكل. وعندما يحين وقت السير، أسير، هذا كل شيء. وإذا اقتضى الأمر، يوماً، أن أقاتل، فيغدو أيَّ يوم يساوي أي يوم آخر، حيال الموت. لأنني لا أحيا في ماضيَّ، ولا في مستقبلي. ليس لي سوى الحاضر، وهو، وحده، ما يهمّني. إذا كان باستطاعتك البقاء، دائماً، في الحاضر، تكون، عندئذ، إنساناً سعيداً. وسوف تدرك أن في الصحراء حياة، وأن في السماء نجوماً، وأن المحاربين يقاتلون، لأنَّ في ذلك شيئاً ما ملازماً لحياة البشر. وهكذا تغدو الحياة، في تلك الحال، عيداً، ومهرجاناً كبيراً، لأنها ليست سوى اللحظة التي نعيشها، ليس إلاَّ».

بعد ليلتين اثنتين، وفي حين كان على وشك النوم، نظر الفتى إلى النجم الذي يشير إلى الاتجاه الذي يسيرون فيه؛ فبدا له الأفق أكثر انخفاضاً، لأن في سماء الصحراء مئات النجوم.

قال له الجمَّال:

ـ إنها الواحة.

ـ لماذا، إذن، لا نسير إليها فوراً؟

ـ لأننا في حاجة إلى الرقاد.



فتح عينيه، في حين أن الشمس كانت تستلقي على سرير الغروب في الأفق البعيد. أمامه، حيث لمعت النجوم الصغيرة خلال الليل، يمتدّ صف، لا نهاية له من أشجار النخيل، يغطي كل امتداد الصحراء.

قال الإنكليزي، وهو يطرد، بدوره، فلول النوم:

ــ لقد وصلنا إليها.

ولكن الفتى بقي على صمته. لقد تعلَّم الصمت من الصحراء، واكتفى بالنظر إلى أشجار النخيل المواجهة له. ما زالت، أمامه، طريق طويلة لبلوغ الأهرامات. لكنه، الآن، أي في العيد الذي تكلّم عنه الجمّال، يحاول أن يعيش اللحظة الحاضرة مع دروس ماضيه، وأحلام مستقبله، ولن يكون منظر هذه الآلاف من أشجار النخيل، في يوم ما، سوى ذكرى. ولكنه، في هذه اللحظة، يعني له الظل، والماء، والملجأ من الحرب. وكما يمكن أن يتحوَّل رغاء الجمل إنذاراً بالخطر، كذلك يمكن أن يشكّل صفٌّ من النخيل معجزةً.

وردّد، في نفسه، قائلاً: «إن العالم يتكلم بأكثر من لغة واحدة».



«عندما يسرع الزمن في مسيرته، تسرع القوافل في سيرها أيضاً». هكذا فكَّر الخيميائي لدى مشاهدته وصول مئات الأشخاص والحيوانات إلى الواحة؛ وتدافُع السكان، وهم يصرخون، نحو القادمين الجدد. كان الغبار المُثار يحجب شمس الصحراء، والأطفال يقفزون ابتهاجاً بمشاهدة الغرباء. لاحظ الخيميائي أن زعماء القبائل يتجمَّعون ليلتقوا قائد القافلة ويستغرقوا، معاً، في حديث طويل مشبوه.

ولكن شيئاً، من ذلك كلّه، لم يُثر اهتمامه. لقد سبق أن شاهد الكثير من الناس يأتون ويغادرون، في حين تستمر الواحة والصحراء ثابتتيْن في مكانهما. وشاهد ملوكاً ومتسوّلين يطأون هذه المساحات الرملية التي تُغيّر شكلَها الرياح، ولكنها تستمر، هي ذاتها، كما عرفها مذ كان طفلاً. ورغم ذلك كله، فإنه لم يتمكّن، في أعماقه، من السيطرة على هذا القليل من الحبور الذي يشعر به كل مسافر عندما تظهر، أمام عينيه، خضرة أشجار النخيل، عقب الأرض الصفراء والسماء الزرقاء.

وقال في قرارة نفسه: «ربما خلق الله الصحراء لكي يتيح للإنسان أن يتمتّع بمشاهدة أشجار النخيل».

قرر، عندئذ، أن يركّز تفكيره على أمور ذات طابع عملي. إنه على علم بأن رجلاً سوف يأتي، مع هذه القافلة، ينبغي له أن يعلّمه جزءاً من أسراره. فقد أبلغته الإشارات ذلك. لم يكن يعرف ذلك

الرجل من قبل، ولكن عينيه الخبيرتين سوف تتعزفان إليه في اللحظة التي يراه فيها. وهو يامل أن يكون شخصاً موهوباً مثل تلميذه السابق.

وردّد في أعماقه: «لست أدري لما يجب أن تنتقل هذه الأمور سرًا. فأنا لا أرى أن الأمر يتعلق بأسرار حقيقية، بالضبط، ذلك أن الله يكشف، بسخاء، أسراره لكل عباده».

إنه لا يجد لذلك سوى تفسير واحد: يجب أن يجري تناقل هذه الأمور، على هذا النحو، لأنها تنطوي، دون شك، على حياة خالصة. وهذا النمط من الحياة يصعب التقاطه، وهو يتخذ شكل رسوم أو كلمات.

فالناس يؤخذون بفتنة اللوحات والكلمات، فينسوا في النهاية **لغة العالم**.



اقتيد القادمون الجدد، على الفور، ليمثلوا أمام زعماء القبائل في الفيّوم. وجد الفتى صعوبة في تصديق ما تراه عيناه: فبدلاً من مكان صغير، يحتوي على بئر، وتحيطه أشجار النخيل (بحسب الوصف الذي قرأه، ذات مرة، في أحد كتب التاريخ)، تبيَّن له أن الواحة أكبر بكثير من عدة قرى، مجتمعة، من القرى الإسبانية. فهي تحتوي على ثلاثمئة بئر، وخمسين ألف شجرة نخيل، وعدد كبير من الخيام الملوّنة المنتشرة بين أشجار النخيل.

قال الإنكليزي، وهو متلهفٌ للقاء الخيميائي في أقرب وقت ممكن: «لكأننا في عالم **ألف ليلة وليلة**».

سرعان ما أحاط بهم الأطفال، وهم ينظرون، بفضول، إلى المطايا، والجمال، والناس الوافدين. وكان الرجال يريدون أن يعرفوا منهم: هل رصدوا إشارات تدل على حدوث معارك. أما النسوة، فكنّ يتناهبن الأقمشة، والأحجار الكريمة، التي حملها التجار معهم. لقد غدا سكون الصحراء، الآن، حلماً بعيداً. الجميع يتكلمون دون انقطاع، ويضحكون، ويغنّون بأعلى أصواتهم، كما لو أنهم غادروا عالماً من الأرواح الطاهرة، ليجدوا أنفسهم بين البشر. كان الناس فرحين وراضين.

وعلى الرغم من الاحتياطات المتّخذة منذ الأمس، فإن الواحات المنتشرة في الصحراء تعتبر دائماً أماكن محايدة، لأن الغالبية الساحقة، من الذين يعيشون فيها، هم من النساء والأطفال، كما أن

وجود واحات من الجهتين، يدفع المحاربين إلى القتال في رمال الصحراء، تاركين الواحات آمنة، باعتبارها أماكن لجوء.

جمع قائد القافلة، بشيء من الصعوبة، كل مسافري قافلته، وبدأ يوجه تعليماته إليهم: سوف نبقى هنا ما دامت الحرب دائرة بين القبائل. وبما أن أفراد القافلة ضيوف، فسوف يقيمون في خيام سكان الواحة الذين يقدّمون إليهم أفضل الأماكن. إنه قانون الضيافة التقليدي. ثم طلب إلى الجميع، بمن فيهم أفراد حرسه الخاص، تسليم أسلحتهم إلى الرجال الذين يعيّنهم رؤساء القبائل.

وقال لهم شارحاً: «تلك هي قواعد الحرب. وبذلك لا تُستخدم الواحات ملاذاً للمحاربين».

وذهش الفتى حين أخرج الإنكليزي من جيب سترته، مسدساً ملبَّساً «بالكروم»، وسلّمه إلى الرجل المكلَّف جمع الأسلحة.

فسأله:

ــ لمَ المسدّس؟

أجاب الإنكليزي وهو بادي السعادة لبلوغه مآربه:

ــ لكي يساعدني على أن أثق بالناس.

أما الفتى، فكان يحلم بكنزه. وبقدر ما كان يقترب من حلمه، كانت الأمور تزداد صعوبة. وما كان الملك العجوز يسمّيه «حظ المبتدئ» لم يظهر قطّ. إنه يعرف أن امتحان الإصرار والشجاعة لمن يسعى إلى **أسطورته الشخصية**، إنما يجري الآن. لذلك يجب ألَّا يتسرَّع، وألَّا يكون نافد الصبر، وإلَّا فاتته مشاهدة الإشارات التي وضعها الربُّ في طريقه.

وردّد الفتى في أعماقه مستغرباً: «إن الربَّ هو الذي وضعها في طريقي». لقد كان، حتى الآن، يعتبر أن الإشارات شيء يخصُّ العالم، شيء مثل الأكل والنوم، مثل البحث عن الحب أو البحث عن عمل.

ولكنه لم يفكر إطلاقاً أنها يمكن أن تكون لغة يستعملها الربُّ لكي يريه ما ينبغي فعله.

ثمّ ردّد في سرّه: «لا تكن نافد الصبر». أوَلم يقل الجمّال: كُلْ عندما يحين موعد الأكل، وعندما يحين موعد السير، سِرْ».

في الليلة الأولى، نام الجميع، بمن فيهم الإنكليزي، جرّاء الإرهاق. كان الفتى في خيمة بعيدة يشغلها خمسة فتيان آخرون يقاربونه في العمر. إنهم من سكّان البادية، ويريدون سماع أخبار المدن الكبرى. تحدَّث الفتى عن حياته كراعٍ، وكان على وشك أن يتطرّق إلى تجربته في متجر البلوريات، عندما دخل الإنكليزي.

قال، وهو يصطحب رفيقه إلى الخارج: «بحثت عنك، طوال فترة الصباح. ينبغي أن تساعدني على إيجاد مسكن الخيميائي».

حاولا، في البداية، أن يعثرا عليه بوسائلهما الخاصة. لا شك في أن الخيميائي يعيش على نحو مختلف عن سائر سكان الواحة. ومن المحتمل جداً أن يكون في خيمته فرن مشتعل باستمرار. وما لبثا أن اكتشفا، بعد أن سارا كثيراً، أن الواحة أكبر، بكثير، مما كانا يتصوران، وأن فيها المئات والمئات من الخيام.

قال الإنكيزي، وهو يجلس مع رفيقه، قرب إحدى آبار الواحة: «ها قد أضعنا قرابة يوم».

فأجاب الفتى: «قد يكون من الأفضل أن نسأل».

لم يكن الإنكليزي راغباً بالكشف عن وجوده في الفيوم، فبدا مترذداً. ثم استجاب، وطلب إلى الفتى، الذي يتقن العربية أكثر منه، أن يتولّى الأمر. عند ذلك، تقدّم الفتى من امرأة بلغت البئر لتملأ قُربة من جلد الغنم.

وخاطبها قائلاً:

ـ مساء الخير، يا سيدتي! هلّا أرشدتني إلى مسكن خيميائي يعيش في هذه الواحة.

أجابت المرأة أنها لم تسمع به من قبل، وانصرفت في الحال. إلّا أنها تباطأت، لكي تحذّر الفتى من توجيه الكلام إلى النسوة اللواتي يرتدين ثياباً سوداً، لأنهن نسوة متزوجات. وتلفته إلى احترام التقاليد.

أصيب الإنكليزي بصدمة قوية. وبدت رحلته بلا جدوى. كذلك شعر رفيقه بالحزن. فالإنكليزي، مثله، يتابع **أسطورته الشخصية**. ومن يكون كذلك، فإن الكون باكمله يقف إلى جانبه حتى يجد ضالّته: هكذا قال الملك العجوز، ولا يمكنه أن يخطئ.

قال أحد الشبّان:

ـ لم أسمع، حتى الآن، بوجود أيّ خيميائي، وإلّا لما ترددت في مساعدتك.

أشرقت نظرة الإنكليزي، فجأة، بوميض خاطف:

«هذا أمر طبيعي. ربما كان الكثيرون هنا لا يعرفون معنى كلمة خيميائي. إسأل، إذن عن رجل يعالج كل الأمراض!».

جاءت عدة نسوة يرتدين الزيَّ الأسود، ليملأن جرارهن من ماء البئر. ولم يرضخ الفتى لإصرار الإنكليزي على توجيه السؤال إليهن. أخيراً اقترب أحد الرجال.

ساله الفتى:

ـ هل تعرف أحداً يعالج المرضى في هذه القرية؟

أجاب الرجل بادي الخوف من هذين الغريبين: «إن الله وحده، هو الذي يشفي من جميع الأمراض. أنتما تبحثان عن سَحَرة».

وبعد أن تلا بعض الآيات القرآنية، تابع طريقه.

جاء رجل آخر أكبر سناً، يحمل دلواً صغيراً. طرح الفتى عليه السؤال ذاته. فأجاب:

ـ لم تريدان التعرُّف إلى رجل كهذا؟

ـ لأن صديقي، هذا، قام برحلة استغرقت عدة شهور بهدف لقائه.

قال الرجل العجوز بعد أن فكَّر قليلاً:

ـ إذا كان هذا الرجل في الواحة حقاً، فلا بدَّ من أن يكون رجلاً مهمّاً جداً. ولا يقدر حتى زعماء القبائل أن يقابلوه، متى احتاجوا إليه. ينبغي أن يقرر هو بنفسه.

ثم ختم حديثه، وهو يبتعد: «انتظرا نهاية الحرب، وغادرا مع القافلة، لا تحاولا التدخل في حياة الواحة».

لكن الإنكليزي فرح بما سمع. إنهما على الدرب الصحيح.

في هذه الأثناء، ظهرت فتاة لم تكن ترتدي الثوب الأسود. كانت تحمل جرة على كتفها، ويعلو رأسها منديل، ولكن وجهها كان سافراً. تقدّم الفتى نحوها ليسألها عن الخيميائي.

عندئذ، بدا الأمر وكأنَّ الزمن قد توقَّف، وكان روح العالم قد انبثقت بكل قوّتها أمام الفتى.

عندما شاهد عينيها السوداوين وشفتيها الحائرتين بين التبسّم والصمت، أدرك الجزء الجوهري، الأكثر إفصاحاً في اللغة التي يتكلم بها العالم، والتي تستطيع كل كائنات الأرض أن تفهمها في أعماقها، وهو ما يسمى الحب. إنه شيء ما أكثر قِدماً من البشر ومن الصحراء ذاتها. ومع ذلك يتكرر انبثاقه بالقوة، ذاتها، وفي كل مكان، كلَّما تعانقت نظرتان مثلما حدث للتوّ قرب بئر ماء. افترّت شفتا الفتاة، أخيراً، عن ابتسامة كانت بمثابة إشارة، وهي الإشارة التي انتظرها، دون أن يدري، خلال فترة طويلة جداً من

حياته، والتي كان يبحث عنها في الكتب، وقرب نعاجه، وفي الكريستال، وفي صمت الصحراء.

إنها هي بالذات، لغة العالم النقي، دون أيّ تفسير، لأن الكون لا يعوزه تفسير لكي يتابع مسيرته في الفضاء اللامتناهي. إن كل ما فهمه، في هذه اللحظة، هو أنه موجود أمام امرأة حياته، دون أيِ ضرورة للكلام، ولا بد أنها تعرف ذلك هي أيضاً. إنه على يقين بشعوره أكثر من أي شيء في العالم. حتى وإن كان أقاربه وأقارب أقاربه يقولون، باستمرار: المغازلة في البدء، فالخطوبة، فمعرفة الطرف الآخر، ومن ثم امتلاك المال للزواج. إن من يقول بذلك، لا يعرف، إطلاقاً، **اللغة الكونية**، لأن من يتمكّن منها، يدرك أن هناك على الدوام شخصاً ما في العالم ينتظر شخصاً آخر، سواء أكان ذلك في وسط الصحراء، أم في أعماق المدن الكبرى. وعندما يلتقي ذانك الشخصان، وتتعانق نظراتهما، يغدو الماضي والمستقبل بلا أهمية، إذْ لا وجود إلَّا لهذه اللحظة الراهنة، ولهذا اليقين، الذي لا يمكن إدراكه، بأن كل شيء، تحت قبة السماء، قد كُتب باليد ذاتها، اليدِ التي تلد الحب، والتي خلقت توأماً لروح كل كائن يعمل، أو يرتاح، أو يبحث عن الكنوز تحت نور الشمس. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإن أحلام الجنس البشري تغدو بلا معنى.

أسرَّ إلى نفسه: «كل شيء مكتوب»..

نهض الإنكليزي، الذي كان جالساً، وهزَّ صديقه الفتى، قائلاً:

«هيَّا! سلْها».

اقترب الفتى من الفتاة. ابتسمت ثانيةً، وابتسم هو أيضاً.

سألها:

ــ ما اسمكِ؟

أجابت، وهي تخفض نظراتها:

ـــ فاطمة.

ـــ اسم تحمله بعض النسوة في البلاد التي جئت منها.

ـــ إنه اسم بنت النبي، وقد نقله محاربونا إلى هناك.

كانت الفتاة تتكلّم عن المحاربين باعتزاز. وكان الإنكليزي، إلى جانبه، يُلحُّ عليه، فسألها الفتى ما إذا كانت قد سمعت بالرجل الذي يشفي كل الأمراض.

قالت:

«إنه رجل يعرف أسرار العالم ويتكلّم مع الجنّ في الصحراء». عنت بالجنّ الأرواح الخيّرة والشريرة في آن. وأشارت بحركة من يدها نحو الجنوب، حيث يسكن هذا الشخص الغريب. ثم ملأت جرّتها وانصرفت. وذهب الإنكليزي، أيضاً، ليبحث عن الخيميائي. في حين لبث الفتى، لوقت طويل، جالساً قرب البئر، مدركاً أن الشرق قد ترك على وجهه، ذات يوم، عطر هذه المرأة، وأنه كان يحبها حتى قبل أن يعرف أنها على الأرض، وأن الحب الذي يكنّه لها سوف يمكّنه من اكتشاف أسرار العالم جميعها.

في اليوم التالي، جاء إلى البئر لينتظر الفتاة، ففوجئ بوجود الإنكليزي، هناك، يتأمل الصحراء لأول مرة.

قال الإنكليزي:

«انتظرت طوال العصر والمساء. وصل مع ظهور أولى النجمات. أخبرته بما أبحث عنه. وسألني ما إذا كنت قد حوّلت الرصاص ذهباً، من قبل. أجبته أن هذا، بالتحديد، ما أريد أن أتعلّمه. فقال لي، عندئذ، «هيّا، حاول»، ولم يضف أيّ كلمة أخرى.

ظلَّ الفتى صامتاً. فالإنكليزي لم يقم بهذه الرحلة، كلّها، إلا

ليسمع ما كان يعرفه من قبل. وتذكّر أنه هو، نفسه، أعطى الملك العجوز ستة خراف ليبلغ نتيجة مشابهة.

قال للإنكليزي:

ـ حاول إذن.

ـ هذا، ما سوف أفعله، وسوف أباشر فيه.

بعد ذهابه، وصلت فاطمة إلى البئر لتملأ جرَّتها. فقال لها:

«جئت لأفضي إليك بأمرٍ بسيط للغاية: أود أن تكوني زوجتي. إنني أحبك».

تركت الفتاة الإناء يطفح بالماء.

واستأنف الفتى كلامه:

ـ سأنتظرك، كلّ يوم، في هذا المكان. لقد اجتزت الصحراء لأبحث عن «كنز خبيئ قرب الأهرامات. كانت الحرب لعنةً عليَّ، فإذا بها تستحيل نعمةً، لأنها تبقيني قريباً منك.

ـ سوف تنتهي الحرب ذات يوم.

نظر إلى أشجار النخيل في الواحة. تذكّر أنه كان راعياً، ولديه أعداد كبيرة من الخراف. وأدرك أن فاطمة أكثر أهمية من الكنز.

قالت، كما لو أنها تقرأ أفكاره:

«المحاربون يبحثون عن كنوزهم. ونساء الصحراء يفخرن بمحاربيهن».

ثم ملأت جرتها من جديد، وغادرت.

واظب الفتى على ارتياد البئر بانتظار مجيء فاطمة. حدَّثها عن حياته، كراعٍ، ولقائه الملك، وعن متجر البلوريات. أصبحا صديقين،

وباستثناء الدقائق الخمس عشرة التي يقضيها برفقتها، كان يحسّ بيومه طويلاً، طويلاً، لا يُحتمل.

بعد مرور قرابة الشهر على وجوده في الواحة، دعا قائد القافلة المسافرين، جميعهم، إلى اجتماع.

قال لهم:

«لسنا ندري متى تنتهي الحرب، وليس بإمكاننا استئناف رحلتنا. سوف تستمر المعارك، بلا ريب، لوقت طويل ربما بلغ سنوات. إن في كلتا الجهتين مقاتلين أشدّاء، كما أن الجيشين فخوران، بخوض المعارك. ليست هذه الحرب حرباً بين الصالحين والأشرار، بل هي حرب بين قوى تتناحر للاستيلاء على السلطة ذاتها. وعندما تندلع حرب من هذا النوع، فإنها تطول أكثر من أي حرب أخرى، لأن الله يقف فيها إلى جانب كلٍّ من الفريقين، في آن».

تفرَّق الجمع. وفي المساء التقى الفتى فاطمة، من جديد، وأطلعها على ما جرى في الاجتماع.

قالت الفتاة:

«حدّثتني، في لقائنا الثاني، عن حبك. ثم لقّنتني أموراً جميلة جداً، مثل **اللغة الكونية وروح العالم**. وشيئاً فشيئاً، غدوت، جزاء ذلك، جزءاً من ذاتك».

كان الفتى يصغي إلى صوتها، ويجده أكثر جمالاً من وشوشة الريح وأشجار النخيل.

وما لبث أن قال:

«مضى وقت طويل على ارتيادي هذه البئر، لأنتظرك، فلا تذكّرت ماضيّ، ولا التزمت العادات التي يريد الرجال أن تتقيّد نساء الصحراء بها. كنت أحلم، في طفولتي، أن الصحراء قد تحمل لي،

ذات يوم، أجمل هدية في حياتي، وها هي الهدية بين يدي، إنها أنت».

أراد أن يمسك يدها، ولكن يديها كانتا تمسكان بأذنيْ الجزة.

فقالت له:

«حدّثتني عن أحلامك، وعن الملك العجوز. وعن الكنز، كما حدثتني عن الإشارات. لذلك لم أعد أخاف شيئاً، لأن تلك الإشارات هي التي جاءت بك إليّ. إنني أصبحت جزءاً من حلمك، ومن **أسطورتك الشخصية**، مثلما تقول غالباً. لهذا السبب دون سواه، أريدك أن تتابع طريقك باتجاه ما جئت تبحث عنه. وإذا كان ينبغي لك أن تنتظر نهاية الحرب، فذا أمر جيد، أما إذا كان عليك الرحيل قبل ذلك، فاذهب، إذن، نحو أسطورتك، فالكثبان تتغيّر بفعل الرياح، ولكن الصحراء تستمر هي ذاتها، وكذلك هو شأن الحبّ الذي وُلِد بيننا.

أضافت: «إذا كنت جزءاً من أسطورتك، فسوف تعود ذات يوم؛ هذا ماكتب لك».

شعر بالحزن عندما فارقها. فكَّر بأناس كثيرين كان قد عرفهم. كان الرعاة المتزوّجون يجدون صعوبة في إقناع نسائهم بضرورة تجوالهم في البراري، حيث يقيمون. إن الحبّ يقتضي البقاء قرب من نحبّ.

وفي اليوم التالي، حدَّث فاطمة بهذه الأمور كلّها.

فقالت له:

«إن الصحراء تأخذ رجالنا، ولا تعيدهم أحياناً. يجب أن نتعوّد ذلك. وإثر غيابهم، يتراءون لنا في الغيوم التي تعبر دون أن تمطر، وفي الحيوانات التي تتوارى بين الصخور، وفي المياه السخية التي

تنبجس من الأرض. يصبحون جزءاً من كل شيء، أي من **روح العالم**. بعضهم يعود، فتغمر السعادة النسوة الأخريات، لأن الرجال الذين ينتظرْنَهم يمكن أن يعودوا، هم أيضاً، ذات يوم.

«كنت، من قبل، أنظر إلى أولئك النسوة وأغبطهن على تلك السعادة. أما الآن، فسوف يكون لديَّ من أنتظره. إنني أمرأة من الصحراء، وأراني فخورة بذلك. أريد أن ينطلق رجلي، هو أيضاً، حرّاً مثل الريح التي تحرّك الكثبان، وأن يتاح لي أن أراه في السحب، وفي الحيوان، وفي الماء».

ذهب الفتى إلى الإنكليزي. أراد أن يحدّثه عن فاطمة، ففوجئ به وقد بنى فرناً صغيراً إلى جانب خيمته. كان فرناً غريباً وضع عليه وعاءً شفافاً، وراح يضرم النار في الحطب، ويتأمّل الصحراء. بدت عيناه أكثر لمعاناً ممّا كانتا عليه وهو يقضي كلّ وقته غارقاً في الكتب.

قال للفتى:

«إنها المرحلة الأولى من العمل. يجب فصل الكبريت الخام، ينبغي لي ألَّا أخشى الفشل. إن خوفي من الفشل هو الذي ظلّ، حتى الآن، يمنعني من محاولة تحقيق **الإنجاز العظيم**. وها أنا أبدأ، الآن، بما كان ينبغي أن أبدأه قبل عشر سنوات. ولكنني سعيد، لأنني لم أنتظر عشرين سنة».

وتابع تغذية النار، وهو ينظر إلى الصحراء. ومكث الفتى قربه، إلى أن ألقت شمس المغيب ألوانها الوردية على رمال الصحراء. فشعر، عندئذ، برغبة جامحة في الذهاب إلى هناك، ليرى ما إذا كان السكون قادراً أن يجيب عن تساؤلاته.

سار، على غير هدى، بعض الوقت، دون أن تغيب أشجار النخيل عن نظره. كان يصغي إلى الريح، ويُحسُّ بصلابة الحصى تحت قدميه. كان أحياناً يجد صَدَفَةً، ويدرك أن هذه الصحراء كانت في غابر الزمن بحراً واسعاً. جلس على صخرة كبيرة وترك نفسه

تُفتن بروعة الأفق الماثل أمامه. ليس بوسعه أن يتصوَّر الحب دون أن يشرك فيه فكرة الامتلاك. ولكن فاطمة امرأة من الصحراء. وإذا كان ثمَّة شيء يستطيع مساعدته على الفهم، فهو الصحراء فحسب.

لبثَ هكذا، دون أن يفكر في شيء، حتى اللحظة التي أحسّ فيها أن شيئاً ما يتحرّك فوق رأسه. نظر إلى أعلى، وشاهد صقريْن يحلّقان، عاليا جدّاً، في السماء.

راقب الطيرين الجارحين، والأشكال التي يرسمانها أثناء طيرانهما. بدت تلك الأشكال خطوطاً مبعثرة، لكنّها كانت تعني له الكثير.

لم يستطع فهم ما ترمز إليه. فقرَّر حينئذ متابعة حركات الطيريْن؛ ربما استطاع أن يقرأ فيها رسالة ما، وربما استطاعت الصحراء أن تشرح له معنى الحب دون امتلاك.

أحسَّ بالنعاس، إلّا أن قلبه حثّه ألّا ينام. لكنه، خلافاً لذلك، كان يشعر بحاجة قصوى إلى الاستسلام. قال في نفسه: «ها أنا أتغلغل في صميم **لغة الكون**. إن ولكلّ شيء، هنا معنى، حتى تحليق الصقرين». وشعر أنه خصّ هذا الحب الذي يكنُّه لامرأة بتقدير كبير: «عندما نحبّ، تكتسب الأشياء معانيَ أكثر غِنًى».

فجأة، انقضّ أحد الصقرين، عموديًّا، لمهاجمة الآخر. وفي هذه اللحظة بالذات، لاحت للفتى رؤيا مفاجئة وخاطفة: جماعة مسلّحة تقتحم الواحة شاهرة السيوف. وسرعان ما اختفت الرؤيا تاركة فيه أثراً عميقاً. لقد سمع الكثير عن السراب، وسبق أن شاهد بعضاً منه. وما السراب إلّا رغبات تتجسَّد فوق رمال الصحراء. وهو مع ذلك لا يريد، البتّة، أن يرى جيشاً يحتلّ الواحة.

أراد أن ينسى ذلك كلَّه ويعود إلى التأمُّل. فحاول، من جديد، أن يركِّز تفكيره على الصحراء بلونها الوردي، وعلى الحجارة. ولكن شيئاً ما، في قرارته، كان يقطع عليه سبيل الراحة.

ألم يقل له الملك العجوز: «اتبع الإشارات باستمرار». فكَّر بفاطمة.

ثم تذكَّر الرؤيا التي ارتسمت له، والتي حدس أنها لن تكون بعيدة عن أن تغدو واقعاً.

عانى كثيراً قبل أن يتمكّن من تبديد القلق الذي ساوره. نهض وسار باتجاه أشجار النخيل. أدرك، مرة جديدة، اللغات المتعددة للأشياء: باتت الصحراء، الآن، هي الأمان، والواحة هي الخطر.

كان الجمّال جالساً عند جذع نخلة يراقب، هو أيضاً، غروب الشمس. أبصر الفتى قادماً من وراء أحد الكثبان.

قال الفتى على الفور:

ـ هناك جيش يقترب، لقد ارتسمت لي رؤيا.

ـ إن الصحراء تملأ قلوب البشر بالرؤى.

ولكن الفتى حدَّثه عن الصقرين، وكيف كان يرقب تحليقهما، ثم غاص فجأة، في **روح العالم**.

لم يُجب الجمَّال. إنه يدرك ما قاله محدِّثه. ويعرف أنَّ أي شيء، على وجه الأرض، يستطيع أن يروي تاريخ كلّ الأشياء. إذا فتحنا صفحة من كتاب، أو تفحّصنا يديْ شخصا، أو راقبنا تحليق طائر، أو أمعنّا النظر في ورق للعب، أو في أيَّ شيء آخر، فإن كلًّا منا يمكنه أن يكتشف صلةً بما يعيشه. لا تكشف الأشياء، في الحقيقة، أمراً بذاتها، بل إن الناس هم الذين يكتشفون، بملاحظتهم الأشياء، طريقة للنفاذ إلى **روح العالم**.

كانت الصحراء ماهولة برجال يكسبون عيشهم، لأنهم يستطيعون النفاذ، بسهولة، إلى **روح العالم**. كانوا يُسَمّون بالعرّافين. وكانوا يخيفون النساء والعجائز. ونادراً ما يستشيرهم المحاربون، أوَيمضي أحدٌ إلى الحرب وهو يعرف، مسبقاً، اللحظة التي سيموت فيها؟ إن المحاربين يفضّلون طعم القتال والإثارة الناجمة عن المجهول. وهم يستبشرون في المستقبل خيراً. فالله من كتبه، وكلّ ما يكتبه الله إنما يجيء لخير البشر. فالمحاربون، إذن، يعيشون الحاضر ببساطة، لأنهم يرونه غنيًا بالمفاجآت، وبحتّم عليهم أن يكونوا

متيقظين لأمور كثيرة: أين يكمن سيف العدو، وجواده، وأيّ ضربة يسدّدون لينجَوا من الموت.

لم يكن الجمَّال محارباً، وقد سبق له أن استشار بعض العرّافين. كثيرون منهم قالوا له أشياء صحيحة، وآخرون قالوا أشياء باطلة. وذات يوم، سأله أحدهم، وكان الأكبر سنّاً (والأكثر مهابة)، لماذا يهتم كثيراً بمعرفة المستقبل.

أجابه الجمّال:

- لكي أفعل بعض الأشياء، وأحول دون حدوث ما لا أريده أن يحدث.

ـ عندئذ لن يكون هذا المستقبل مستقبلك.

ـ ولكن ربّما أردت معرفة المستقبل لأكون مستعدّاً لما لا بدَّ من حدوثه.

ـ سيكون للأشياء الحسنة وقعٌ جميل، لكنَّ الأمور السيّئة سوف تسبّب لك الألم قبل حدوثها.

- أريد أن أعرف المستقبل لأني إنسان، والناس تحكم معيشتهم العلاقة بمستقبلهم.

لبث العرّاف، صامتاً، بعض الوقت. كانت مهنته اللعب بالعصيّ التي تُطرح على الأرض: فيفسّر الأمور بحسب وقوعها. ولكنه لم يستخدم، ذلك اليوم، العصيّ، بل لفَّها في قطعة من القماش، ووضعها في جيبه.

قال العراف:

«أكسب عيشي متكهّناً بمستقبل الناس، ولديّ خبرة باستعمال العصا لمعرفة الغيب. في ذلك المجال، يمكنني معرفة الماضي، ونبش ما هو منسيّ، وفهم إشارات الحاضر. عندما يستشيرني الناس، لا أقرأ المستقبل: بل أتكهّنه، لأن المستقبل لا يعلمه إلَّا الله، وهو وحده يكشفه، في ظروف غير عادية. ولكن كيف يمكنني التنبُّوء بالمستقبل؟ بفضل إشارات الحاضر. ففي الحاضر يكمن السرّ؛ وإذا

انتبهتَ إلى حاضرك، أمكنك جعله أفضل ممّا هو عليه. ومتى حسَّنت الحاضر، فإن ما يأتي، بعد ذلك، يكون أفضل أيضاً. إنسَ المستقبل، وعِشْ كل يوم من حياتك وفق أحكام الشريعة، متّكلاً على رحمة الله بعباده، فكلّ يوم يحمل الأبدية في صميمه».

أراد الجمَّال أن يستشفّ طبيعة تلك الظروف الاستثنائية التي يسمح الله أن يُرى المستقبل بواسطتها:

«إنّما يكشفها **هو** ذاته، ونادراً ما يكشفها، وذلك لسبب واحد: إنه مستقبل كُتبَ لكي يتغيَّر».

ردّد الجمال في سرّه:

«لقد كشف الله مستقبل الفتى، لأنه أراد أن يغدو الفتى أداته».

ثمّ قال:

ـ إذهب وقابل زعماء القبائل، وحدِّثهم عن المحاربين الذين يقتربون.

ـ سوف يهزأون بي.

ـ إنهم رجال من الصحراء، ورجال الصحراء أَلِفوا الإشارات.

ـ إذن، لا بدَّ من يكونوا قد عرفوا مسبقاً.

ـ ليس ذلك من همومهم، فهم يعتقدون أن ضرورة اطِّلاعهم على أمر شاء الله أن يطلعهم عليه، تدفع بأحدٍ أن يأتي ليخبرهم به. حصل ذلك غير مرة. أما اليوم، فأنت، بالذات، «الرسول».

فكَّر الفتى بفاطمة، وقرَّر الذهاب لمقابلة زعماء القبائل.

قال للشخص الذي كلّف الحراسة عند مدخل الخيمة البيضاء الكبيرة، المنصوبة في وسط الواحة:

ـ إنني أحمل رسالة من الصحراء، وأريد أن أتكلّم مع الزعماء.

لم يجب الحارس بكلمة، بل دخل الخيمة. غاب طويلاً، ثم خرج برفقة رجل عربي يرتدي الأبيض والمذهَّب. أخبره الفتى بما شاهد. فطلب إليه العربي أن ينتظر قليلاً، ثم دخل.

هبط الليل. ثمَّة عرب وتجّار يدخلون ويخرجون بأعداد كبيرة. بدأت أضواء الخيام تنطفئ تدريجاً، وغدت الواحة بُعيد ذلك ساكنة مثل الصحراء. وحدها، الخيمة الكبيرة، ظلَّت مضاءة. وطوال هذا الوقت، لم يكفَّ الفتى عن التفكير بفاطمة، رغم أنه لم يفهم جيداً الحوار الذي دار بينهما، بعد الظهر.

أخيراً، وبعد عدة ساعات، أذِن الحارس له بالدخول.

ما شاهده، في الداخل، أغرقه في حالة من الذهول. لم يكن يتصوَّر، إطلاقاً، وجود خيمة، كهذه الخيمة، في وسط الصحراء. فالأرض مغطاة بأجمل أنواع السجاد الذي لم تطأ قدماه مثله. ومن السقف تتدلّى ثريات من المعدن المرصّع بالذهب تحمل شموعاً مشتعلة. كان الزعماء يتصدّرون الخيمة في شكل نصف دائري. وقد أرخيت أرجلهم وأذرعتهم على طنافس من الحرير المطرّز. وكان الخدم يروحون ويجيئون، حاملين صواني من الفضة، حافلة بأشهى الأطعمة، أو بأقداح الشاي. وآخرون يسهرون على إبقاء جمر النراجيل مشتعلاً. ورائحة التبغ الزكية تملأ الجو.

كان، في الخيمة، ثمانية زعماء. ولكنه أدرك، على الفور، أيَّهم الأرفع منصباً: إنه رجل عربي، يرتدي الأبيض والمذهَّب، جلس في وسط نصف الدائرة، وإلى جانبه الشاب الذي تكلّم معه، قبل قليل.

سأل أحد الزعماء، وهو ينظر إليه:

ـ من هو الغريب الذي تكلم عن رسالة؟

أجاب الفتى:

ـ أنا.

وأخبرهم بما رأى.

قال زعيم قبيلة آخر:

ــ لماذا تقول الصحراء، إذن، هذه الأشياء إلى رجل قادم من مكان آخر، وهي تعلم أننا، هنا، منذ عدّة أجيال؟

ــ لأن عينيَّ لم تتعوّدا الصحراء بعد، ما يمكّنني من مشاهدة أشياء لا تستطيع مشاهدتها العيون التي ألِفت ذلك.

«ولأنني أعرف، أيضاً، **روح العالم**» هذا ما أسرّ به الشاب إلى نفسه، من دون أن يقوله، لأن العرب لا يعتقدون بمثل هذه الأشياء.

قال زعيم ثالث:

ــ إن الواحة أرض محايدة. لا أحد يهاجم واحةً.

ــ إنني أحكي عمّا شاهدت. فإذا كنتم لا تريدون تصديقه، فلا تحرّكوا ساكناً.

أطبق على الخيمة صمت شامل، احتدم بعده الجدال بين الزعماء الحاضرين. ولما كانوا لا يتكلّمون اللغة العربية الفصحى، فإن الفتى لم يتمكّن من الفهم. لكن عندما بدا عليه التأهّب للخروج، طلب الحارس إليه أن يبقى. عند ذلك، شعر ببعض الخوف، ذلك أن الإشارات قالت له أن ثمَّة أمراً لا يوحي بالارتياح، وندم على خوضه في هذا الموضوع مع الجمَّال.

فجأة، لاحت ابتسامة، لا تكاد ترى، على وجه الرجل الطاعن، الجالس في الوسط، فعاوده الاطمئنان. لم يشارك العجوز في النقاش، ولم يقل أي كلمة بعد. ولكن الفتى كان يدرك من قبل **لغة العالم**، وبإمكانه أن يحسَّ بذبذبة **سلامٍ** تعبر الخيمة من جهة لأخرى. وأنباه حدسه أنه أحسن فعلاً بمجيئه.

بانتهاء النقاش، سكت الجميع ليسمعوا كلام الرجل العجوز الذي التفت إلى الفتى الغريب، وكانت سماته باردة وجافة، وقال:

«قبل ألفيْ عام، وفي بلاد نائية، أُلقي في بئر رجل بيع عبداً،

وكان يؤمن بالأحلام. اشتراه تجّار من بلادنا وجاؤوا به إلى مصر. ونعرف، جميعنا، أن من يؤمن بالأحلام، يحسن، أيضاً، تفسيرها».

ردّد الفتى في سرّه، متذكّراً الغجرية العجوز: «وإن كان لا يتوصّل، دائماً، إلى تحقيقها».

تابع الرجل المسنّ:

«بفضل ما راود فرعون مصر من أحلامٍ تراءت فيها البقرات العجاف، والبقرات السمان، أنقذ ذلك الفتى مصر من المجاعة. كان اسمه يوسف، وكان مثلك، أيضاً، غريباً في بلد غريب، وعمره يقارب عمرك تقريباً».

حلَّ الصمت طويلاً. واستمرت نظرة العجوز نظرة باردة.

واستأنف قائلاً:

«إننا نتقيّد، دائماً، **بالتقليد**. **فالتقليد** أنقذ مصر من المجاعة في ذلك الزمن، وجعل من شعبها الأغنى بين الشعوب. **والتقليد** يعلّم الرجال كيف يعبرون الصحراء، وكيف يزوّجون بناتهم. ويقول **التقليد** إن أيَّ واحة هي أرض محايدة، لأن لكلا المعسكرين واحاتٍ، جميعها عرضة للأخطار».

وبينما كان العجوز يتكلّم، لم ينبس أحد ببنت شفة.

«ولكن **التقليد** يقول لنا، أيضاً، أن نصدّق رسائل الصحراء، لأن كلَّ ما نعرفه علّمتنا إيّاه الصحراء».

وبإشارة من العجوز، وقف الجميع. لقد انتهى الاجتماع. أُطفئ جمر النراجيل، وتأهّب الحرّاس، وتهيّأ الفتى لمغادرة المكان، لكن العجوز استأنف الكلام:

«غداً نُبطل مفعول الاتفاق القاضي بعدم حمل السلاح في الواحة. وأثناء النهار، ننتظر العدوّ. وعندما تميل الشمس نحو الأفق، يعيد الرجال، إليَّ، أسلحتهم. ومقابل كل عشرة قتلى من العدو، تُمنح قطعة من الذهب.

غير أن الأسلحة يجب ألَّا تخرج من مخابئها إلا لخوض المعركة، لأن الأسلحة مشاكسة كالصحراء. فإن نحن أخرجناها من دون هدف، فيمكن أن تحرن، فلا تُطلق. وإذا لم تُستخدم أي قطعة منها، غداً، فسوف تكون هناك واحدة، على الأقل، لكي تُستخدم ضِدَّك أنت».



لدى خروج الفتى من الخيمة، لم تكن الواحة مضاءة إلَّا بنور القمر. كان ينبغي له أن يسير عشرين دقيقة ليبلغ خيمته، فقفل عائداً.

بات مشوّش الذهن من كل ما جرى. شعر نفس مغموراً بروح العالم. وقد غدا من الممكن أن يكون الثمن حياته بالذات. إنه رهان كبير. ولكن رهانه كان كبيراً منذ اليوم الذي باع، فيه، خرافه ليتبع **أسطورته الشخصية**. أوَلم يقل الجمّال إن الموت، غداً، مثله مثل الموت في أي يوم آخر، وإن كل يوم يأتي إما لنحيا، وإما لنغادر هذا العالم. والأشياء جميعها تتعلق بعبارة واحدة هي: «كلّ شيء مكتوب».

تابع مسيرته صامتاً، وهو ليس بآسف لشيء. إذا مات غداً، فذلك يعني أن الله ليس راغباً بتغيير المستقبل. ولكنه يكون قد مات بعد أن عبر المضيق، وبعد أن عمل في متجر البلوريات، وعرف الصحراء وعينيْ فاطمة. لقد عاش حياة كان كلّ يوم من أيامها حافلاً، حياةً بدأت يوم غادر بلده، منذ زمن بعيد. وإذا كان لا بدَّ من موته، غداً، فإن عينيه قد شاهدتا من الأشياء أكثر مما شاهدته عيون الرعيان الآخرين بكثير، وهو فخور بذلك.

فجأة، سمع ما يشبه دويّ الرعد، ووجد نفسه مُلقىً على الأرض بفعل عاصفة هوجاء. واكتسحت المكان سحابة من الغبار كادت

تحجب ضوء القمر. ثم انتصب، أمامه، جواد أبيض، هائل الحجم، يصهل صهيلاً مخيفاً.

حاول، بصعوبة، أن يتبيَّن ما يحصل. وعندما انقشع الغبار قليلاً، شعر بخوف لم يشعر بمثله، من قبل. انتصب، قبالته، رجل على صهوة جواده، يرتدي ثياباً سوداء ويعتمر عمامة، ويعلو وجهه لثام لا تبدو منه سوى عينيه، ويجثم على كتفه اليسرى صقر. بدا كأنه رسول الصحراء، لكنه يتمتّع بحضور لا مثيل له لدى أي شخص في العالم.

استلَّ الفارس الغريب، من الغمد، السيف الطويل ذا النصل المعقوف والذي كان معلّقاً في السرج، فلمع الفولاذ تحت ضوء القمر.

سأل بصوت قوي ردَّدت صداه، كما بدا، الخمسمئة ألف نخلة في الفيّوم:

ـ من الذي تجرَّأ على قراءة تحليق الطيور؟

أجاب الفتى:

ـ أنا تجرأت.

وتراءى لعينيه في الحال تمثال مار يعقوب داحراً الأشرار تحت حوافر حصانه. كان الوضع نفسه مقلوباً. خفض رأسه ليتلقى ضربة السيف: «كثير من الأرواح سوف تنقذ لأنك تجاوزت **روح العالم**».

بيد أن السيف لم يسدّد بعنف: هبطت يد الفارس، ببطء، فلامست ذؤابة النصل جبين الفتى، وكانت الذؤابة حادّة، فسقطت نقطة دم واحدة.

كان الفارس جامداً تماماً، وكذلك الفتى. لم يفكِّر حتى بالهرب. سيطر عليه حبور نابع من أعماقه: سوف يموت من أجل **أسطورته الشخصية**، ومن أجل فاطمة. لقد صدقت الإشارات،

أخيراً. ها هو العدو، هنا. ولن يبالي بالموت، لأن هناك روحاً للعالم سيغدو، بعد قليل، جزءاً منها، وكذلك العدو.

غير أن الرجل الغريب اكتفى بإبقاء ذؤابة السيف على جبينه:

ــ لمَ قرأت تحليق الطيور؟

ــ قرأت ما كانت تريد الطيور أن ترويه، فحسب. أرادت إنقاذ الواحة. أما أنت وجماعتك، فسوف تموتون، لأن رجال الواحة أكثر عددا منكم.

كانت ذؤابة السيف، لمّا تزل على جبينه:

ــ من أنت حتى تعمل على تغيير القدر الذي خطَّه الله؟

فأجاب الفتى، متذكُراً ما قاله الجمَّال:

ــ لقد شكّل الله الجيوش، وصنع السيوف، وهو الذي أراني لغة الطيور. إن كل شيء كُتب باليد نفسها.

أخيراً، رفع الفارس سيفه، فشعر الفتى بالارتياح. ولكنه لم يكن قادراً على الهرب:

ــ إحذر التنبؤات. عندما تكون الأشياء مكتوبة، فلا مجال لتجنُّبها.

ــ لقد رأيت جيشاً، فحسب، ولم أرَ نهاية معركة.

بدا الفارس راضياً عن جوابه، ولكنه ظلّ ممسكاً بالسيف.

ــ ماذا يفعل غريب في أرض غريبة؟

ــ إنني أبحث عن **أسطورتي الشخصية**. وهذا شيء لن تستطيع فهمه إطلاقاً.

أعاد الفارس السيف إلى غمده. وأطلق الصقر، الجاثم على كتفه، صوتاً غريباً، وبدأ الفتى يستعيد هدوءه.

قال الفارس:

ـ أردت اختبار شجاعتك، الشجاعة هي الفضيلة العظمى لمن يبحث عن لغة العالم.

فوجىء الفتى. ذلك أنّ هذا الرجل يتكلَّم عن أشياء لا يعرفها سوى القليل من الناس.

استأنف الفارس: «ينبغي ألا تضعف عزيمتك، حتى لو كنت قد أنجزت هذا الشوط الكبير من السفر. ينبغي أن تحبّ الصحراء، ولكن لا تثق بها ثقة عمياء، لأنّها محكّ الرجال؛ تختبر كلّ امرئ من وقع خطواته، وتقتل من يستسلم للسهو».

أوحت كلماته بكلمات الملك العجوز.

قال الفارس أيضاً: «إذا جاء المحاربون، ولم يَطرْ رأسك، فتعال إليّ غداً بعد مغيب الشمس».

اليد ذاتها، التي حملت سيفاً، حملت سوطاً. وهاج الحصان، من جديد، مُثيراً سحابة من الغبار.

صاح الفتى بينما كان الفارس يبتعد: «أين تسكن؟».

أشارت اليد التي تحمل السوط باتجاه الجنوب.

وهكذا جرى اللقاء بين الفتى والخيميائي.



في صباح اليوم التالي، كان في الفيوم ألفا مسلَّح، توزّعوا بين أشجار النخيل. وقبل أن تبلغ الشمس أعلى مدى لها، ظهر خمسمئة محارب في الأفق. دخل الفرسان الواحة من جهة الشمال. كانت هذه الحملة، في الظاهر، حملة سلمية، ولكن الأسلحة كانت مخبّأة تحت البرانس البيضاء. وعندما بلغوا الخيمة الكبيرة، المنصوبة في وسط الساحة، أخرجوا السيوف، العريضة النصال، والبنادق، وهاجموا خيمة خالية.

طوّق رجال الواحة فرسان الصحراء. وفي غضون نصف ساعة كان هناك أربعمئة وتسع وتسعون جثة مبعثرة فوق الأرض. كان الأطفال في الجهة الأخرى من بستان النخيل، ولم يشاهدوا شيئاً، في حين كانت النسوة، داخل الخيام، يطلقن الدعوات بالنصر لأزواجهن، دون مشاهدتهن ما يجري، أيضاً. ولولا الجثث الممدَّدة في كل مكان، لبدت الواحة وكأنها تعيش يوماً عادياً.

استُثني محارب واحد من القتل، هو قائد المهاجمين الذي سيق، في المساء، ليمثل أمام زعماء القبائل الذين سألوه لماذا خرق **التقليد**. فأجاب بأن رجاله يعانون الجوع والعطش، وقد أرهقهم استمرار القتال، فقرروا الاستيلاء على أيّ واحة لكي يتمكّنوا من استئناف الحرب.

أبدى زعيم الواحة، الأعلى، أسفه لمقتل المحاربين. ولكن لا بدّ

من احترام **التقليد** في شتى الظروف. فالشيء الوحيد الذي يتغيّر في الصحراء عندما تهبُّ الرياح، إنما هو الكثبان.

ثم حكم على الزعيم المعادي بالموت على نحو مهين، فبدل أن يقتل بسلاح أبيض، أو بطلقةٍ من بندقية، جرى شنقه على جذع نخلة يابس، واستمرت جثته تترنّح في رياح الصحراء.

استدعى زعيم الواحة الفتى الغريب، وأعطاه خمسين قطعة ذهبية. ثم ذكّر، مجدّداً، بحكاية يوسف في مصر، وطلب إلى الفتى أن يكون، من الآن فصاعداً، مستشار الواحة.



عندما غابت الشمس كلّياً، وبدأت النجوم الأولى تظهر في السماء (دون أن تلمع كثيراً، لأن القمر كان بدراً)، سار الفتى جنوباً. لم يكن، هناك، سوى خيمةٍ واحدة. وبدا المكان، كما قال بعض الأعراب الذين صادف مرورهم، مسكوناً بالجن. ولكنه جلس، وانتظر وقتاً طويلاً.

ظهر الخيميائي، بعد أن كان القمر قد بلغ قبّة السماء، وعلى كتفه صقران ميّتان.

قال الفتى:

ـ هاأنذا.

أجاب الخيميائي:

ـ يجب ألَّا تكون في هذا المكان، أم أن **أسطورتك الشخصية** هي التي شاءت أن تجيء؟

ـ الحرب دائرة بين القبائل ولا يمكنني عبور الصحراء.

ترجَّل الخيميائي عن جواده، وأشار إلى الفتى أن يدخل برفقته. إنها خيمة تشبه سائر الخيام التي شاهدها في الواحة، باستثناء الخيمة الكبيرة، المركزية، التي يذكّر الترف، فيها، بحكايا الجنيّات. جال بنظره، بحثاً عن معدات وأفران خاصة بالخيمياء، ولكن لا شي من ذلك. هناك، فقط، أكوام من الكتب، وفرن للطبخ، وسجاجيد مزخرفة برسوم غامضة.

قال الخيميائي:

ـ إجلس، سأعدُّ الشاي. وسوف نأكل، معاً، هذين الصقرين.

تساءل الفتى: «هل هما الطيران اللذان شاهدهما مساء البارحة؟». لكنه لم يقل شيئاً. أشعل الخيميائي النار. وما لبثت رائحة الشواء الشهية أن انتشرت في أرجاء الخيمة، وكانت أزكى من رائحة النراجيل.

سأل الفتى:

ـ لماذا أردت أن تراني؟

ـ بسبب الإشارات. لقد أنبأتني الرياح أنك آت، وأنك في حاجة إلى المساعدة.

ـ لستُ أنا، بل الغريب الآخر. إن الإنكليزي هو من كان يبحث عنك.

ـ يجب أن يجد أشياء أخرى، قبل أن يجدني. لكنه بات على الدرب الصحيح، لقد بدأ يتأمّل الصحراء.

ـ وأنا؟

قال الخيميائي مردّداً كلام الملك العجوز:

ـ عندما نحلم بشيء، فإن الكون بأسره يطاوعنا على تحقيق حلمنا.

فهم الفتى ما رمى إليه محدّثه. فهذا شخص آخر، وجد على طريقه، لكي يقوده حتى يبلغ **أسطورته الشخصية**.

ـ سوف تعلّمني، إذن؟

ـ لا. إنك تعرف، مسبقاً، كل ما ينبغي أن يُعرف. أودُّ، فقط، أن أضعك على الدرب المتّجه إلى كنزك.

كرّر الفتى:

ـ هناك الحرب بين القبائل.

ـ لكنني أعرف الصحراء.

ــ لقد وجدت كنزي: لديَّ جمل، ومال متجر البلوريات، وخمسون قطعة ذهبية. سأكون رجلاً ثرياً في بلادي.

ــ لكن أيًّا ممّا ذكرته ليس قريباً من الأهرامات.

ــ لديَّ فاطمة. إنها الكنز الأعظم بين كلّ ما حصلت عليه.

ــ وهي، أيضاً، ليست قرب الأهرامات.

أكلا الصقرين بصمت. فتح الخيميائي قنينة وسكب منها سائلاً أحمر اللون في كأس ضيفه. كان السائل نبيذاً من أجود أصناف النبيذ الذي لم يذق مثيلاً له. ولكن النبيذ محرّم شرعاً.

قال الخيميائي: «ليس الشرُّ في ما يدخل فم الإنسان، بل هو في ما يخرج منه».

بدأ الفتى، مع الشرب، يشعر أن حاله تتحسّن. بيد أن الخيميائي كان يخيفه قليلاً. خرجا وجلسا خارج الخيمة، يتأمّلان ضوء القمر الذي كسف ضوء النجوم.

قال الخيميائي، ملاحظاً أن الفتى يغدو نشوان، أكثر فأكثر:

«اشرب واستمتع، قليلاً، بوقتك. استرحْ مثلما يستريح المحارب قبل خوض المعركة. لكن، لا تنس أنه حيث يكون قلبك يكون كنزك. ينبغي أن تعثر على كنزك، وإلّا يغدو كلّ ما اكتشفته في رحلتك بلا معنى.

«غداً، بعْ جملك واشترِ جواداً، لأن الجمال خائنة: فهي تسير آلاف الخطى، دون أن تبدي أيَّ إشارة تدل على تعبها. ثم تقع، فجأة، على ركبتيها وتنفق. أما الجياد، فهي تتعب تدريجاً. وتعرف دائماً طاقتها، واللحظة التي تموت فيها».



بلغ الفتى خيمة الكيميائي، مساءَ اليوم التالي، وكان يمتطي حصاناً. انتظر قليلاً، ثم أطل الخيميائي على صهوة حصانه، أيضاً، والصقر جاثم على كتفه اليسرى.

وقال:

«أرني الحياة في الصحراء. إن من يستطيع أن يجد فيها الحياة، هو وحده الذي يستطيع أن يجد فيها كنوزاً، أيضاً».

انطلقا فوق الرمال، تغمرهما أشعة القمر. ردّد الفتى في سرّه: «لست أدري: هل أنجح في العثور على الحياة في الصحراء؟ فأنا لا أعرف الصحراء بعد».

أراد أن يلتفت، ليعبّر عن هذه الفكرة للخيميائي، ولكنه كان خائفاً منه.

وصلا إلى المكان، الكثير الحصى، الذي شاهد فيه الصقرين يحلّقان، والذي بات، الآن، صمتاً ورياحاً.

قال الفتى:

ــ لن أتمكّن من لقاء الحياة في الصحراء. أعرف أنها موجودة، لكنني لا أعثر عليها.

ــ الحياة تجذب الحياة.

وأدرك الفتى ما رمى إليه الخيميائي. وأطلق، على الفور، العنان لحصانه الذي راح، عندئذ، يخبُّ على هواه، وسط الحجارة والرمال.

تبعه الخيميائي، صامتاً. وتابع حصان الفتى تقدُّمه، على هذا النحو، مدّة نصف ساعة. لم يعد بإمكان الرجلين أن يشاهدا أشجار النخيل في الواحة. لا شيء سوى ضوء السماء المذهل، والحجارة التي يجعلها الضوء تلمع مثل الفضة. انتبه الفتى إلى أن حصانه قد توقّف، في مكان، لم يكن يعرفه من قبل.

قال للخيميائي:

«هنا، توجد الحياة. لا أعرف لغة الصحراء، ولكن حصاني يعرف لغة الحياة».

ترجَّلا. لم يقل الخيميائي شيئاً، بل أخذ ينظر إلى الحجارة، وهو يتقدّم ببطء. ثم توقّف، فجأة، وانحنى بحذر شديد. ثمَّة ثقب في الأرض، بين الصخور، أدخل الخيميائي يده، ثم ذراعه حتى الكتف. تحرك شيء ما في عُمق الثقب، واكفهرَّت عينا الخيميائي (لم يكن الفتى يرى سوى عينيه) ما يدلُّ على الجهد الكبير الذي كان يبذله. وبدت ذراعه في حالة صراع مع ما بداخل الثقب. وبقفزة سريعة، أخافت مرافقه، سحب الخيميائي ذراعه ونهض واقفاً على الفور، وهو يمسك بأفعى من ذنبها.

قفز الفتى، بدوره، إلى الوراء. كانت الأفعى تتلوّى بعنف، مع فحيح وصفير قطعا سكون الصحراء. إنها من أفاعي «الكوبرا»، التي يقتل سمّها في دقائق قليلة.

ردّد الفتى في سرّه: «انتبه إلى السمّ». لكن الخيميائي الذي أدخل يده في الثقب قد تعرّض، مسبقاً، لعضة الأفعى. مع ذلك فإن سماته بدت هادئة تماماً. وسبق للإنكليزي أن أخبره أن الخيميائي يبلغ من العمر مئتيْ سنة. ولا بدَّ أنَّه يعرف كيف يتصرَّف مع أفاعي الصحراء.

شاهد الفتى مرافقه يعود إلى حصانه، ويستلّ سيفه الطويل المقوَّس كهلال، ويرسم به دائرة في الرمل، ويضع الأفعى وسطها، لتجمد حركتها على الفور.

قال الخيميائي:

ــ لا تقلق، لن تخرج من هنا. لقد اكتشفت الحياة في الصحراء، والإشارة التي أحتاج إليها.

ــ لماذا ترى الأمر بهذه الأهمية؟

ــ لأن الأهرامات تقع وسط الصحراء.

لم يكن الفتى راغباً في سماع كلامٍ عن الأهرامات. كان قلبه حزيناً ومثقلاً بالهموم منذ ليلة أمس. ذلك أن متابعته البحث عن الكنز تعني، في الواقع، التخلّي عن فاطمة.

عندئذٍ قال الخيميائي:

ــ سأكون دليلك في الصحراء.

ــ أريد أن أبقى في الواحة. لقد التقيت فاطمة. وهي، في نظري، أثمن من أي كنز.

ــ إن فاطمة فتاة من الصحراء، وهي تعرف أن على الرجال أن يرحلوا ليعودوا. لقد وجدت فاطمة كنزها الذي ليس سوى أنت. وهي تنتظر، الآن، منك أن تجد ما تبحث عنه.

ــ وإذا قرّرت البقاء؟

ــ «تكون مستشاراً للواحة، ويكون لديك ما يكفي من الذهب لكي تشتري عدداً كبيراً من الخراف والجمال، وتتزوّج من فاطمة. وتعيشان سعيدين في السنة الأولى. وتتعلّم أن تحب الصحراء. وتعرف الخمسين ألف نخلة، واحدة واحدة، وتفهم كيف تنمو بحيث تريك عالماً يتغيّر باستمرار. عند ذلك، سوف تفكّ رموز الإشارات على نحو أفضل، لأن الصحراء معلّم يفوق كلّ معلّم.

«وفي السنة الثانية، تتذكّر موضوع الكنز، وتلحّ الإشارات بمخاطبتك. وتحاول أنت ألّا تأبه لها؛ وتستخدم معرفتك لخير الواحة وسكانها، فحسب. ويجمع زعماء القبائل على تقديرك ومراعاة رغباتك، وتأتيك جِمالك بالثروة والسلطة.

«في السنة الثالثة، تستمر الإشارات في الكلام عن كنزك وعن **أسطورتك الشخصية**، فتقضي أنت لياليك تائهاً في الواحة. وتغدو فاطمة امرأة حزينة لأنها كانت السبب في توقّف مسيرتك. ولكنك تستمر في حبّها، ويكون هذا الحب مُتبادلاً بينكما؛ وسوف تتذكّر أنها لم تطلب إليك، إطلاقاً، البقاء، لأن امرأة الصحراء تعرف أن تنتظر عودة زوجها، لذلك لن تحقد عليها. لكنك ستسير الليالي في رمال الصحراء، عابراً أشجار النخيل، وأنت تفكّر أنه ربما كان ينبغي لك أن تتابع الطريق، وأن تكون أكثر ثقة بحبك لفاطمة، لأن ما حملك على البقاء في الواحة، هو، فقط، خوفك من ألّا تعود إليها أبداً. وعندما تغدو هناك، سوف تخبرك الإشارات أن كنزك مدفون تحت الأرض إلى الأبد.

«في السنة الرابعة، تتخلّى عنك الإشارات، لأنك لم تشأ الإنصات إليها. وبما أن زعماء القبائل سيدركون ذلك، فسوف يعزلونك من مهمتك الاستشارية؛ وتصبح، عندئذٍ، تاجراً غنياً تملك العديد من الجمال، والكثير من البضائع. ولكنك تقضي بقية أيامك هائماً بين أشجار النخيل والصحراء، مدركاً أنك لم تنجز **أسطورتك الشخصية**، وأن الوقت قد فات لاستدراك ذلك.

«ولن تعرف، في مطلق الأحوال، أن الحبّ لا يمنع رجلاً من متابعة **أسطورته الشخصية**. لكن إذا حصل ذلك، فلأن هذا الحب ليس بالحب الحقيقي الذي يتكلّم **لغة العالم**».

محا الخيميائي الدائرة التي خطّها على الرمل، فهربت الأفعى واختفت بين الحجارة.

فكّر الفتى بتاجر البلوريات الذي كان يرغب، على الدوام، أن يزور مكة؛ وبالإنكليزي الذي كان يبحث عن خيميائي. كما

فكَّر بالمرأة التي تثق بالصحراء، والتي جاءتها الصحراء، ذات يوم، بالرجل الذي كانت تشتهي أن تحبّه.

امتطيا حصانيهما، وكان الفتى هو من يتبع الخيميائي، هذه المرة. كانت الريح تحمل أصوات الواحة، فحاول أن يتبيّن، بينها، صوت فاطمة. لم يتمكّن، هذا اليوم، من ارتياد البئر بسبب القتال.

ولكن، في هذه الليلة، وبينما كانا ينظران إلى الأفعى المطوَّقة بالدائرة، تحدَّث الفارس الغريب، وصقره جاثم على كتفه، عن الحب، والكنوز، ونساء الصحراء، وعن **أسطورته الشخصية**.

قال الفتى: «سأذهب معك». وشعر، على الفور، بالاطمئنان يغمر قلبه.

«سنذهب غداً قبل شروق الشمس».

وكان ذلك جواب الخيميائي الوحيد.



لم يغمض للفتى جفن تلك الليلة. أيقظ، قبل الفجر بساعتين، أحد الغلمان الذين ينامون في الخيمة نفسها، وطلب إليه أن يدلّه على المكان الذي تسكن فيه فاطمة. خرجا معاً، وتوجَّها إليه. ونقد الدليل، مقابل ذلك، ما يمكّنه من شراء نعجة.

ثم توسَّل إليه أن يهتدي إلى المكان الذي تنام فيه الفتاة، وأن يوقظها. لبّى الغلام طلبه، فأعطاه الفتى الأجر الكافي لشراء نعجة ثانية.

وقال له: «والآن، دعنا وحيدين»، فتوجَّه الغلام إلى خيمته ليعاود النوم، وهو فخور بمساعدته لمستشار الواحة، ومسرور جداً لحصوله على ما يشتري به غنماً.

ظهرت فاطمة عند باب الخيمة. فسارا، معاً، بين أشجار النخيل. كان يدرك أن ما يفعله منافٍ **للتقليد**. ولكن لم يكن لهذا الأمر من أهمية، الآن.

قال لها: «سأرحل، وأودّ أن تعلمي أنني عائد، أحبك لأن...».

فقاطعته:

ـ لا تقل شيئاً، إننا نحب لأننا نحب. ليس هناك أيُّ سبب للحُب.

ولكن الفتى، مع ذلك، تابع قائلاً:

ـ أحبّك لأنني رأيتُ حلماً، وقابلت ملكاً، وبعت أواني بلورية، وعبرت صحراء نشب قتال بين قبائلها، وجئت إلى مكان قريب من

بئر لأستدل على مسكن خيميائي. أحبّك، لأن الكون بأسره تواطأ معي لأصل.

تعانقا. إنها المرة الأولى التي تلامس فيها جسداهما.

قال الفتى:

ــ سوف أعود.

ــ من قبل، كانت تتحرّك في أعماقي رغبة، كلّما نظرت إلى الصحراء. أما الآن، فسأغدو امرأةً ملؤها الأمل. لقد رحل أبي، ذات يوم، ولكنه عاد، بعد ذلك، إلى أمي، وما زال يعود باستمرار.

لم يقولا شيئاً آخر. سارا، قليلاً، بين أشجار النخيل، ثم رافقها حتى مدخل خيمتها.

قال لها: «سوف أعود مثلما عاد أبوك إلى أمك».

لاحظ أن عينَيْ فاطمة تدمعان.

ــ أتبكين؟

أجابت، وهي تخبئ وجهها:

ــ إنني امرأة من الصحراء، ولكنّني، امرأة قبل كلّ شيء.

دخلت فاطمة خيمتها. بعد قليل تشرق الشمس. ومع بداية النهار ستخرج لتقوم بما تعوّدت القيام به، منذ سنوات؛ ولكن كل شيء قد تغيَّر. لم يعد الفتى في الواحة. ففقدت الواحة الدلالة التي كانت لها، قبل الآن، بل قبل برهة. ولن يكون هذا المكان، هو نفسه المكان الذي يضم الخمسين ألف شجرة نخيل، والثلاثمئة بئر، والذي كان الحجّاج يشعرون بالسعادة لدى وصولهم إليه، بعد سفر طويل. إن الواحة ستغدو بدءاً من هذا اليوم، مكاناً موحشاً في نظرها.

وبدءاً من هذا اليوم، ستصبح الصحراء أكثر أهمية من الواحة.

سوف تقضي وقتها تتأمّل الصحراء، وتتساءل بأيٍّ نجمة يستهدي الفتى في البحث عن الكنز. وسوف تبعث إليه بقبلاتها على أجنحة الرياح، آملة أن تلمس الرياح وجهه، وتخبره أنها ما تزال قيد الحياة، وأنها تنتظره كما تنتظر أيُّ امرأة رجلها الشجاع الذي يدأب في البحث عن الأحلام والكنوز.

منذ ذلك اليوم، لم تعد الصحراء تعني لها إلا شيئاً واحداً: الأمل بعودته.



ما إن امتطى كلٌّ منهما صهوة جواده، وبدءا المسير فوق رمال الصحراء، حتى بادر الخيميائي إلى القول:

ـ لا تفكّر أبداً بما تركته وراءك، كلّ شيء محفور في **روح العالم**، وفيها يبقى إلى الأبد.

قال الفتى، الذي ألِف صمت الصحراء:

ـ إن البشر يحلمون بالعودة، أكثر مما يحلمون بالرحيل.

ـ إذا كان ما وجدته مصوغاً من مادة نقيّة، فلن يبلى إطلاقاً، وتقدر أن تعود إليه ذات يوم. وإذا لم يكن سوى ومضة ضوء، مثل انفجار كوكب، فلن تجد، عندئذ، شيئاً لدى عودتك. ولكنك تكون قد رأيت انفجاراً ضوئياً. وهنا، وحده، يستحق عناء أن نعيش.

كان الرجل يتكلّم لغة الخيمياء. ولكن رفيق دربه كان يدرك أنه يُلمِح، بكلامه، إلى فاطمة.

لم يكن سهلاً ألّا يفكر بورائه. فالصحراء، التي غالباً ما تتشابه مناظرها، لا تني تطفح بالأحلام. كان الفتى لا يزال يرى أشجار النخيل والآبار ووجه الحبيبة، وكان يرى الإنكليزي ومختبره، والجمّال الذي كان معلّماً دون أن يعرف ذلك. وردّد في سره: «لعلّ الخيميائي لم يعرف الحبّ يوماً».

كان الخيميائي يسير في المقدّمة، والصقر على كتفه. إن

الصقر يتقن، جيداً، لغة الصحراء. وكان، عندما يتوقّفان عن السير، يبرح كتف الخيميائي، ويطير بحثاً عن الطعام. جاء، في اليوم الأول، بأرنب، وفي اليوم التالي، بعصفورين.

في المساء، كانا يبسطان غطاءيهما على الأرض، دون أن يوقدا ناراً. وليالي الصحراء باردة جداً، وتشتدّ ظلمتها كلما تناقص القمر في قبة السماء. سارا، أسبوعاً كاملاً، دون أن يتبادلا الحديث إلّا عن الاحتياطات الضرورية لتجنّب الوقوع في وسط المعارك. ذلك أن حرب القبائل كانت مستمرة، وكانت الريح تحمل، أحياناً، رائحة دم خفيفة. فقد نشبت معركة في الجوار، وذكّرت الريحُ الفتى بوجود **لغة الإشارات**، المتأهبة، على الدوام، لتريه ما لا تستطيع عيناه أن ترياه.

في اليوم السابع من الرحلة، قرّر الخيميائي أن يخيّم قبل الوقت المعهود. انطلق الصقر للبحث عن طريدة، وأخرج الخيميائي قِربة الماء، وقدّمها إلى الفتى.

وقال:

ــ ها أنت توشك على بلوغ نهاية رحلتك. لقد لاحقت **أسطورتك الشخصية**: أهنئك على ذلك.

ــ لكنّك ترشدني دون أن تقول شيئاً. لقد اعتقدت أنك ستلقّنني ما تعرفه. منذ وقتٍ، كنتُ في الصحراء، برفقة رجل يملك كتباً في الخيمياء، لكنني لم أفد منها.

ــ ثمّة طريقة واحدة للمعرفة، هي العمل. إن كل ما كنت في حاجة إلى معرفته، علّمك إيّاه السفر. لم يبقَ إلا شيء واحد.

أراد الفتى أن يعرف ما هو ذلك الشيء، إلّا أن الخيميائي ظلّ محدّقاً إلى الأفق، يترقّب عودة الصقر.

ــ لماذا يسمّونك الخيميائي؟

ــ لأنني كذلك.

ـ ما الذي كان يعرقل عمل مختلف الخيميائيين الذين يبحثون عن الذهب، فانتهى بهم الأمر إلى الفشل؟

ـ اكتفاؤهم بالبحث عن الذهب. كانوا يبحثون عن كنز **أسطورتهم الشخصية**، ولم يرغبوا في أن يعيشوا الأسطورة بالذات.

ألح الفتى:

ـ ما الذي ينقصني، أيضاً، على صعيد المعرفة؟

ولكن الخيميائي تابع التحديق إلى الأفق. عاد الصقر، بعد لحظات، يحمل فريسةً. حفرا حفرة في الرمل، وأوقدا النار فيها، لئلّا يرى أحد لهبها.

قال الخيميائي، بينما كانا يحضّران وجبة الطعام:

ـ أنا خيميائي لأنني خيميائي. اقتبست هذا العلم عن أجدادي الذين اقتبسوه عن أجدادهم، وهكذا، دواليك، منذ خَلْق العالم. وكان من الممكن، في ذلك الزمن، أن يُكتب علم **الإنجاز العظيم** على زمردة بسيطة، ولكن البشر لم يولوا الأشياء البسيطة أي أهمية، بل راحوا يدوّنون الأبحاث، والشروح، والدراسات الفلسفية، وبدأوا يزعمون، أيضاً، أنهم عرفوا النهج أفضل من سواهم.

ـ ما الذي كان مدوَّناً على **لوح الزمرد**؟

انصرف الخيميائي، عندئذ، إلى الرسم على الرمل. لم يستغرق هذا العمل سوى خمس دقائق. وبينما كان يرسم، تذكّر الفتى الملك العجوز، والمكان الذي التقيا فيه. بدا ذلك وكأنه حدث منذ سنوات وسنوات.

قال الخيميائي، عندما انتهى من الرسم: «هذا ما كان مكتوباً على **لوح الزمرد**».

اقترب الفتى، وقرأ ما كتب على الرمل.

قال، وقد اعتراه شيء من الخيبة:

ـ هذا رمزٌ من **لوح الزمرُّد**، لكأنه يشبه ما رأيته في كتب الإنكليزي.

ـ «لا، إنه يشبه تحليق الصقور؛ ويجب ألَّا يُفهم بالمنطق وحده. إن **لوح الزمرُّد** هو ممرٌّ مباشر نحو **روح العالم**.

لقد فهم الحكماء أن هذا العالم الطبيعي ليس سوى صورة، بل نسخة عن الجنّة. وبما أنه قائم، فلا بُدَّ أن يكون هناك عالم أكثر كمالاً منه. وقد خلقه الله ليتمكّن البشر، بواسطة الأشياء المرئية، أن يفهموا تعاليمه الروحية وروائع حكمته. وهذا ما أسميه **العمل**».

ـ هل ينبغي لي أن أعرف **لوح الزمرُّد**؟

ـ لو أنك في مختبر للخيمياء، لكان هذا الوقت هو الوقت الأنسب كي تدرس الطريقة الفضلى لفهم **لوح الزمرُّد**. ولكنك في الصحراء. فتوغَّل فيها إذن: إنها تساعد على فهم العالم أكثر من أيّ شيء آخر على وجه الأرض، ولن تكون في حاجة إلى فهم الصحراء: يكفي أن تتأمّل حبّة رمل واحدة، لكي ترى فيها كل عظمة الخلق.

ـ ما الذي يجب أن أفعله لأتوغّل في صميم الصحراء؟

ـ أنصِتْ إلى قلبك، فهو يعرف كل شيء، لأنه يأتي من **روح العالم**، وسوف يعود إليها يوماً.



تابعا السير، بصمت، يومين آخرين. بدا الخيميائي أكثر حذراً، لأنهما كانا يقتربان من منطقة المعارك الأشدّ عنفاً. وكان الفتى حريصاً على الإنصات إلى قلبه.

إنه قلب يصعب سماعه. كان، من قبل، دائم الاستعداد، للرحيل. وهو الآن، يريد، أن يصل بأيّ ثمن. كان قلبه، بعض الأحيان، يستغرق، طويلاً، في رواية حكايات عن الحنين، ويختلج أحياناً أخرى لدى شروق الشمس في الصحراء، فيحمل الفتى على البكاء خفيةً، وكان يسرع في الخفقان، عندما يحدّثه عن الكنز، ويتباطأ، عندما تضيع عينا الفتى في أفق الصحراء اللامتناهي. ولكنه لا يسكت إطلاقاً، حتى وإن كان الفتى لا يتبادل، مع الخيميائي، كلمة واحدة.

سأل، لدى توقّفهما، ذلك المساء، للاستراحة:

ـ لمَ يتوجب علينا الإصغاء إلى قلوبنا.

ـ لأنه: حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك.

ـ إن قلبي مضطرب. إنه يحلم، ويقلق. وهو مغرم بفتاة الصحراء، يسألني عن أشياء كثيرة، ويحرمني الرقاد لليالٍ، عندما أفكّر بمن أحب.

ـ هذا مؤشر جيد، يدلّ على أن قلبك حيٌّ. استمرّ في الإصغاء إلى ما يفضي به.

خلال الأيام الثلاثة التالية، التقيا العديد من المحاربين، وشاهدا

كثيرين سواهم في البعيد. لذلك بدأ قلب الفتى يتحدَّث بالخوف. كان يروي له حكاياتٍ سبق أن سمعها من **روح العالم**، حكاياتٍ عن رجال ذهبوا للبحث عن كنوزهم دون أن يجدوها. وكان يُخيفه، أحياناً، من فكرة إخفاقه، هو أيضاً، في الوصول إلى كنزه، أو ملاقاته الموت في الصحراء، أو يقول له إنه بات الآن راضياً، وأنه وجد حُبّاً، وكسب قطعاً عديدة من الذهب.

قال الفتى للخيميائي، عندما توقّفا ليريحا حصانيهما قليلاً:

ــ قلبي خائن، فهو لا يريدني أن أستمر.

ــ حسناً، هذا دليل على أن قلبك حيٌّ. من الطبيعي أن نخاف من أن نستبدل بكلّ نجاحاتنا السابقة حلماً.

ــ لمَ يتوجَّب عليَّ، إذن، الإصغاء إلى قلبي؟

ــ لأنك لن تتمكّن، إطلاقاً، من إسكاته. حتى وإن تظاهرت بعدم الإصغاء إلى ما يقوله لك، فإنه ماثل، هنا، في صدرك. ولن يكفَّ عن تكرار أفكاره عن الحياة والعالم.

ــ حتى وإن كان خائناً؟

ــ إن الخيانة هي الضربة التي لم تكن تتوقّعها. إذا كنت تعرف قلبك جيداً، فلن يقدم، إطلاقاً، على مفاجأتك على هذا النحو، لأنك تدرك أحلامه ورغباته، وتعرف كيف تهتمّ بها. لا أحد يستطيع الهروب من قلبه. لذلك ينبغي الإصغاء إلى ما يقوله، لئلّا يتمكن من توجيه ضربته إليك من حيث لا تدري.

مضى الفتى، إذن، في الإصغاء إلى قلبه، طوال سيرهما في الصحراء. وتوصَّل إلى معرفة مكائده ومناوراته. وانتهى به الأمر إلى قبوله كما هو. وكفّ، عندئذ، عن الاستسلام للخوف، وعن الرغبة في العودة على عقبيه، لأن قلبه أخبره، ذات مساء، بأنه مسرور، وأسرّ إليه قائلاً: «إذا شكوْتُ قليلاً، فلأنني لست سوى قلب إنسان.

وهكذا هي قلوب الناس، تخاف من تحقيق أحلامها الكبرى، لأنها تعتقد أنها لا تستحقّ بلوغها، أو أنها فعلاً لا تقدر على بلوغها. إننا نموت، نحن القلوب، خوفاً من حالات الحب الذي ولّى إلى الأبد، ومن الأوقات التي كان يمكن أن تكون أوقاتاً رائعة، ومن تلك التي ليست كذلك، ومن الكنوز التي كان يمكن اكتشافها، ولكنها ظلّت، إلى الأبد، مدفونة في الرمال، لأننا، متى حصل ذلك، نتألّم كثيراً من هول المعاناة التي تسبق النهاية».

ذات ليلة، قال الفتى للخيميائي، وهما يتأملان سماء لا قمر فيها:

ـــ إن قلبي يخاف أن يتألّم.

ـــ قلْ له إن الخوف من الألم هو أكثر سوءاً من الألم ذاته. وما من قلب يعاني الألم وهو يلاحق أحلامه، لأن كل لحظة سعي هي لحظة لقاء مع الله ومع الأبدية.

فقال الفتى لقلبه:

«إن كل لحظة سعي هي لحظة لقاء. عندما كنت أبحث عن كنزي، كانت الأيام، جميعها، أياماً مشرقة، لأنني كنت أعلم أن كل ساعة تشكّل جزءاً من الحلم بالعثور عليه. وعندما كنت أبحث عن كنزي، اكتشفت، في طريقي، أشياء لم أكن أحلم، إطلاقاً، بأن ألتقيها، لو لم تكن لدي الشجاعة كي أجرّب ما استحال على الرعاة».

عصر ذلك اليوم، وإثر ذاك الحديث، استقر قلبه على حالة من الطمأنينة، ونام ليلته بارتياح. وعندما استيقظ، بدأ قلبه يحدّثه عن أشياء تتعلّق **بروح العالم**. قال له: «إن الإنسان السعيد هو من يحمل الله في أعماقه. ويمكن أن توجد السعادة في حبّة رمل من رمال الصحراء، كما قال الخيميائي، لأن حبّة الرملِ هي لحظة خلقٍ، ولأن الكون قد استغرق ملايين السنين لخلقها.

«إن لكلّ إنسان على وجه البسيطة كنزاً ينتظره. ونحن، القلوب، نادراً ما نتحدّث عن ذلك، لأن الناس لا يريدون اكتشافها دائماً. لا نتحدّث عنها إلا للأطفال. وبعد ذلك، ندع الحياة تقود كلّ امرئ نحو مصيره. من المؤسف أن القليل من الناس يتبعون الطريق المرسومة لهم، طريق **الأسطورة الشخصية** والسعادة. إن غالبية الناس يرون أن العالم يشكّل خَطَراً. ولهذا السبب، بالذات، يغدو العالم، بالفعل، خَطِراً. عندئذ نلجأ، نحن القلوب، إلى الكلام بصوت ينخفض شيئاً فشيئاً، لكننا لا نسكت إطلاقاً. ونتمنّى ألّا يكون كلامنا مسموعاً، لأننا لا نريد أن يتألم الناس إذا لم يسلكوا الطريق التي أشرنا عليهم بسلوكها.

سأل الفتى الخيميائي:

ـ لمَ لا تقول القلوب لأصحابها أن من واجبهم متابعة أحلامهم؟

ـ لأن القلب، في هذه الحالة، هو الذي يتألّم أكثر، والقلوب لا تهوى الألم.

منذ ذلك اليوم، بدأ الفتى يصغي إلى قلبه. وطلب إليه ألّا يتخلّى عنه أبداً. كما طلب إليه أن ينقبض، داخل صدره، عندما يغدو بعيداً عن أحلامه، وأن ينذره، وأقسم أنه، في كل مرة يسمع فيها إشارة الإنذار، سوف يأخذ حذره.

تكلَّم، خلال تلك الليلة، مع الخيميائي، عن كل هذه الأمور. فأدرك الخيميائي أن الفتى قد عاد إلى **روح العالم**.

سأله الفتى:

ـ ماذا ينبغي أن أفعل، الآن؟

ـ تابع سيرك باتجاه الأهرامات. وانتبه، دائماً، إلى الإشارات. لقد أصبح قلبك قادراً، الآن، أن يريك كنزك.

ـ أهذا هو الأمر، إذن، الذي كنت أجهله حتى الآن؟

ـ لا، إن ما ينبغي لك أن تعرفه أيضاً هو ما سأقوله لك:

«إن **روح العالم**، قبل أن تُحقِّق حلماً، تريد أن تقيِّم، دائماً، ما تعلمناه أثناء مسيرنا. وإذا كانت تتصرّف على هذا النحو، فليس بدافع أذيّتنا، بل لنتعلّم، مع أحلامنا في آن، الإفادة من الدروس التي نتعلّمها في طريقنا إلى تحقيق ذلك الحلم؛ وتلك هي اللحظة التي يتخلّى فيها معظم الناس عن حلمهم. وهذا ما نسميه، في لغة الصحراء: الموت عطشاً، عندما تكون نخلات الواحة باديةً في الأفق.

«إن أيّ مسعى يبدأ، دائماً، **بحظ المبتدىء**؛ وينتهي، دائماً، **باختبار المقتحِم**».

تذكّر الفتى مثلاً قديماً، من بلاده، يقول إن الساعة الأكثر ظلمة هي الساعة التي تسبق شروق الشمس.



ظهرت أول إشارة خطر ملموسة في اليوم التالي، فقد أطلَّ ثلاثة محاربين، واقتربوا من الرجلين، وسألوهما عمّا يفعلانه هنا.

قال الخيميائي:

ــ جئت أصطاد مع صقري.

فقال أحد المحاربين:

ــ يجب أن نفتّشكما لنرى ما إذا كنتما تحملان سلاحاً.

ترجَّل الخيميائي عن حصانه، بهدوء، وكذلك فعل رفيقه.

سأل المحارب لدى مشاهدته نقود الفتى:

ــ لمَ هذا المبلغ الكبير من المال؟

أجاب الفتى:

ــ لكي أذهب إلى مصر.

وجد المحارب، الذي فتش الخيميائي، قارورة صغيرة من الكريستال مليئة بسائل ما، وبيضة من زجاج، صفراء اللون، لا تكاد تزيد كثيراً على حجم بيضة الدجاجة.

سأله:

ــ ما هي هذه الأشياء؟

ــ إنها حجر الفلاسفة، وإكسير الحياة، وهما **الإنجاز العظيم** للخيميائيين. من يشرب من هذا الإكسير، لا يُصاب بمرض البتّة، وقطعة صغيرة من هذا الحجر تحوّل أيَّ معدن، من المعادن، ذهباً.

انفجر المحاربون الثلاثة ضاحكين، وشاركهم الخيميائي الضحك.

لقد وجدوا الإجابة مضحكة جداً، وتركوا الرجلين يذهبان دون مضايقة، مع كلّ ما يحملان.

عمد الفتى، عندما ابتعدا قليلاً، إلى سؤال الخيميائي:

ــ أمجنون أنت؟ لمَ أجبت هكذا؟

ــ لكي أريك، من قوانين العالم، قانوناً بسيطاً جداً: عندما تقع كنوز كبيرة أمام عيوننا، فإننا لا نتبيَّنها، أوتعلم لماذا؟ لأن الناس لا يؤمنون بوجودها.

تابعا سيرهما في الصحراء. وبقدْرِ ما كانت الأيام تمرُّ، كان قلب الفتى يغرق في الصمت أكثر فأكثر؛ لم يكن يهتم قطّ بأمور الماضي أو المستقبل، بل كان يكتفي بأن يتأمّل، هو أيضاً، الصحراء، وأن ينهل، مع صاحبه الفتى، من **روح العالم**. لقد غدا وقلبه صديقين حميمين جداً، غير قادرين على أن يخون أحدهما الآخر.

عندما كان القلب يتكلّم، فلكي يحثَّ الفتى ويشجّعه، لا سيّما وأن الفتى كان يجد أيام الصمت الطويلة مملَّة، أحياناً، على نحو رهيب. ولأول مرة، حدَّثه قلبه عن مزاياه الكبيرة: الشجاعة التي أبداها يوم تخلَّى عن أغنامه، ومعايشة **أسطورته الشخصية**؛ ثم الحماسة التي تجلَّت عنده في متجر البلوريات.

وقال له، أيضاً، شيئاً آخر، لم يكن الفتى قد لاحظه من قبل، وهو الأخطار التي قاربته دون أن يدركها: يوم خبَّأ المسدس الذي سرقه من والده وكاد يلحق الأذى بنفسه؛ ويوم ألّمت به حالة من الإعياء؛ ويوم كان متوغّلاً في الريف، فتقيّأ، ونام وقتاً طويلاً، بينما كان، هناك، لصّان، في الجوار، يتربَّصان به لسرقة أغنامه وقتله، ولكن عدم وصوله، في الوقت المتوقّع، جعلهما ينصرفان، اعتقاداً منهما بأنه غيَّر خط سيره المعهود.

ثم عمد إلى سؤال الخيميائي:

ــ هل تساعد القلوبُ الناسَ دائماً؟

ـ تساعد، فقط، أولئك الذين يعيشون **أسطورتهم الشخصية**، ولكنها تساعد، كثيراً، الأطفال والسكارى والطاعنين في السن.

ـ أيعني هذا أنْ ليس للخطر وجود، إذن؟

ـ يعني، ببساطة، أن القلوب تفعل ما بوسعها.

كانا يعبران، ذات مساء، مخيّم أحد الفرقاء المتحاربين. وأبصرا العديد من العرب ينتشرون في كل مكان، وهم يرتدون الزيَّ الأبيض اللافت، وأسلحتهم مهيأة للقتال. كان الرجال يدخنون النراجيل، ويثرثرون. وكانت أخبار المعارك محور أحاديثهم. ولم يلفت المسافران انتباه أحد منهم.

قال الفتى عندما ابتعدا قليلاً:

ـ لا وجود لأي خطر.

فردّ الخيميائي غاضباً:

ـ ثِق بقلبك، ولكن إيّاك أن تنسى أنك في الصحراء. عندما يكون الناس في حالة حرب، فإن **روح العالم** تسمع، هي أيضاً، صيحات القتال. لا أحد بمنأى عن نتائج ما يجري تحت السماء.

أسرّ الشاب إلى نفسه: «ليس الكلّ إلاّ واحداً أحداً».

وكما لو أنَّ الصحراء أرادت أن تثبت أن الخيميائي على حقّ؛ فقد ظهر فارسان، فجأة، وراء المسافرَين.

قال أحدهما: «لا يمكنكما الذهاب، بعيداً، فأنتما، هنا، وسط ساحة المعارك».

قال الخيميائي، وهو يحدّق، مباشرة، إلى عيون الفارسيْن:

ـ لن أمضيَ بعيداً.

ظلّ صامتين، للحظات قليلة، ثم اتفقا على استئناف السير. وقد لاحظ الفتى المشهد المذهل، بكامله.

وقال:

ـ لقد سيطرت عليهما بنظرتك.

ـ العيون تعكس قوة الروح.

ظنّ الفتى أن ما قاله الخيميائي صحيح. ولاحظ أن رجلاً، كان بين جنود المخيم، قد ركَّز نظره على الخيميائي، وعليه بالذات، إلا أنه كان بعيداً إلى درجة لم يتمكن معها من تمييز قسماته بوضوح. ولكنه كان على يقين أن ذلك الرجل يراقبهما.

أخيراً، وبينما كانا على وشك أن اجتياز سلسلة جبال تمتد على طول الأفق، قال الخيميائي إنهما باتا على مسافة يومين، سيراً، من الأهرامات.

قال الفتى:

ـ إذا كان لا بدَّ لنا من أن نفترق، قريباً، فعلّمني الخيمياء.

ـ إنك تعرف، مسبقاً، ما يجب أن يُعرف. ليس عليك سوى دخول **روح العالم**، واكتشاف الكنز الذي احتفظتْ به لكلٍّ منا.

ـ ليس هذا ما أودُّ معرفته، بل أقصد تحويل الرصاص ذهباً.

احتراماً منه لصمت الصحراء، لم يُجب الخيميائي إلا عندما توقّفا لتناول الطعام:

ـ كل شيء، في الكون، ينمو ويتطوّر، فالعارفون يرون في الذهب أكثر المعادن تطوّراً. لا تسلني لما، لأني أجهل ذلك. لكنني أعرف، فقط، أن ما يعلّمنا إيّاه **التقليد** هو صحيح دائماً. إن الناس هم الذين أخطأوا تفسير كلام الحكماء. وبدل أن يكون الذهب رمزاً للتطوّر، غدا إشارة للحروب.

ـ إن الأشياء تتكلَّم بلغات متعدّدة. لقد رأيت أن رغاء الجمل ليس سوى رغاء، فأصبح إشارة خطر، ثم عاد، أخيراً، مجرَّد رغاء.

لكنّ الفتى لجأ إلى السكوت. لأن على الخيميائي أن يعرف ذلك كلَّه.

فتابع الخيميائي:

«لقد عرفت خيميائيين حقيقيين. كانوا ينعزلون في مختبراتهم، ويحاولون أن يتطوّروا مثل الذهب؛ لقد اكتشفوا **حجر الفلاسفة**، لأنهم أدركوا أنه، إذا تطوَّر شيء ما، فإن كل ما حوله يتطوَّر أيضاً. ونجح آخرون، مصادفة، في العثور على الحجر. كانوا يملكون الموهبة، وكانت روحهم أكثر وعياً من روح الأشخاص الآخرين، ولكن هؤلاء لا يعتدُّ بهم، لأنهم نادرون. وثمّة آخرون كانوا يبحثون عن الذهب، فحسب؛ وهؤلاء لم يتوصّلوا إلى اكتشاف السرّ، لأنهم نسوا أن لكلٌ من الرصاص، والنحاس، والحديد، **أسطورةً شخصيةً**، عليه إنجازها، وأن كل من يُقحم نفسه في **أسطورة**، الآخر، **الشخصية**، لن يتوصّل، أبداً، إلى اكتشاف **أسطورته الشخصية**».

رنَّت كلمات الخيميائي رنين اللعنة.

بعد ذلك، انحنى وأمسك صَدَفة عن رمال الصحراء، وقال:

ـــ كان البحر، هنا، في ما مضى.

ـــ لاحظت ذلك.

طلب الخيميائي إلى الفتى أن يضع الصَدَفة على أذنه. لقد فعل ذلك، غير مرة، عندما كان طفلاً، وسمع هدير البحر.

إن الصَدَفة تختزن بداخلها البحر، لأن البحر **أسطورتها الشخصية**. وهو لن يتخلّى عنها، حتى يغمر البحر الصحراء من جديد.

عقب ذلك، امتطيا الحصانين، وسارا باتجاه أهرامات مصر.

كانت الشمس قد بدأت تميل نحو المغيب، عندما أعطى قلب الفتى إشارة خطر. كانا محاطيْن بكثبان هائلة الحجم، وكان الفتى ينظر إلى الخيميائي. ولكن الخيميائي بدا أنه لم يلاحظ

شيئاً. بعد خمس دقائق، لاح على صفحة المغيب الممتدة خيال فارسَين اثنين. وقبل أن يُتاح له النطق بكلمة واحدة للخيميائي، أصبح الفارسان عشرة فرسان ثم مئة، حتى امتلأت بهم مساحة الكثبان بكاملها.

كانوا محاربين يرتدون اللباس الأزرق، ويضعون عُقُلاً مثلّثة سوداء حول الكوفيات. وكانت تحجب وجوههم إلّا العيون، لُثُم أخرى زرقاء اللون.

حتى من هذه المسافة، كانت العيون تعبِّر عن قوة الأرواح، وتنذر بالموت في آن.



اقتيد المسافران إلى مخيم عسكري قريب من المكان. ودفع أحد الجنود بهما إلى داخل خيمة تختلف عن الخيام المنتصبة في الواحة. وكان في الخيمة قائد حربي محاط بهيئة أركانه.

قال أحد الرجال:

ــ إنهما الجاسوسان.

فأجاب الخيميائي:

ــ لسنا سوى مسافريْن.

ــ ثمَّة من شاهدكما في المعسكر المعادي، قبل ثلاثة أيام، وكنتما تتحدثان مع أحد الجنود، هناك.

ــ إنني رجل يجوب الصحراء، ويعرف النجوم. ليس لديَّ أيُّ معلومات عن الجيوش، وعن تحرّكات القبائل. كنت أصطحب صديقي إلى هنا، فقط.

سأل القائد:

ــ من هو صديقك؟

ــ إنه خيميائي. وهو يعرف قوى الطبيعة، وبودّه أن يُري القيادة قدراته الخارقة.

كان الفتى يستمع بصمت، وقد غشيه الخوف.

سأل أحد الرجال:

ـ ماذا يفعل رجل غريب في أرض غريبة؟

فتابع الخيميائي، قبل أن يتفوّه الفتى بكلمة:

ـ وأحمل مالاً لكي أقدّمه إلى قبيلتكم.

وأخذ كيس الفتى، وأعطى القطع الذهبية للقائد، الذي أخذها دون أن يقول شيئاً. ثمّة مبلغ، في الكيس، يكفي لشراء كمية كبيرة من الأسلحة.

سأل القائد العربي، أخيراً:

ـ من هو الخيميائي؟

ـ إنه رجل يعرف الطبيعة والعالم. ويقدر إذا أراد، أن يدمّر هذا المعسكر باستخدامه قوة الرياح فحسب.

ضحك الحاضرون. ذلك أنهم تعوّدوا قساوة الحرب، وهم يعرفون أن الرياح عاجزة عن توجيه ضربة قاتلة؛ ومع ذلك شعر، كلّ منهم، بقلبه ينقبض داخل صدره. فهم رجال من الصحراء، ويخافون السَحَرة.

قال القائد:

ـ أريد أن أرى شيئاً من ذلك.

أجاب الخيميائي:

ـ نحتاج إلى ثلاثة أيام. سوف يتحوّل صديقي ريحاً عاتية ليريكم مدى قدرته. وإذا لم ينجح، نقدّم، بكل تواضع، حياتنا تشريفاً لقبيلتكم.

أجاب القائد بغطرسة:

ـ لا يمكنك أن تمنحني ما هو في الأساس ملك لي.

ووافق على إمهال المسافرين ثلاثة أيّام.

وكان الفتى جزاء خوفه الشديد، عاجزاً عن الإتيان بأيٍّ حركة، فاضطر الخيميائي أن يمسك بذراعه، لكي يساعده على الخروج من الخيمة.

وقال له:

«لا تُريهم أنك خائف. فهؤلاء رجال شجعان، والشجعان، عادة، يحتقرون الجبناء».

فقد الفتى القدرة على الكلام. ولم يستعد صوته إلا بعد مرور بعض الوقت، وكانا آنذاك يسيران في وسط المعسكر. ولمَّا كان من غير المفيد احتجازهما، فقد اكتفى العرب بأخذ حصانيهما. وهكذا يكشف العالم، مرة أخرى، لغاته العديدة: فالصحراء التي كانت، قبل قليل، مدىً حراً لا حدود له، غدت، الآن، سوراً منيعاً.

قال الفتى:

ــ لقد أعطيتهم مالي كلَّه! أعطيتهم جنى العمر.

ــ ماذا ينفعك المال، إذا كنت ستموت؟ لقد أنقذك مالك لمدة ثلاثة أيام، ومن النادر أن يساعد المال على تأجيل الموت.

ولكن الفتى كان على درجة من الرعب تحول دون سماعه عبارات الحكمة. إنه لا يدري كيف يتحوّل ريحاً، فهو ليس خيميائياً.

طلب الخيميائي الشاي من أحد المحاربين، ثمّ سكب قليلاً منه على معصميْ الفتى، فغمرته نفحة من الهدوء، في حين كان الخيميائي يتلفَّظ ببعض الكلمات، لم ينجح في فهمها.

قال الخيميائي: بنبرة ملؤها الرّقة:

ــ لا تستسلم لليأس. إن ذلك يمنعك من التحاور مع قلبك.

ــ ولكنني لا أعرف كيف أتحوَّل ريحاً.

ــ إن من يعيش **أسطورته الشخصية** يعرف كل ما هو في

حاجة إلى معرفته. ليس هناك سوى شيء واحد يمكنه أن يجعل الحلم مستحيلاً: الخوف من الفشل.

ــ لست خائفاً من الفشل. ولكنني بكل بساطة، لا أعرف كيف أتحوّل ريحاً.

ــ حسناً، ينبغي لك أن تتعلّم! فحياتك رهن بذلك.

ــ وإذا لم أنجح؟

ــ ستموت وأنت تعيش **أسطورتك الشخصية**. وهذا أفضل بكثير من الموت كملايين البشر الذين لم يدركوا، إطلاقاً، أن ثمة وجوداً **لأسطورة شخصية**. ولكن لا تقلق، فالموت، عموماً، يجعلنا أكثر انتباهاً للحياة.

مرَّ اليوم الأول. ثمة معركة ضارية في الجوار، نُقل، إثرها، العديد من الجرحى إلى المعسكر. ردّد الفتى في سرّه: «لا شيء يتغيَّر مع الموت». من يقتلون من المحاربين يحلُّ محلَّهم آخرون، وتستمرُّ الحياة.

قال أحد المحاربين أمام جثة رفيق له في القتال:

«كان بإمكانك أن تموت في وقت لاحق، يا صديقي. كان بإمكانك أن تموت بعد حلول السلام. ولكنك ستموت، في نهاية المطاف».

ذهب الفتى، مساء، للقاء الخيميائي الذي كان متوجّهاً، مع صقره، إلى الصحراء.

وقال من جديد:

ــ لا أعرف كيف أتحوّل ريحاً.

ــ تذكَّر ما قلته لك: إن العالم ليس سوى الجزء المرئي من الله.

ووظيفة الخيمياء هي، ببساطة، إحلال الكمال الروحي على الصعيد المادي.

ـ ماذا تفعل؟

ـ أطعم صقري.

ـ لن أنجح في أن أتحوّل ريحاً. سوف نموت، فما الفائدة من إطعام الصقر؟

ـ أنت، وحدك، ستموت. أما أنا، فأعرف كيف أتحوَّل ريحاً.

في اليوم الثاني، تسلَّق الفتى قمة صخرة تقع قرب المعسكر. سمح له الحراس بالمرور، فقد سمعوا عن ساحر يتحوَّل ريحاً، ولم يشاؤوا الاقتراب منه، ثم إن الصحراء تشكّل سوراً يستحيل اختراقه.

ظلّ، بقية عصر اليوم الثاني، يتأمّل الصحراء. أصغى إلى قلبه، وأصغت الصحراء إلى الخوف الذي يسكنه.

كانا، كلاهما، يتكلمان لغة واحدة.

في اليوم الثالث، جمع القائد الأعلى ضبَّاطه الرئيسيين حوله.

وقال للخيميائي:

ـ هيَّا بنا، لكي نشاهد هذا الفتى الذي يتحوَّل ريحاً.

ـ فقال الخيميائي.

ـ هيَّا!

سار الفتى بهم إلى المكان الذي كان فيه بالأمس، وطلب إلى الجميع أن يجلسوا.

وقال لهم:

ـ سيتطلّب الأمر بعض الوقت.

أجاب القائد الأعلى:

ـ لسنا في عجلة من أمرنا. نحن رجال من الصحراء.

راح الفتى ينظر إلى الأفق المواجه له. ثمّة جبال في البعيد، وكثبان وصخور ونباتات زاحفة تتشبّث بالحياة هناك، حيث الحياة غير محتملة. وهناك الصحراء التي عبرها طوال شهور وشهور، والتي لا يعرف منها سوى جزء صغير. في هذا الجزء الصغير، التقى الإنكليزي والقوافل وصراعات القبائل، وواحة فيها خمسون ألف نخلة وثلاثمئة بئر.

سألته الصحراء:

ـ ما الذي تريده مني، اليوم؟ أما تأمّل أحدنا الآخر ما يكفي يوم أمس؟

ـ إنك تحتفظين، في مكان ما، بالمرأة التي أحبّ. لذلك، عندما أنظر إلى رمالك المترامية، فإني أتامل تلك المرأة، أيضاً. أريد العودة إليها. كما أنني أحتاج إلى مساعدتك لأتحوّل ريحاً.

ـ ما هو الحب؟

ـ الحب هو عندما يحلّق الصقر فوق رمالك. فهو يرى فيك حقولاً خضراء، وما من مرة عاد بلا فريسته. إنه يعرف صخورك وكثبانك وجبالك، وكنتِ،بالمقابل، سخيّة حياله.

ـ إن منقار الصقر ينتزع قطعاً مني. فأنا أطعم تلك الفريسة طوال سنوات، وأرويها من الماء القليل المتوافر لديّ، وأُريها أين تجد ما تأكله، ليهبط الصقر، من السماء، ذات يوم، وفي اللحظة التي أستمتع فيها بمداعبة الطريدة فوق رمالي، فيخطف ما تعهّدته حتى كبر

ـ ولكنّك، من أجل هذه النهاية، تحديداً، أطعمت الطريدة وتعهدتها: لكي تطعمي الصقر، الذي يطعم الإنسان. وليطعم الإنسان بدوره رمالك، حيث تولد الطريدة من جديد. هكذا يسير العالم.

ـ أهذا هو الحب؟

ـ أجل، هذا هو. أي ما يجعل الطريدة تتحوَّل صقراً، والصقر إنساناً، والإنسان، من جديد، صحراء. وهذا، هو، ما يجعل الرصاص يتحوّل ذهباً، والذهب يعود ليختبئ تحت الأرض.

ـ لا أفهم كلامك.

ـ إذن، حاولي أن تفهمي، على الأقل، أن ثمّة امرأةً تنتظرني في مكان ما، وسط رمالك. ولا بدَّ لي، كي أعود إليها، أن أتحوَّل ريحاً.

سكتت الصحراء بضع لحظات، ثم قالت:

ـ أعطيك رمالي، لكي تتمكّن الريح من الهبوب، ولكنّني، بمفردي، لا أستطيع، شيئاً. أطلب المساعدة من الريح.

بدأ نسيم خفيف يتحرّك. وكان قادة الحرب يراقبون، من بعيد، الفتى يتكلم لغة يجهلونها.

وكان الخيميائي يبتسم.

وصلت الريح إلى الفتى، ولامست وجهه. لقد سمعتْ حواره مع الصحراء، لأن الرياح تعرف، دائماً، كلّ شيء. وهي تتجوَّل في العالم، دون أن يكون لها مهدٌ ولا لحد.

قال الفتى:

ـ ساعديني، لقد سمعت فيك ذات يوم، صوت حبيبتي.

ـ من علّمك التكلُّم بلغة الصحراء ولغة الريح؟

ـ قلبي.

للريح عدة أسماء. هنا، يسمُّونها الشلوق (Sirocco)، لأن العرب يعتقدون أنها تأتي من الأراضي التي تغزر فيها المياه، ويسكنها بشر ذوو بشرة سوداء. وفي البلاد البعيدة التي جاء منها الفتى، يسمونها الريح الشرقية، لأن الناس كانوا يعتقدون أنها تحمل معها الرمال وصيحات المحاربين المغاربة. وفي أماكن أخرى، بعيدة من الأرياف، حيث كانت ترعى الأغنام، يعتقد الناس أن الريح تولد في الأندلس. ولكن الريح لا تأتي من أيِّ مكان، ولا تذهب إلى أيِّ مكان؛ ولهذا هي أقوى من الصحراء. قد يأتي يوم يغدو فيه ممكناً زرع الأشجار في الصحراء، بل تربية الأغنام. ولكن من المستحيل السيطرة على الريح.

قالت الريح للفتى:

ـ لا يمكنك أن تكون الريح، لأن طبيعتينا مختلفتان.

ـ هذا ليس صحيحاً. لقد تعلّمت أسرار الخيمياء، وأنا أجوب العالم برفقتك. إني أحمل، في أعماقي، الرياح والصحارى والمحيطات والكواكب، وكل ما خُلق في هذا الكون. لقد كوّنتنا اليد ذاتها، ولدينا الروح ذاتها. أريد أن أكون مثلك، أتغلغل في كل مكان، وأعبر البحار، أرفع الرمل الذي يحجب كنزي، وأُدني صوت حبيبتي.

ـ سمعت حوارك، ذاك النهار، مع الخيميائي، الذي قال إن لكل شيء **أسطورته الشخصية**. فالكائنات البشرية لا تستطيع أن تتحوّل رياحاً.

ـ علّميني أن أكون ريحاً، لبضع لحظات، لكي نتحدَّث، معاً، عن الإمكانات، غير المحدودة، للبشر والرياح.

الريح فضولية، وما يقوله الفتى لم تكن تعرفه من قبل. وبودّها أن يتحدّثا عن هذا الموضوع. ولكنها لا تدري كيف تحوِّل

إنساناً لريح، ومع ذلك، فإنها تعرف أشياء كثيرة! تبني صحارى، تُغرق سفناً، وتقتلع غابات بكاملها، وتتسكّع في مدن زاخرة بالموسيقى والأصوات الغريبة. كانت تظن أن قدرتها بلا حدود، وإذا بفتى، أمامها، يؤكد أن بمقدور الريح أن تفعل أشياء أخرى.

قال الفتى مشتماً أن الريح على وشك أن تلين لطلبه:

«هذا ما نسمّيه الحب. وعندما نحبّ نشعر أننا أصبحنا جزءاً من هذا الكون الغريب. وعندما نحب لا نعود في حاجة إلى فهم ما يجري، لأن كل ذلك يجري، عندئذ، في أعماقنا. إن بمقدور الناس أن يتحولوا رياحاً، شرط أن تساعدهم الرياح في ذلك، بالطبع».

ولمّا كان للريح كبرياؤها، فإن ما قاله الفتى قد أغاظها. فأخذت تهبُّ بمزيد من القوة، مثيرة رمال الصحراء. لكنها اضطُرت، أخيراً للإقرار بأنها، وحتى بعد أن جابت العالم كلّه، لا تستطيع أن تحوّل الإنسان ريحاً. إنها لا تعرف الحب.

قالت الريح، غاضبة من اضطرارها إلى الإقرار بمحدوديتها:

«خلال نزهاتي في أرجاء العالم، لاحظت أن العديد من الناس يتكلّمون عن الحب، وهم ينظرون نحو السماء».

ربَّما كان من الأفضل أن تسأل السماء.

قال الفتى:

ـ ساعديني، إذن. غطّي هذا المكان بالغبار، لكي أستطيع أن أحدّق في الشمس، دون أن أُصاب بالعمى.

راحت الريح تهبُّ بقوة، واجتاح الرمل السماء. ولم يعد، مكان الشمس، سوى أسطوانة مذهبة.

بات من الصعب، داخل المخيم، تمييز شيء من شيء. إن رجال الصحراء يعرفون، جيداً، هذه الريح التي يسمونها ريح السموم،

ويجدونها أسوأ من العاصفة البحرية، وإن كانوا، لا يعرفون البحر. راحت الجياد تصهل، والأسلحة تُغطّى بالرمال.

التفت ضابط، يقف فوق الصخرة، نحو القائد الأعلى، وقال:

«ربما كان من الأفضل التوقّف عند هذا الحد».

بات من الصعب عليهم أن يشاهدوا الفتى. كانت الوجوه، جميعها، مقنّعة باللُثُم الزرقاء، والعيون لا تعبّر إلا عن الخوف.

كرَّر ضابط آخر بإلحاح:

ـ لننهِ الأمر.

فقال القائد بصوتٍ مفعم بالاحترام:

ـ أريد أن أرى عظمة **الله**. أريد أن أرى رجلاً يتحوّل ريحاً.

ولكنه احتفظ، في ذهنه، باسمي الضابطين اللذين عبَّرا عن خوفهما لأنه قرّر أن يعزلهما حين تهدأ الريح. لا ينبغي لرجال الصحراء أن يتملّكهم الخوف.

خاطب الفتى الشمس قائلاً:

ـ قالت الريح لي إنك تعرفين الحبّ. فإذا كنت تعرفينه، فإنك تعرفين، في الوقت ذاته، **روح العالم** المصوغة من **الحب**.

ـ أستطيع، من حيث أنا، أن أشاهد **روح العالم**، إنها على اتصال بروحي، ونحن نعمل، معاً، لينمو الزرع، وتتابع الأغنام، الباحثة عن الظل، سيرها. حيث أنا (وأنا بعيدة جداً عن العالم)، تعلَّمت أن أُحب. أعرف أنني إذا دنوت، قليلاً، من **الأرض**، يهلك كلّ من عليها، وتزول **روح العالم**. لذلك، نحن نتبادل النظر والحبّ؛ أُعطيها الحياة والدفء، وتعطيني سبباً لكي أعيش.

كرَّر الفتى:

ـ تعرفين **الحب**.

ـ وأعرف **روح العالم**، لأن بيننا أحاديث طويلة دارت أثناء سفرنا اللامتناهي في الكون. تقول لي إنَّ مشكلتها الأخطر هي أن المعادن والنباتات، وحدهما، قد أدركتا، حتى الآن، أن الكلّ شيء واحد أوحد. لهذا، ليس من الضروري أن يكون الحديد شبيهاً بالنحاس، والنحاس شبيهاً بالذهب. لكلٍّ وظيفته المناسبة في إطار هذا الكلّ الواحد. ولو أن **اليد** التي كتبت هذا، كلَّه، توقفت في اليوم الخامس، لغدا الجميع سيمفونية سلام.

«ولكن هناك اليوم السادس».

قال الفتى:

ـ إنّك على علم بكل ذلك، لأنك تشاهدين كل شيء عن بعد. لكنّك لا تعرفين الحب. فلو لم يكن، هناك، يوم سادس، لما وُجد الإنسان، ولما استمرَّ النحاس نحاساً، والرصاص رصاصاً. لكلٍّ **أسطورته الشخصية**، هذا صحيح. ولكن **الأسطورة الشخصية** سوف تُنجز يوماً ما. ينبغي، إذن، التحوُّل لشيء أفضل. كما ينبغي أن تكون، لدينا، **أسطورة شخصية** جديدة، إلى أن تغدو **روح العالم**، بالفعل، شيئاً واحداً أوحد.

استمرت **الشمس** مُطرقةً، وراح نورها يسطع بقوة أكبر. أما الريح التي راقها هذا الحديث، فقد راحت تعصف، أيضاً، بقوة أكبر لئلّا تُعمي الشمس الفتى.

قال الفتى:

ـ «من أجل ذلك، كانت الخيمياء. ليبحث كل إنسان عن كنزه، ويجده. ويغدو، بعد ذلك، في حالة أفضل ممّا كان عليه في حياته السابقة. سوف يؤدي الرصاص دوره حتى تُنتفى الحاجة، في العالم، إلى الرصاص. عندئذ، ينبغي له أن يتحوَّل ذهباً.

«بإمكان الخيميائيين أن يحقّقوا هذا التحوّل. ويبيّنوا لنا أننا،

عندما نسعى إلى أن نكون أفضل حالاً ممّا كنّا عليه، فإن كل شيء يغدو أفضل من حولنا».

سألت **الشمس**:

ـ لمَ تقول إنني لا أعرف **الحب**؟

ــ لأن **الحب** لا يعني البقاء في حالة من الجمود كما هو شأن الصحراء؛ ولا يعني التجوال في العالم، مثلما تفعل الرياح؛ ولا مشاهدة كل شيء عن بعد، كما تفعلين. إن **الحب** هو القوة التي تحوّل **روح العالم** وتحسّنُها. عندما دخلت في صميمها، لأول مرة، اعتقدت بأنها كاملة. لكنني رأيت، بعد ذلك، أنها انعكاس لكل ما جرى خلقُه؛ وأن لها، هي أيضاً، حروبها وأهواءها. إننا، نحن، من يغذّي **روح العالم**؛ وستكون الأرض، التي نعيش فوقها، أفضل أو أسوأ، تبعاً لحالتنا نحن. هنا، تتدخّل قوة **الحب**. لأننا، عندما نحبّ، نريد، دائماً، أن نكون أفضل مما نحن عليه.

ــ ماذا تريد مني؟

ــ أنْ تساعديني لأغدوَ ريحاً.

ــ إنَّ الطبيعة تدرك أنني أَعْلَم الكائنات كلّها. بيد أني لا أعرف كيف أحوّلك ريحاً.

ـ إلى من ينبغي لي أن أتوجه، إذن؟

سكتت الشمس لحظة. وكانت الريح تصغي، وتوشك أن تعلن، في العالم بأسره، أن علمها محدود. بيد أنها لا تستطيع أن تُفلت من هذا الشاب الذي يتكلّم **لغة العالم**.

قالت الشمس:

ــ سلِ اليد التي كتبت كل شيء.

أطلقت الريح صيحة رضى، وهبَّت على نحو لا مثيل له من

قبل، فاقتلعت الخيام المنصوبة فوق الرمال، بينما كانت الحيوانات تتحرَّر من رباطها. وتمسَّك الرجال، فوق الصخرة، بعضهم ببعض، خوفاً من أن تحملهم الريح معها.

استدار الفتى، عندئذ، إلى **اليد** التي كتبت كل شيء. وبدل أن ينطق بأيّ كلمة، شعر أن الكون ظلّ صامتاً، ولبث، هو أيضاً صامتاً.

فيض من الحب انبثق من أعماقه، فانصرف إلى الصلاة. كانت صلاة لم يسبق له أن أدَّاها، لأنها بلا كلام، ولأنه لم يطلب من خلالها شيئاً، ولم يتقدّم بالشكر لعثوره على مرعى لأغنامه، ولم يتوسَّل ليبيع المزيد من الأواني البلورية، ولم يطلب أن تنتظر المرأة، التي أحبها، عودته إليها. وفي غمرة الصمت الذي تلا ذلك، أدرك أن الصحراء والريح والشمس تبحث، هي أيضاً، عن الإشارات التي كتبتها تلك **اليد**، وأنها تريد أن تتبع طريقها، وتدرك ما الذي حُفر على تلك الزمردة البسيطة. كان يعرف أن تلك الإشارات مبعثرة على الأرض وفي الفضاء، دون أن يكون في الظاهر، أيُّ غاية لوجودها، وأيُّ دلالة؛ وأن لا الصحارى، ولا الرياح، ولا الشموس، ولا البشر يعرفون لما خُلقوا. إن هذه **اليد** تدرك العلّة التي من أجلها خلقت الكائنات؛ هي وحدها، قادرة على صنع المعجزات، وتحويل المحيطات صحارى، والرجال رياحاً. لأنها تدرك، هي وحدها، أن ثمَّة تدبيراً سامياً يدفع بالكون إلى نقطة تتحول عندها، أيام الخلق الستة **إنجازاً عظيماً**.

توغّل الفتى في روح العالم، ورأى أن **روح العالم** هي في **روح الله**، وأن روح الله فيه.

وبات باستطاعته، منذ الآن، أن يجترح المعجزات.

عصفت ريح السموم، هذا اليوم، كما لم تعصف، من قبل. وسوف يروي العرب، لعدة أجيال، أسطورة فتى تحوَّل ريحاً، وكاد يزيل معسكراً من الوجود، متحدّياً بأس أهم قائد حربي في الصحراء.

عندما هدأت ريح السموم، اتجه الجميع بأنظارهم نحو المكان الذي يقف الفتى فيه. لم يكن هناك، بل كان إلى جانب حارس، كادت الرمال تغطّيه، كان يحرس الجهة الأخرى للمخيّم.

استبدَّ الخوف بالناس أمام هذا السحر، باستثناء شخصين، كانا، رغم ذلك يبتسمان: الخيميائي لأنه وجد تلميذه الحقيقي، والقائد الأعلى لأن هذا التلميذ قد تناهى إلى سمعه مجد الله.

وفي اليوم التالي، ودّع القائد الفتى والخيميائي، وأرسل معهما فريق حراسة، يرافقهما حتى المكان الذي يريدان بلوغه.



سارا نهاراً بكامله. ومع حلول المساء، بلغا دير قبطي. طلب الخيميائي من مجموعة الحراسة العودة إلى الواحة، وترجَّل عن حصانه.

وقال:

ــ ابتداءً من هنا، تتابع السير بمفردك. لم يعد أمامك سوى ثلاث ساعات من السير لتلبغ الأهرامات.

ــ شكراً. لقد علّمتني **لغة العالم**.

ــ لم أفعل سوى تذكيرك بما كنت تعرفه من قبل.

طرق الخيميائي باب الدير. ففتح الباب راهب يرتدي ثوباً أسود. تحادثا، قليلاً، باللغة القبطية، ثم أدخل الخيميائي الفتى.

وقال:

ــ طلبت إليه أن يسمح لي باستخدام مطبخ الدير لبعض الوقت.

توجّها إلى المطبخ. أوقد الخيميائي النار. وجاء الراهب بكمية صغيرة من الرصاص أذابه الخيميائي في وعاء من حديد. عندما أصبح الرصاص سائلاً، تناول من كيسه البيضة الزجاجية الصفراء الغريبة، التي كان يحملها معه، وكشط عنها قشرة بسماكة شعرة، وغلّفها بالشمع، وألقاها في الوعاء الذي يحتوي على الرصاص الذائب، فاتّخذ المزيج لوناً قانياً كالدم. عندئذٍ، رفع الخيميائي، الوعاء عن النار، وتركه يبرد، وبانتظار ذلك، تبادل الحديث مع الراهب حول حرب القبائل.

فقال له:

ـ يبدو أنها حرب ستطول.

شعر الراهب بالضيق. فمنذ وقت طويل، والقوافل المجمّدة في الجيزة تنتظر نهاية الصراع.

فقال:

ـ لكن، لتكن مشيئة الرب.

ـ لتكن مشيئته.

عندما برد المزيج في الوعاء، حدَّق الراهب والفتى مذهولَيْن: لقد جفَّ المعدن حول الجانب الداخلي للوعاء، ولكنه ليس رصاصاً، إنه ذهب.

سأل الفتى:

ـ هل بمقدوري أن أفعل ذلك يوماً؟

ـ إنها **أسطورتي الشخصية**، وليست أسطورتك. لكنني أريد أن أريك أن ذلك ممكن.

رجعا إلى مدخل الدير. وهناك قسَّم الخيميائي الأسطوانة إلى أربع قطع.

قال، وهو يقدم أحد الأجزاء الأربعة إلى الراهب:

ـ هذه القطعة لك، وهي بمثابة شكر لكرمك تجاه الحجّاج.

أجاب الراهب:

ـ إنه شكر يتعدّى ما أبديته نحوك من سخاء.

ـ لا تقل مثل هذا الكلام. فقد يتناهى إلى أسماع الحياة، فتغدو أقلّ سخاء معك، في المرة اللاحقة.

ثم اقترب من الفتى، وقال:

ـ وهذه لك، تعويضاً عن الذهب الذي بقي مع القائد الحربي.

كاد الفتى يقول أن هذا أكثر بكثير ممّا فقده. ولكنه، بعد أن سمع ما قاله الخيميائي للراهب، لزم الصمت.

وقال الخيميائي:

ــ وهذه القطعة لي، لأنني يجب أن أعود فأجتاز الصحراء من جديد، والحرب ما تزال دائرة بين القبائل.

ثم تناول القطعة الرابعة وأعطاها أيضاً للراهب، قائلاً:

ــ هذه الحصة للفتى. ولا تكون له إلا في حال احتياجه إليها.

فقال الفتى:

ــ ولكنني سأبحث عن كنزي، وقد بتُّ، الآن، قريباً منه.

ــ وإنني على يقين بأنك سوف تجده.

ــ لماذا هذه الحصة الإضافية، إذن؟

ــ لأنك فقدت مالك، الذي جنيته خلال سفرك، مرتين: مرّة مع اللص، ومرّة مع القائد الحربي. وأنا رجل عربي طاعن في السن ومتطيّر أؤمن بأمثال بلادي. وثمّة مثل، منها، يقول: «ما يحدث مرة قد لا يتكرر حدوثه إطلاقاً. ولكن ما يحدث مرتين، يحدث حتماً مرة ثالثة».

وامتطيا حصانيهما.

قال الخيميائي:

«أودُّ أن أروي لك حكاية تتعلّق بالأحلام».

فقرّب الفتى حصانه.

«في روما القديمة، وفي عهد الأمبراطور تيبريوس، كان يعيش رجل، صالح جدّاً، مع ولديه: أحدهما انخرط في الجيش وأُرسل إلى المقاطعات البعيدة التابعة للأمبراطورية، والثاني كان شاعراً يفتن روما بقصائده الجميلة.

«راود الأب، ذات ليلة، حلم ظهر فيه ملاك وأخبره أن أقوال أحد ولديه سوف تُعرف، وترددها الأجيال المقبلة في العالم بأسره. استيقظ الأب العجوز وهو يبكي من شدة الفرح، لأن الحياة تبدو كريمة تجاهه، ولأنه حظي برؤيا تملأ قلب أيِّ أبٍ بالاعتزاز.

«بعد وقت قصير، مات الأب وهو يحاول إنقاذ طفل كاد يسحق تحت عجلات إحدى العربات. وبما أنه تصرَّف على نحو عادل وشريف، طوال حياته، فقد صعد إلى السماء، والتقى الملاك الذي ظهر له في حلمه.

«قال له الملاك:

«ـ لقد كنت رجلاً صالحاً، عشت حياتك في الحب، ومتَّ كريماً. وأنا على استعداد، الآن، لتحقيق أي أمنية من أمنياتك.

«أجاب العجوز:

«ـ والحياة كانت طيبة، أيضاً، معي. فعندما ظهرت لي في الحلم أدركت أن كل جهودي كانت جهوداً في مكانها، لأن قصائد ابني ستبقى في ذاكرة الناس طوال العصور المقبلة. ليس، هناك، ما أطلبه لنفسي. بيد أن كل أب يشعر بالاعتزاز عندما يرى ذلك الذي أولاه العناية حين كان طفلاً، وأدَّبه يافعاً، يحظى بالشهرة. أودُّ لو أسمع، في المستقبل البعيد، كلمات ابني.

«لمس الملاك كتف العجوز، فإذا بهما يقذفان، معاً، في مستقبل بعيد، وظهرت، أمامهما، ساحة بالغة الاتساع، حيث يوجد ألوف من الناس يتحدّثون بلغة غريبة.

«بكى الرجل العجوز من الفرح.

«وقال للملاك:

«ـ كنت أعلم أن أشعار ابني أشعار جميلة وخالدة. فهلّا أخبرتني عن قصائده التي يتلوها هؤلاء الناس؟

«تقدم الملاك منه، عندئذ، بمنتهى اللطف، وجلسا على أحد المقاعد الموجودة في تلك الساحة الواسعة.

«وقال له:

«ــ إن قصائد ابنك، الشاعر، كانت قصائد مشهورة جداً في روما، وكان جميع الناس يحبّونها ويستمتعون بها، ولكن عندما انتهى عهد تيبريوس، نسوْها. أما الكلام الذي يتلوه هؤلاء الناس، فهو كلام ابنك الآخر، الجندي.

«نظر العجوز إلى الملاك مندهشاً.

«وتابع الملاك قائلاً:

«ــ لقد ذهب ابنك للخدمة في مقاطعة بعيدة، وأصبح «**قائد المئة**». وكان، هو أيضاً، رجلاً عادلاً وصالحاً. ذات مساء، أصيب أحد خدمه بالمرض وكاد يموت. ولمَّا كان ابنك يعرف حَبراً يشفي المرض، فقد قضى أياماً عديدة وهو يبحث عنه. وخلال بحثه اكتشف أن الرجل الذي يبحث عنه هو **ابن الله**. قابل أناساً، آخرين، نجوا من المرض على يده. وبعد أن سمع أخباره، وعلى الرغم من كونه قائد المئة، ورومانيا، فقد آمن به. وذات صباح وصل، أخيراً، إلى ذاك الحَبر.

«أخبره أن أحد خدمه مريض، فذهب الحَبر، برفقته، إلى منزل المريض. ولكن قائد المئة كان رجلاً مؤمناً. وعندما حدّق إلى عيني الرجل أدرك أنه في حضرة **ابن الله** فعلاً، لا سيما وأنه رأى الموجودين يقفون حول المكان، احتراماً.

قال الملاك للرجل العجوز:

«ــ تلك الكلمات هي كلمات ابنك، الكلمات التي قالها لذاك الحبر، والتي لن تُنسى أبداً: «**يا ربّ، أنا لست أهلاً أن تدخل تحت سقف بيتي، لكن قل كلمة واحدة فيبرأ بها خادمي**».

تقدّم الخيميائي على صهوة حصانه. وقال:

«كل كائن على هذه الأرض يؤدّي دوراً أساسيّاً في كتابة تاريخ هذا الكون، وهو بصورة طبيعية لا يدرك شيئاً من هذا الواقع».

ابتسم الفتى. لم يكن يتصوَّر، إطلاقاً، أن تكون الحياة على هذا القدر من الأهمية قياساً على راعٍ.

قال الخيميائي:

ــ وداعاً.

أجاب الفتى:

ــ وداعاً.



سار في الصحراء، ساعتين ونصف الساعة، وهو يحاول أن يُصغي، بانتباه إلى ما يقول قلبه، قلبه الذي سيكشف له المكان الصحيح الذي يوجد فيه كنزه المخبوء.

أولم يقل له الخيميائي: «حيث يكون كنزك، هناك يكون قلبك».

ولكن قلبه حدّثه عن أمور أخرى، إذ روى له باعتزاز، حكاية راعٍ تخلّى عن أغنامه للاحقة حلم رآه مرتين. وحكى له عن **الأسطورة الشخصية**، وعن كل أولئك الأشخاص الذين عاشوا تلك الأسطورة، بحثاً عن أراض نائية، أو عن نساء جميلات، وهم يجابهون أناس عصرهم، بأفكارهم وأحكامهم المسبقة. وطوال تلك الرحلة، تحدَّث عن الاكتشافات والكتب والتغيُّرات العظيمة.

وبينما هو يتأهب لتسلُّق أحد الكثبان، وفي تلك اللحظة فقط، همس له قلبه: «انتبه إلى المكان الذي ستبكي فيه، لأنني، هناك، أكون، وهناك يكون كنزك».

راح يتسلَّق الكثيب ببطء، وكانت السماء، المليئة بالنجوم، مضاءة، من جديد بالبدر: لقد سارا شهراً كاملاً في الصحراء. وكان ضوء القمر ينير الكثيب. وهو يُلقي ظلالاً تتخلّل الصحراء، وكأنها بحر هائج. وتذكّر الفتى، من جديد، ذلك اليوم الذي أطلق، فيه، العنان لحصانه، وأعطى الخيميائي الإشارة التي كان ينتظرها.

كذلك كان ضوء القمر يغمر صمت الصحراء، وذلك السفر الطويل الذي يتجشَّمه الرجال بحثاً عن الكنوز.

عندما بلغ، بعد دقائق، قمة الكثيب، قفز قلبه في صدره. فقد انتصبت أمام نظره أهرامات مصر، بكل عظمتها وجلالها، وهي مضاءة ببدر السماء، وبياض الصحراء.

جثا على ركبتيه، وبكى. شكر الله، لأنه آمن **بأسطورته الشخصية**، والتقى، ذات يوم، ملكاً، ورجلاً إنكليزياً، وخيميائياً، بل، وهذا هو الأهمّ، التقى امرأة من الصحراء، جعلته يفهم أن الحب لا يمكنه، أبداً، أن يُبعد رجلاً عن **أسطورته الشخصية**.

كانت كل عصور الأهرامات تتأمل، من أوج عليائها، ذاك الواقف، هناك، عند أقدامها. لو شاء لاستطاع العودة، الآن، إلى الواحة، وتزوج فاطمة، وعاش حارساً عادياً لخرافه، لأن الخيميائي يعيش في الصحراء، ومع ذلك يفهم لغة العالم، ويعرف كيف يحوّل الرصاص ذهباً، وليس مضطراً أن يكشف، لأيٍّ كان، علمه وفنه؛ وبينما كان يسير باتجاه **أسطورته الشخصية**، تعلَّم كلَّ ما كان بحاجة إلى معرفته، وعاش كل ما كان يحلم أن يعيشه.

ولكنه وصل إلى كنزه. وما من عمل يُعتبر منجزاً إلا مع بلوغ الهدف. هناك، على قمة الكثيب، بكى. نظر إلى الأرض، فشاهد حيث سقطت دموعه، حشرة صغيرة تتنزّه. وقد تعلّم خلال وجوده في مصر، أن هذا النوع من الحشرات يمثّل رمزاً عظيماً.

وتلك إشارة أيضاً. بدأ، عندئذ، يحفر، وهو يتذكر تاجر البلوريات: لا يمكن لأحدٍ أن يبني أهراماً، في حديقة منزله، حتى لو استمرَّ يكدّس الحجارة، طوال حياته.

ظلّ يحفر، الليل بطوله، في المكان المحدَّد، دون أن يجد شيئاً. وكانت العصور تتأمله، من قمة الأهرامات، بصمت. حفر، وحفر، دون توقُّف، مقاوماً الريح التي تعيد الرمل إلى الحفرة، تكراراً.

كلّت يداه، وجُرحتا، ولكنه لم يشكّك في قلبه، الذي قال له أن يحفر، حيث تسقط دموعه.

فجأة، وبينما كان يحاول رفع بعض الحجارة التي أزاح الرمال عنها، سمع وقع أقدام. اقترب رجال لم يتمكّن من مشاهدة عيونهم ووجوههم، لأن ظهورهم كانت باتجاه القمر.

سأل أحد القادمين:

«ماذا تفعل هنا؟».

لم يجب، لكن تملَّكه الخوف. لديه، الآن، كنز يستخرجه من الرمال، ولهذا شعر بالخوف.

وقال آخر:

«نحن هاربون من الحرب. ونريد أن نعرف ماذا تخبّئ هنا. إننا في حاجة إلى المال.

أجاب الفتى:

ــ لا أخبّئ شيئاً.

إلا أن أحد الرجال أمسك بذراعه، وجرَّه خارج الحفرة، في حين عمد آخر إلى تفتيشه، فعثر على قطعة الذهب القابعة في أحد جيوبه.

قال أحد المهاجمين:

«لديه ذهب».

أضاء القمر وجه الرجل الذي يقوم بتفتيشه، وكان الموت ماثلاً في نظراته.

وقال آخر:

«لا بدَّ من وجود المزيد من الذهب مطموراً في الأرض».

أرغموه على متابعة الحفر، ولمَّا لم يجد شيئاً، انهالوا عليه ضرباً،

ضربوه حتى أرسلت الشمس أولى شعاعاتها. كانت ثيابه ممزقة، وكان يحسّ أن الموت قريب منه.

«ماذا ينفع المال إذا كنا سنموت؟ من النادر جداً أن يتمكّن المال من إنقاذ أحد من الموت». أَوَليس هذا ما قاله الخيميائي؟

وعلى الرغم من الجراح التي ملأت فمه المتورّم جرّاء ما انهال عليه من ضربات، فإنه حكى لمهاجميه كيف حلم، مرتين، بكنز مطمور قرب أهرامات مصر.

ومَن بدا منهم أنه الزعيم، كسر الصمت الذي ران للحظة، مخاطباً أحد أتباعه:

ــ لندعْه يذهب، فليس لديه شيء آخر. أما هذا الذهب، فلا بُدّ أنه قد سرقه.

هوى الفتى على وجهه فوق الرمال. ثمَّة عينان، اثنتان، تبحثان عن عينيه، إنهما عينا زعيم العصابة. ولكن الفتى كان ينظر باتجاه الأهرامات.

قال الزعيم لمرافقيه:

«هيَّا، لنذهب».

ثم استدار نحو الفتى، قائلاً:

«لن تموت. ستعيش وتتعلَّم أنه لا ينبغي لنا أن نكون على هذه الدرجة من الغباء. هنا، بالضبط حيث تقبع أنت، رأيت حلماً، قبل سنتين تقريباً، راودني غير مرة. فقد حلمت أنَّ عليّ أن أسافر إلى إسبانيا، وأبحث، في الريف، عن أطلال كنيسة يتردد إليها الرعيان ليناموا فيها مع أغنامهم، وحلّت فيها شجرة جميز محلّ الغرفة الملحقة بالمذبح. حتى إذا حفرت عند جذع الشجرة، أجد كنزاً مخبَّأً، ولكنني لست على هذه الدرجة من الغباء، لكي أجتاز الصحراء بكاملها، لمجرّد أنني رأيت الحلم نفسه مرّتين.

ثم انصرف.

نهض الفتى، تحت وطأة الألم، وألقى نظرة أخيرة على الأهرامات، فابتسمت الاهرامات له، وابتسم لها. وقفل راجعاً، وقلبه مفعم بالبهجة.

لقد وجد الكنز.

* * *


خاتمة

كان اسمه سانتياغو. وصل إلى الكنيسة المهجورة، في حين كان الليل على وشك أن يهبط. كانت شجرة الجميز لا تزال مكانها، في الغرفة الملحقة بالمذبح، وكان بالإمكان، دائماً، مشاهدة النجوم عبر السقف المنهار جزئياً. تذكَّر أنه جاء، مرة، إلى هذا المكان، مع نعاجه، وقضى ليلة هادئة باستثناء الحلم الذي رآه.

وها هو، الآن، في هذا المكان من دون قطيعه، لكنّه يحمل رفشاً.

لبث، وقتاً طويلاً، يتأمّل السماء، ثم أخرج من كيسه قنينة نبيذ، وشرب منها. تذكَّر تلك الليلة التي قضاها في الصحراء يتأمل النجوم، أيضاً، ويشرب النبيذ مع الخيميائي، وفكَّر بكلِّ الدروب التي سلكها، وبالطريقة الغريبة التي هداه الله، بها، إلى الكنز. لو لم يكن يؤمن بالأحلام التي تتكرر، لما التقى تلك الغجرية، ولا الملك، ولا اللصّ، ولا... ردّد في سرّه: «إن اللائحة طويلة جداً، هذا صحيح؛ ولكن الطريق كانت مُوضَّحةً بالإشارات، ولم يكن بإمكاني أن أضلّ السبيل».

أخذه النوم دون أن يعي. وعندما أفاق كانت الشمس في كبد السماء. فراح، عندئذٍ، يحفر عند جذع شجرة الجمّيز.

وأسرّ إلى نفسه:

«أيها الساحر العجوز: لقد كنت على علم بكل شيء، بل

تركت لي حفنة من الذهب لكي أتمكّن من العودة إلى هذه الكنيسة. ضحك الراهب عندما شاهدني أعود، من جديد، ممزق الثياب. أما كان بإمكانك أن تجنّبني ذلك كلّه؟».

سمع الريح تجيبه: «لا، لو أخبرتك بذلك، لما شاهدت الأهرامات. إنها جميلة جداً، أليس كذلك؟».

إنه صوت الخيميائي. ابتسم، واستأنف الحفر. بعد نصف ساعة، اصطدم الرفش بشيء صلب. وبعد ساعة، وجد، أمامه، صندوقاً، مليئاً بقطع الذهب الإسبانية القديمة، وبأحجار كريمة، وأقنعة من الذهب مزيّنة بريش أبيض وأحمر، وتماثيل حجرية مرصّعة بالماس، ومخلّفات غزو نسيته البلاد منذ زمن بعيد، ونسي الغازي أن يحكي عنه لأحفاده.

أخرج من كيسه أوريم وتوميم. لم يستعن بهذين الحجرين سوى، ذات صباح، في إحدى الأسواق. كانت الحياة، وكذلك طريقه، مأهولة، دائماً، بالإشارات.

وضع أوريم وتوميم في صندوق الذهب. إن هذين الحجرين يشكّلان، هما أيضاً، جزءاً من كنزه، باعتبارهما يذكّران بالملك العجوز الذي لن يلتقيه أبداً.

ردّد في سرّه:

«إن الحياة، في الحقيقة، سخية مع من يعيش **أسطورته الشخصية**».

وتذكّر، عندئذٍ، أنّ عليه الذهاب إلى طريفا ليعطي المرأة الغجرية عُشر الكنز. وأسرّ إلى نفسه: «كم هم أذكياء هؤلاء الغجر!.. ربما عُزي ذلك إلى أنهم يرحلون باستمرار».

ولكن الريح عادت تهبُّ من جديد. إنها الريح الشرقية، تلك التي تأتي من أفريقية، ولكنها لا تحمل معها رائحة الصحراء، ولا التهديد بالغزو.

بل على العكس، كانت تحمل أرج عطرٍ يذكره جيداً، وبوح قُبلة ترفّ بعذوبة لتنطبع على شفتيه.

ابتسم. لقد كانت قبلتها الأولى.

وقال: «ها أنذا، يا فاطمة، إنني قادم».

* * *

سلسلة الأدب واللغة

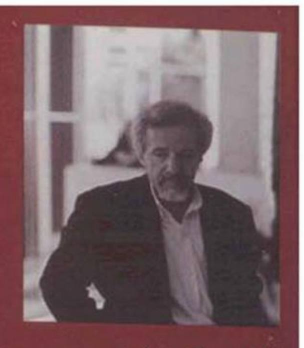
صدر منها:

- **الاستراحة** ـ ليلى عسيران
- **الحوار الأخرس** ـ ليلى عسيران
- **المدينة الفارغة ـ ليلى عسيران**
- **جسر الحجر** ـ ليلى عسيران
- **خط الأفعى** ـ ليلى عسيران
- **عصافير الفجر** ـ ليلى عسيران
- **قلعة الأسطة** ـ ليلى عسيران
- **لن نموت غداً** ـ ليلى عسيران
- **فروخ ناز (ألف يوم ويوم)** ـ نعمة الله ابراهيم
- **السير الشعبية العربية** ـ نعمة الله ابراهيم
- **الأيام والناس** ـ برهان الدجاني
- **علم الإبداع** ـ د. مروان فارس
- **آن الأوان** ـ طلال حيدر
- **انظر إليك** ـ مرام المصري
- **بائع الفستق/رواية** ـ سمير عطا الله
- **اللباس والزينة** ـ أ . بينول
- **أُخذَةُ كِشْ** ـ ألبير نقاش
- **صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية** ـ د. محمد أبو علي
- **المساجلات** ـ أحمد حاطوم
- **في مدار اللغة واللسان** ـ أحمد حاطوم
- **كتاب الإعراب** ـ أحمد حاطوم
- **إميل بجاني، كاتب في الغربال** ـ بقلم شخصيات عدة
- **طه حسين، من الشاطئ الآخر** ـ عبد الرشيد محمودي
- **الله بالخير** ـ ابراهيم سلامة
- **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** ـ منير عبود
- **عشرون روائياً عالمياً يتحدثون** ـ عصام محفوظ
- **مختارات من الشعراء الرواد في لبنان** ـ عصام محفوظ
- **قصة يوطوبيا . قصة مشربية** ـ حسن فتحي
- **جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران** ـ د. بطرس حبيب
- **ألف ليلة وليلة . الجزء الأول** ـ قدري قلعجي
- **ألف ليلة وليلة . الجزء الثاني** ـ قدري قلعجي
- **ألف ليلة وليلة . الجزء الثالث** ـ قدري قلعجي
- **ألف ليلة وليلة . الجزء الرابع** ـ قدري قلعجي
- **ألف ليلة وليلة . الجزء الخامس** ـ قدري قلعجي
- **الناس والآخرون** ـ قدري قلعجي

- □ **سلسلة «شهرزاد تروي»** ٣٠ جزءاً
- □ **سلسلة «شهرزاد تقدم»** ٣٠ جزءاً
- □ **الحب والتصوف عند العرب** ـ د. عادل كامل الآلوسي
- □ **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** ـ هادي محيي الخفاجي
- □ **الطربوش** ـ روبير سوليه
- □ **مهما قلت لا تقل** ـ د. نبيل سليمان
- □ **امرأة تبحث عن وطن** ـ ماريا المعلوف
- □ **لا أحد يفهم ما يدور الآن** ـ روحي طعمة
- □ **خطوات أنثى** ـ رُدينة الفيلالي
- □ **أثواب الحزن** ـ هدى السراري
- □ **كنوز العرب** ـ شكري نصرالله
- □ **قالوا وفعلوا : وقائع من تاريخ العرب وتراثهم** ـ شكري نصرالله
- □ **الثالث** ـ شكري نصرالله
- □ **دريد لحام/مشوار العمر** ـ د. فاروق الجمال
- □ **بساطٌ من الزهر الأحمر** ـ نيلوفر بازيرا
- □ **إمرأة. . . وظلّان** ـ خلود عبد الله الخميس
- □ **تاريخ اللغات ومستقبلها** ـ هارولد هارمن
- □ **فلسطين في الشعر الاسباني المعاصر** ـ د. محمد الجعيدي
- □ **هل كنا مثل أي عاشقين؟** ـ نافتج سارنا
- □ **اعترافات غايشا** ـ آرثر غولدن
- □ **خريف من ذهب** ـ جوزيف طوبيّا
- □ **عودة النبض** ـ نوال نجم
- □ **مغامرة حب في بلاد ممزقة** ـ جاين ساسون
- □ **يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى** ـ غسّان علم الدين
- □ **طلاق الحاكم** ـ منى دايخ
- □ **مصائر الغبار** ـ راوي حاج
- □ **نقوش** ـ أحمد حاطوم
- □ **حقيبة حذر** ـ عاطف البلوي
- □ **ألف عام من الصلاة** ـ ييون لي
- □ **حبٌّ محرَّم** ـ يوكيو ميشيما

مؤلفات پاولو كويلو

- □ إحدى عشرة دقيقة
- □ الشيطان والآنسة بريم
- □ الخيميائي
- □ على نهر بيدرا هُناك جلست فبكيت
- □ حاجّ كومبوستيلا
- □ الجبل الخامس
- □ ڤيرونيكا تقرر أن تموت
- □ الزُّهير
- □ ساحرة بورتوبيللو



باولو كويلو

قبل أن يصبح باولو كويلو، المولود سنة ١٩٤٧ في ريو دي جانيرو، كاتباً شعبياً معروفاً، كان كاتباً مسرحياً، ومدير مسرح، وإنساناً هيبياً، ومؤلّف أغانٍ شعبية لأشهر نجوم البرازيل.

سنة ١٩٨٦، سلك طريق مار يعقوب، المزار الإسباني القديم، ثم وصف تجربته في كتاب أسماه «حاجّ كومبوستيلا»، ونشره سنة ١٩٨٧، وفي السنة التالية، صدر كتابه الثاني «الخيميائي»، فغدا واحداً من أكثر الكتّاب المعاصرين قرّاءً، وظاهرة حقيقية في عالم النشر، وحاز المرتبة الأولى بين تسع وعشرين دولة، وتوالت، من ثمّ، سلسلة مؤلفاته تحصد المزيد من الشهرة والانتشار: منها: الفالكيريز، على نهر بييدرا هناك جلست فبكيت، الجبل الخامس، محارب الضوء، ڤيرونيكا تقرّر أن تموت، الشيطان والآنسة پريم، إحدى عشرة دقيقة، الزهير، ساحرة بورتوبيللو وبريدا.

نشرت مؤلفاته في أكثر من ١٥٠ دولة، وترجمت إلى ٦٦ لغة، وبيع منها أكثر من ١٠٠ مليون نسخة، ونال العديد من الأوسمة والتقديرات، منها مؤخراً شهادة غينيس للعام ٢٠٠٩ كون أعماله ترجمت إلى أكبر عدد من اللغات بين جميع كتّاب العالم. باولو كويلو في صدد الإعداد لرواية جديدة اليوم .

الخيميائي

پاولو كويلو

ترجمة: جواد صيداوي

تدقيق لغوي: روحي طعمة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: O Alquimista

نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة، أسبانيا بوكالتهم عن پاولو كويلو

موقع پاولو كويلو على الإنترنت:

http://www.paulocoelho.com.br

Blog پاولو كويلو: www.paulocoelhoblog.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

e-mail: tradebooks@all-prints.com

website: www. all-prints.com

الطبعة السادسة عشرة ٢٠٠٨ - طبعة خاصة

ISBN: 978-9953-88-250-5

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الإخراج الفني: زاهية عاصي

مقدمة خاصة للطبعة الجديدة

وأنا أجالس هذه الورقة البيضاء، تذكرت إحدى ليالي شباط/ فبراير ١٩٨٨، يوم كنت، أيضاً جليس ورقة بيضاء.

كان القلق يتملكني بعد أن قضيت النهار بطوله أؤجل هذه اللحظة. يومها استيقظت مبكراً، وقررت ببساطة أن أقرأ الصحيفة بداية، وكأن قراءة الصحف واحدة من أولويات الحياة! قرأتها كلّها، حتى إعلاناتها المبوّبة، أنا الذي ترك عمله ليغوص في عالم الأدب الخطر والمجهول. وبعد ساعة ونصف الساعة من القراءة الدقيقة والمنهجية للصفحات المطبوعة، قرّرت مغادرة المنزل، في محاولة مني لنسيان الأخبار التي لم تعد تثير رُعبنا، لأنها كانت تتكرر باستمرار.

كنتُ أنوي إفراغ رأسي من كل أمر، كمن يفرغ قبواً من محتوياته. وذلك لأكون مهيّأ للورقة البيضاء التي تنتظرني بفارغ الصبر على الآلة الكاتبة.

مشيت سريعاً على الرصيف البحري في كوباكابانا، والحنين يشدّني إلى إسبانيا، التي عشت فيها ردحاً، حيث تعودت رؤية السماء نفسها الملبّدة بالغيوم، والإحساس بحرارة الصباح نفسها. كانت الطبيعة التي تحيط بي وكأنها في صراع مع نفسها ومع عناصرها: أمواج البحر تصفع الشاطىء، الرياح تعصف بما بقي من شجر نخيل، العواصف التي تضرب السحب الحُبلى، لتلد بعد قليلٍ مسبّبة ازدحاماً خانقاً في السير.

تسارعت نبضات قلبي جداً. كان لدي فكرة، وكنت أملك قصة. لكنني لم أكن أعرف من أين أبدأ. أنزلت من قبل كتاباً وحيداً أسميته «مذكّرات مجوسي»، وهو يمثّل رحلتي على طريق الحج في شمال إسبانيا، الطريق التي كانت في ذلك الوقت شبه منسية. دهشت يومها لوقع هذا الموضوع الذي استرعى خيال القرّاء البرازيليين، ورفع مبيعات الكتاب إلى أرقام مهمة، عنى ذلك أن لدي فرصة سانحة لنشر كتاب آخر، وكنت في حاجة إلى انتهاز الفرصة. فرواية واحدة لا تتوجني كاتباً. كان عليّ المتابعة ما دمت أنوي المحافظة على الحلم، ونهر الكلمات لم يكن ليجفّ.

توجهت إلى منزلي.. لم تنبس زوجتي كريستينا ببنت شفة. كانت تدرك أنني أسيرُ عاصفةٍ كتلك التي ستضرب مدينة ريو دي جانيرو.

أتعبني أنني لم أفعل شيئاً. فأخذت قيلولة ما بعد الغداء وغرقت في نوم عميق خلا من الأحلام. عندما استيقظت، كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة مساء، وتلفزيونات الجوار تبث بصخب. وكان بمقدوري التقاط أصوات العائلات التي تتحضر لتناول العشاء، أو لمتابعة برنامج تلفزيوني، أو لخوض الأحاديث حول يوم العمل الذي انتهى منذ قليل. توجهت إلى مكتبي، وجالستُ الورقة البيضاء وأنا أشعرُ بالذنب.

قطعتُ عهداً على نفسي أن أمثُل هناك لنصف ساعة على الأقل، حتى وإن لم أتمكّن من كتابة كلمة.

تذكّرت قول فرناندو بيساوا: «المرآة تعكس بدقّة متناهية؛ لا تُخطئ أبداً، لأنها لا تفكّر». ينبغي ألا أفكّر. يجدر بي أن أتصرّف كمرآة، وأن أكون كالبحيرة التي تعكس السماء.

وضعت أصابعي على حروف آلتي الكاتبة الكهربائية الأوليفيتي، وهي هدية تلقّيتها بمناسبة خطوبتي التي أخفقت في تحوّلها زواجاً.

أردت أن أتحدث عن كل شيء. أردت أن أفهم لماذا تأخرت كل هذا الوقت. وقبل كل شيء أردت أن أثبت لنفسي أنني قادرٌ على إبقاء تلك الشعلة متوهجة.

من أين أبدأ؟

سكون..

صوت الحياة في الخارج. بدا فجأة وكأنه يتلاشى.

صورة البحر الهائج لاحت لي فجأة من حيث لا أدري.

في الأفق البعيد لمحتُ نقطة سوداء، إنها سفينة تتهيأ للإبحار، أراها تتراقص على وقع الموج. ثمة رجل يجذب المرساة ويجهّز نفسه للانطلاق في رحلة البحث عن مغامرة. كان عجوزاً، لكن عينيه الزرقاوين كانتا تشعّان. استطعت تعرّفه: إنه سانتياغو «العجوز والبحر» لهمنغواي. «كان اسم الرجل العجوز سانتياغو» لكن، في باقي الكتاب، لا يعود الكاتب إلى ذكر اسم البطل مرة ثانية على ما أذكر.

أبصرت السطر الأول يزدحم بالكلمات على ورقتي بيضاء: «كان اسم الصبي سانتياغو» وفي تلك اللحظة السحرية، عرفت أن وراء هذه الكلمات السحرية، يقبع كتاب.

كنت سأخبر القصة عن أنا سواي، قصة الراعي الذي طالما كنته، على الرغم من أنني لم أرَ الغنم في حياتي، بل الأحلام فحسب. هوذا الذي سيغدو مرآة حياتي، ويعكس كل العقبات التي انتصبت في طريقي، وكل القرارات، والأخطاء التي ارتكبها يوم انطلق في بحثه عن الكنز.

تدريجاً، وصفحة وراء صفحة، اكتسبت قصة الصبي ملامحها. تابعت العمل بساعاتٍ قليلة، سرعان ما تحوّلت إلى أيام. وعلى مدى أسبوعين، كنت على إدراك أنني أعود إلى الماضي وأتقدّم نحو المستقبل بآن.

نُقلت إلى منطقة تينيريف، حيث عبرت ريح الصحراء جلدي، وحيث تأهلت بي ليلاً رائحة الواحة. ما هذه الطريق الطويلة التي قطعتُها منذ ذلك الوقت؟ كلمات.. أفكار.. ذكريات.. قصص.. حجارةُ الطريق.. وأنا أجالس هذه الصفحة المطبوعة، تمكّنت من رؤية تلك القطعة من الطريق، التي أمشيها مراراً في مخيّلتي.

وهكذا التقى الراعي بالملك، ووجد الشجاعة لكي يتقدّم.

وهكذا اتحد قدري بقدره، تماماً كما تصارعت سفينة الرجل العجوز مع البحر وأمواجه. استطعت أن أصمد في وجه الرياح والأمواج ورحابة الحياة. كل ذلك بفضل أمر ما، أنا بنفسي دوّنته في كتابي السابق، وتمكّنت أخيراً من فهمه:

«السفينة آمنةٌ على الشاطىء. لكنها ليست من أجل ذلك صُنعت»

اليوم وأنا أجالس هذه الورقة التي أنثر عليها بضع كلمات لكي أحتفل بالعيد العشرين لنشر روايتي «الخيميائي»، أريد أن أشكر قرائي من صميم قلبي؛ فالراعي وحلمه اجتازا الحدود، واكتشفا لغات جديدة، وعبرا المحيطات. الراعي الذي كان، والراعي الذي هو أنا، انطلق في رحلة إلى الكنز، وكان، في الوقت نفسه، يدرك أن الطريق التي تقطعها لا تقل أهمية عن المكان الذي ستصل إليه. ينتهي الكتاب بهذه الكلمات:

«أنا آتٍ يا فاطمة»

جملة وسؤال ظلا معلّقين بالهواء.

آمل أن يصل الراعي إلى المكان الذي يبتغيه. لكن قبل أن يفعل ذلك آمل أن يستمتع بكل الموانىء والمدن والمناظر الطبيعية والتحديات التي تنتظره على الطريق.

ولما كنت أسير إلى جانبه، آمل أن تكون رحلتنا رحلة طويلة ملأى بالمفاجآت والدروس التي نتعلّمها.

باولو كويلو

إلى ج.

الخيميائي الذي يعرف أسرار «الإنجاز العظيم» ويستخدمها.

وفيما هم سائرون دخل قرية فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها. وكانت لهذه أخت تدعى مريم التي جلست عند قدمي يسوع وكانت تسمع كلامه، وأما مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة. فوقفت وقالت يا ربُّ، أما تبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي. فقل لها أن تعينني فاجاب يسوع وقال لها مرثا مرثا أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة. ولكن الحاجة إلى واحد. فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها.

لوقا (الفصل العاشر، الآيات ٣٨ ــ ٤٢)

مقدمة الكاتب لسلسلة
رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوّفي الإسلام، وسوف ندعوه هنا حسن، يُحتضَر، عندما سأله تلميذ من تلاميذه:

ـ من كان معلّمك ايها المعلّم؟

أجاب: «بل قل المئات من المعلمين. وإذا كان لي أن أسميهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عديدة، وربما سنوات. وسوف ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

ـ «ولكن، ألم يكن لبعضهم تأثير عليك أكبر من تأثير الآخرين؟»

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال:

«كان هناك ثلاثة في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانب كبير من الأهمية:

«أولهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم أتمكن من الوصول إلى البيت إلا في ساعة متأخرة جداً من الليل. وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت منه المساعدة، ففتح لي قفل الباب في لمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلّمني كيف فعل ذلك.

فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمل، وأكثِرْ من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، ما إذا كان قد غنم شيئاً. وكان جوابه يتّخذ، على الدوام، منوالاً واحداً لا يتغير: 'لم أوفّق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'.

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جرّاء عودته صفر اليدين. من بعدها، وخلال القسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقّق اتّصالي بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: 'لم أوفّق بشيء هذا المساء، لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'. كان ذلك يمنحني القوة على المتابعة».

ـ «ومن كان المعلّم الثاني؟»

ـ «كان كلباً. فقد حدث أن كنت متوجّهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عطشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غير انعكاس لصورته في الماء.

«دبّ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما بوسعه ليُبعد الكلب الآخر، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قرّر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة».

توقّف حسن قليلاً، ثم تابع:

ـ «أخيراً، كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيته يسير باتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب. ولما كان يقلقني أن

يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمغ يا صبي: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تشعلها؟

«ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غبيًّا. من ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظات معينة، ولكنه لا يعرف إطلاقاً أين أُشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين، أسرّ بمشاعري وأفكاري لكلّ ما يحيط بي: للسحب والأشجار والأنهار والغابات، للرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنت تلميذ الحياة، وما زلت تلميذها. لقد استقيت المعرفة وتعلمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقّعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوّف في الإسلام، أن أحد أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبيّن لي أموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ لبنان» في المنطقة نفسها التي كثيراً ما أثارت مخيلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماس لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله مني، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيراً، أن أتوجه بالشكر إلى الوكيلة ـ المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكناً، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

پاولو كويلو

مقدّمة

أمسك الخيميائي بكتاب، كان بحوزة أحد أعضاء القافلة. لم يكن للكتاب غلاف، ولكنه، مع ذلك، استطاع معرفة المؤلّف: إنه أوسكار وايلد. وفيما هو يتصفّحه، وقع على حكاية تتحدّث عن نرسيس.

كان الخيميائي يعرف أسطورة نرسيس، ذلك الفتى الجميل الذي كان يذهب، كل يوم، ليتأمّل جمال وجهه في مياه إحدى البحيرات. وكان مفتوناً بصورته، إلى درجة أنه سقط، ذات يوم، في البحيرة، ومات غرقاً. وفي المكان الذي سقط فيه، نبتت زهرة سمُيت نرسيس (نرجس).

ولكن أوسكار وايلد لا ينهي القصة على هذا النحو.

بل يقول إنه، لدى موت نرسيس، جاءت الأورياديات، ربّات الغابات، إلى ضفّة البحيرة، ذات المياه العذبة، ووجدنها قد تحوَّلت جرن دموع.

سألت الأورياديات البحيرة:

ـ لمَ تبكين؟

ـ أبكي من أجل نرسيس.

ـ إن هذا لا يدهشنا إطلاقاً. لطالما كنّا نلاحقه في الغابات، باستمرار. لقد كنت الوحيدة التي تستطيع مشاهدة جماله عن كثب.

سألت البحيرة:

ـ وهل نرسيس كان جميلاً؟

فأجابت الأوريادیات متعجّبات:

ـ من يستطيع معرفة ذلك أكثر منك. ألم يكن ينحني فوق ضفافك كل يوم؟

سكتت البحيرة لحظة دون أن تقول شيئاً. ثم أردفت:

ـ أبكي من أجل نرسيس. ولكنني لم ألاحظ، قط، أن نرسيس كان جميلاً. أبكي من أجل نرسيس، لأنني كنت، في كل مرة ينحني فيها على ضفافي، أرى انعكاس جمالي الخاص في عمق عينيه.

قال الخيميائي:

«يا لها من حكاية رائعة».



القسم الأول

اسمه سانتياغو. كان النهار على وشك أن ينتهي عندما وصل، مع قطيعه، إلى باحة كنيسة قديمة مهجورة. كان السقف قد انهار منذ زمن بعيد، ونبتت شجرة جميز ضخمة مكان الغرفة الملحقة بالمذبح.

قرَّر أن يقضي الليل في هذا المكان. أدخل كل نعاجه عبر الباب المنهدم. ووضع بعض الأخشاب على نحو يمنعها من الهرب أثناء الليل. لا توجد ذئاب في المنطقة، ولكن نعجة هربت، ذات مرة، فاضطر إلى إضاعة نهار اليوم التالي، بكامله، بحثاً عنها.

بسط رداءه على الأرض، وتَمدَّد مستخدماً الكتاب، الذي أنهى قراءته، وسادةً. قبل أن يغفو، فكَّر بأنه ينبغي له أن يقرأ، بعد الآن، مؤلفاتٍ أكثر ضخامة: بذلك يقضي وقتاً أطول قبل أن ينتهي منها، وقد تغدو وسائد أكثر راحة للنوم.

كان الظلام ما زال مطبقاً عندما استيقظ. نظر إلى الأعلى، وشاهد لمعان النجوم عبر السقف المنهدم جزئياً.

قال في نفسه:

«كنت أود أن أنام وقتاً أطول». لقد راوده الحلم ذاته الذي راوده في الأسبوع السابق، واستيقظ، من جديد، قبل نهايته.

نهض وشرب جرعة من النبيذ، ثم أخذ عصاه وراح يوقظ النعاج التي كان لا تزال نائمة. لاحظ أن غالبية ماشيته تُفيق من النوم فور إفاقته. لكأنَّ هناك طاقة غامضة توحِّد بين حياته وحياة

هذه الأغنام التي تجوب البلاد برفقته، منذ عامين، بحثاً عن الكلأ والماء. قال لنفسه هامساً: «لقد ألفتْ عاداتي، جيداً، حتى باتت تعرف مواعيدي»، ثم فكّر، بعد لحظة، أن الأمر قد يكون عكس ذلك: إنه هو بالذات يعرف مواعيد ماشيته بدقّة.

هناك، مع ذلك، بعض النعاج، التي تتأخّر في النوم. فكان يوقظها، بعصاه، الواحدة تلو الأخرى، منادياً كلًّا منها باسمها. كان على يقين أن النعاج تفهم ما يقوله. لهذا كان يقرأ لها أحياناً بعض الفقرات من الكتب التي تأثَّر بها، أو يحدّثها عن عزلة الراعي، أو عن متعته بالعيش في أجواء الطبيعة، أو يعلِّق على السلع الجديدة التي شاهدها في المدن، التي عبرها مراراً. على أنه، منذ أول أمس، لم يكن لديه أيُّ موضوع آخر للحديث معها، سوى موضوع تلك الفتاة المقيمة في المدينة. إنها ابنة أحد التّجار. لم يكن قد زار تلك المدينة إلا مرة واحدة في السنة الماضية. كان التاجر صاحب دكان للمنسوجات، وكان يحبُّ أن يُجزَّ الصوف أمام عينيه، ليتجنَّب أيَّ غشٍّ في البضاعة. وقد سبق لأحد الأصدقاء أن دلّ الراعي على الدكان، فساق القطيع إليه.



قال للتاجر: «إنني بحاجة لبيع قليل من الصوف».

كان الدكّان مكتظاً بالزبائن، فطلب التاجر إلى الراعي أن ينتظر حتى بداية المساء، فذهب الراعي وجلس على رصيف الدكان، ثم أخذ كتاباً من خُرجه.

قال صوت أنثوي إلى جانبه: «لم أكن أعلم بأن الرعاة يستطيعون قراءة الكتب».

إنها فتاة ذات ملامح أندلسية، ولها شعر أسود طويل، وعينان تذكّران، على نحو غامض، بالغزاة المغاربة القدامى.

أجاب الراعي الشاب: «إن النعاج تعلّم أشياء أكثر مما تعلّمه الكتب».

ظلّا يتحدثان أكثر من ساعتين. قالت إنها ابنة التاجر، وحكت له عن الحياة في القرية، حيث تتشابه الأيام. وحكى لها الراعي عن الريف الأندلسي، والسلع الجديدة التي شاهدها في المدن التي مرَّ بها. وكان سعيداً، لأنه ليس مجبراً دائماً، على الحديث مع النعاج.

سألته الفتاة:

ـ كيف تعلّمت القراءة؟

ـ في المدرسة، مثل جميع الناس.

ـ بما أنك تحسن القراءة، فلمَ أنت مجزد راعٍ؟

سكت الفتى لئلا يجيب عن هذا السؤال. كان على يقين أن من

الصعب على الفتاة أن تفهم. وشرع يحكي قصصاً عن أسفاره، والعينان المغربيتان الصغيرتان تتفتّحان على مداهما، أو تضيقان تحت تأثير المتعة والدهشة. وبقدْر ما كان الوقت يمرُّ، كان يتمنّى ألّا ينتهي هذا النهار أبداً، وأن يستمر والد الفتاة مشغولاً لوقت طويل، وأن يطلب إليه الانتظار لمدة ثلاثة أيام. وأدرك أنه يشعر بشيء لم يسبق أن شعر به حتى الآن: وهو رغبة البقاء في المدينة نفسها، لأن الأيام برفقة الفتاة ذات الشعر الأسود لن تكون متشابهة إطلاقاً.

ولكن التاجر جاء أخيراً وطلب إليه أن يجزَّ صوف أُربع نعاج، ثم نقده الثمن المتوجّب، ودعاه للعودة في السنة المقبلة.



لم يبق أمامه، الآن، سوى أربعة أيام ليصل إلى المدينة ذاتها. كان شديد التأثّر، وشديد القلق، في آن: ربما كانت الفتاة قد نسيته، فالرعاة الذين يعبرون من هنا لبيع الصوف كثيرون.

قال مخاطباً نعاجه:

«لا أهمية لذلك. فأنا أعرف أيضاً فتيات أخريات في مدن أخرى».

ولكنه كان يدرك في أعماقه أن الأمر أبعد من أن يكون عابراً، وأن الرعاة، مثل البحارة، ومثل التجّار المتجوّلين، متى حلّوا في مدينة، يجدوا، على الدوام، مَنْ ينسيهم متعة التجوال في العالم بكل حرية.



مع أشعة الفجر الأولى، بدأ الراعي يسوق غنمه باتجاه مشرق الشمس. قال في نفسه: «ليست النعاج بحاجة إلى اتّخاذ قرار، ربما أبقاها ذلك قريبة مني باستمرار». إن الحاجة الوحيدة للغنم هي الماء والغذاء. فما دام راعيها يعرف المراعي الخصبة في الأندلس تبقى صديقة له، حتى وإن كانت الأيام، جميعها، تتشابه بساعاتها الطويلة التي تتمطّى بين شروق الشمس وغروبها؛ وإن كانت الخراف لم تقرأ أيَّ كتاب، إطلاقاً، خلال وجودها القصير، وتجهل لغة البشر الذين يروون ما يجري في القرى. إنها تكتفي بالماء والغذاء، وهذا بالفعل كافٍ. وفي المقابل، تقدّم بسخاء صوفها ورفقتها، وأحياناً لحمها.



قال الراعي في سرّه: «وإذا تحوّلتُ، بين لحظة وأخرى، وحشاً، وأقدمت على قتلها، الواحدة تلو الأخرى، فلن تدرك ذلك إلا بعد إفناء القطيع بكامله، لأنّها تثق بي، ولأنّها توقّفت عن الوثوق بغرائزها. وهذا، كلُّه، لأنني أنا من يقودها إلى المرعى».

بدأ الفتى يستغرب أفكاره، هذه، ويجدها شاذّة. ربَّما كانت الكنيسة، مع شجرة الجميز بداخلها، مسكونة بالأرواح. أوَليس هذا ما جعل ذلك الحلم يراوده من جديد، وبات يشعر، الآن، بنوع من الغضب تجاه نعاجه، صديقاته الوفيات باستمرار؟ شرب النبيذ القليل الباقي من عشاء الأمس، وادَّثر بمعطفه. بعد ساعات قليلة، حين تغدو الشمس في كبد السماء، سوف يشتدُّ الحر إلى درجة يصعب معها سوق قطيعه إلى البرية، وهو يعرف ذلك. في هذا الوقت بالذات، تنام إسبانيا بأسرها. ويستمر الحر حتى الليل، وعليه أن يحمل معطفه طوال هذا الوقت. رغم كل شيء وعندما يبدأ بالتذمّر من عبء المعطف، يتذكّر أنّه، بفضل هذا العبء تحديداً، لم يشعر ببرد الصباح الباكر.

قال في نفسه حينئذ: «ينبغي لنا أن نعيش مستعدّين لمجابهة مفاجآت الطقس»، وتقبّل بامتنان عبء معطفه.

إن هذا المعطف، إذن، كالفتى نفسه [illegible] ما يبرز وجوده. بعد عامين من التجوال في سهول الأندلس، بات يعرف، عن ظهر قلب، كل مدن المنطقة، وهذا بالذات ما أعطى معنى لحياته: الترحال.

في نيته، هذه المرة، أن يشرح للفتاة كيف بإمكان فلّاح بسيط أن يعرف القراءة: فحتّى السادسة عشرة تردَّد إلى مدرسة إكليريكية. وكان والداه يرغبان بأن يجعلا منه كاهناً ليغدو فخراً لذويه الريفيين البسطاء، الذين يكدحون من أجل الطعام والماء، مثل خرافه تماماً. درس اللاتينية والإسبانية واللاهوت. ولكنه كان يحلم منذ نعومة أظفاره بأن يخبر الحياة، وذلك شيء أكثر أهمية من معرفة الرب وآثام البشر. وذات مساء، حين ذهب لزيارة أسرته، تسلَّح بالشجاعة، وقال لوالده إنه لن يصبح كاهناً، بل يريد أن يسافر.

قال الأب:

ـ يا بني: إن أناساً أتوا من العالم بأسره قد مرّوا بهذه القرية. أتوا إلى هنا بحثاً عن أشياء جديدة لكنهم ظلّوا على حالهم. يذهبون إلى التلة لزيارة القلعة، ويجدون أن الماضي أفضل من الحاضر. كانوا من ذوي الشعر الأشقر أو الأسود، ولكنهم كانوا مشابهين لأهل هذه القرية.

ـ ولكنني لا أعرف قلاع البلدان التي كان أولئك الناس يأتون منها.

ـ أولئك الناس يقولون، عندما يشاهدون حقولنا ونساءنا، إنهم يودّون لو يعيشون هنا دائماً.

قال الفتى، عندئذٍ:

ـ أريد أن أعرف نساءهم، والأراضي التي يأتون منها، لأنهم لا يبقون بيننا.

ـ ولكن أولئك الناس يملأ المال جيوبهم. وهُنا، ليس سوى الرعيان يشاهدون بلداناً أخرى.

ـ إذاً سوف أصير راعياً.

لم يضف الأب على ما قاله شيئاً. في اليوم التالي، أعطى ابنه ثلاث قطع ذهبية إسبانية، قائلاً:

ـ لقد وجدت هذه القطع، ذات يوم، في أحد الحقول، وكنت أفكّر بأن أقدمها للكنيسة بمناسبة سيامتك كاهناً. اشترِ بها قطيعاً من الماشية، واسرح في العالم حتى اليوم الذي تدرك فيه أن قلعتنا هي الأكثر أهمية، وأن نساءنا هنّ الأجمل.

ثم منحه بركته. قرأ الفتى في عينيْ والده رغبته، هو أيضاً، بالسفر. إنها رغبة تعيش، في أعماقه، باستمرار، رغم عشرات السنين التي حاول، خلالها، إشباع رغبته، وهو مقيم في المكان ذاته: به ينامُ كلّ ليلة، وبه يتناول طعامه وشرابه.



اصطبغ الأفق باللون الأحمر، ثم بانت الشمس. تذكَّر الفتى حواره مع والده، وشعر بالسعادة. لقد سبق له أن عرف الكثير من القلاع والعديد من النساء (ولكن ما من امرأة تشبه تلك التي تنتظره بعد يومين). لديه معطف، وكتاب يمكن أن يستبدله بآخر، وقطيع من الغنم. غير أن الأهم من ذلك كلِّه، هو أنه يحقِّق، كل يوم، حلم حياته الكبير: السفر. وعندما يملُّ من سهول الأندلس، سوف يبيع غنمه ويغدو بحاراً، وعندما يتعب من البحر، يكون قد عرف الكثير من المدن، والعديد من النساء، والكثير من الفرص التي أسعدته.

تساءل، وهو ينظر إلى الشمس البازغة: «كيف يمكننا أن نبحث عن الرب في المدرسة الإكليريكية؟». إنه يحاول أن يجد، في كل مرة يكون ذلك ممكناً، طريقاً جديدة ينتهجها، لم يأت إطلاقاً إلى هذه الكنيسة، مع أنه عبر من هنا غير مرة. إن العالم كبير، لا ينتهي، وإذا ترك خرافه تقوده لأفضى به الأمر إلى اكتشاف أشياء مثيرة للاهتمام. «المشكلة هي أنها لا تدرك بأنها تذرع، كل يوم، طرقات جديدة، ولا تدرك أبداً أن المراعي تتغيَّر، وأن الفصول تختلف. لأن شغلها الشاغل هو الغذاء والماء».

قال الراعي في سرّه: «ربَّما كان الأمر هو ذاته الذي يشغل جميع البشر، ويشغلني شخصياً، حيث ليس في رأسي أيُّ نساء أخريات منذ لقائي ابنة ذلك التاجر».

نظر إلى السماء. وبالاستناد إلى حساباته، سيبلغ مدينة طريفا قبل موعد الفطور. هناك، يمكنه أن يستبدل بكتابه كتاباً ضخماً، ويملأ قنينته بالنبيذ، ويحلق ذقنه، ويقصّ شعره، ينبغي له أن يكون لائقاً لكي يقابل الفتاة، ولا يريد أن يتصوّر أن ثمّة راعياً آخر قد وصل قبله، مع عدد أكبر من الخراف، لكي يطلب يدها.

قال في نفسه: «تلك، بالضبط، إمكانية تحقيق حلم يجعل الحياة جميلة»؛ وكان يرفع نظره، من جديد، نحو السماء، حاثّاً خطاه. وسرعان ما تذكّر، أن في طريفا إمرأة عجوزاً تعرف تفسير الأحلام. وفي ليلته هذه، راوده الحلم ذاته الذي راوده من قبل.



قادت المرأة العجوز الراعي الفتى، داخل منزلها، إلى غرفة تفصلها عن الصالة ستارة بلاستيكية متعددة الألوان. في الغرفة طاولة، وصورة قلب يسوع، وكرسيّان.

جلست العجوز وطلبت إليه الجلوس. ثم أخذت يديه بين يديها، وراحت تصلّي بصوت خفيض.

صلاتها تشبه صلاةً غجرية. لقد سبق له أن التقى العديد من الغجر في طريقه. إن الغجر يتجوّلون، هم أيضاً، ولكنهم لا يهتمون بالمواشي. وثمّة شائعة تقول إن الغجري هو شخص يقضي وقته في خداع الناس. ويقال، أيضاً، إنهم عقدوا حلفاً مع الشيطان، وإنهم يسرقون الأطفال ليجعلوا منهم عبيداً في مخيّماتهم المريبة. عندما كان صغيراً، كان يخاف باستمرار أن يسرقه الغجر. وقد عاد إليه هذا الخوف، حين أمسكت العجوز بيديه.

حاول أن يطمئن نفسه: «ولكن توجد هنا صورة قلب يسوع». لا يريد أن ترتجف يده، وأن تلاحظ العجوز خوفه. تلا بصمت «أبانا الذي في السموات».

قالت العجوز، دون أن تبعد عينيها عن يد الفتى: «شيء مهم....». ثم سكتت من جديد.

شعر أنه يتوتّر أكثر فأكثر، وبدأت يداه ترتجفان رغماً عنه، ولاحظت العجوز ذلك، فسحب يديه بسرعة.

قال في نفسه: «لم آت إلى هنا لقراءة خطوط الكف»، وهو نادم

على دخوله هذا المنزل. بعد لحظة فكَّر أن من الأفضل له أن يدفع ثمن الاستشارة، ويغادر دون أن يعرف شيئاً. لا شك في أنه يعلّق الكثير من الأهمية على حلم يعاوده.

قالت العجوز، حينئذٍ:

«لقد جئت تسألني عن الأحلام. إن الأحلام هي لغة الرب. عندما يتكلم الرب بلغة العالمين، أستطيع تفسير كلامه. ولكن عندما يتكلّم بلغة روحك، فليس هناك، عندئذ، أحد سواك يستطيع الفهم. في كل حال، ينبغي لك أن تدفع لي ثمن الاستشارة».

ظنّ الفتى أن ذلك حيلة أخرى. ولكنه قرَّر، رغم ذلك، أن يجازف. إن الراعي معرَّض، باستمرار، لخطر الذئاب أو الجفاف، وهذا ما يجعل عمله أكثر إثارة.

فقال للمرأة:

«لقد راودني الحلم ذاته، مرتين متتاليتين. وجدت نفسي، مع نعاجي، في أحد المراعي، وإذا بطفل يظهر ويلعب مع الحيوانات. لا أحب أن يأتي أحد ليلهو مع نعاجي، لأنها تشعر ببعض الخوف من الناس الذين لا تعرفهم. ولكن من دأب الأطفال أن يأتوا ليلهوا معها دون أن تشعر بالخوف منهم. لست أدري سبب ذلك، ولست أدري كيف تستطيع الحيوانات أن تعرف أعمار البشر.

قالت العجوز:

ـ عُدْ إلى حلمك، لقد وضعتُ قِدراً على النار. وأنت، بالمقابل، لا تملك الكثير من المال، فلا تُشغل وقتي كلّه.

تابع الراعي، وهو محرج قليلاً:

ـ استمر الطفل يلهو مع النعاج فترة من الوقت. وفجأة أمسك بيدي وقادني حتى أهرامات مصر.

توقَّف عن الكلام، لحظة، ليرى هل تفهم العجوز معنى كلمة الأهرامات. ولكنها بقيت صامتة.

«عند ذلك، وأمام أهرامات مصر (لفظ «أهرامات مصر» بوضوح لكي تتمكّن العجوز من الفهم)، قال الطفل لي: إذا جئت إلى هنا سوف تجد كنزاً مخبوءاً. وفي اللحظة التي عمد فيها إلى تحديد المكان بالضبط، استيقظت. جرى ذلك في المرتين».

بقيت العجوز صامتة بعض الوقت، ثم أمسكت بيديْ الفتى من جديد وقرأتهما بانتباه.

«لن آخذ منك مالاً الآن، ولكنني أريد عُشر الكنز في حال عثورك عليه».

انطلق الفتى يضحك من الفرح.

سيوفّر ما بحوزته من دراهم قليلة، بفضل حلم يتعلّق بكنز مخبوء. لا شك في أن هذه العجوز الساذجة غجرية. إن الغجر أغبياء.

سألها الفتى:

«كيف تفسرين هذا الحلم، إذن؟».

ـ يجب أن تُقسم، أوّلاً، على إعطائي عُشر الكنز مقابل ما أقوله لك.

ـ أقسم.

وطلبت إليه العجوز أن يكرّر القسم، وعيناه مثبتتان على صورة قلب يسوع المقدس.

وقالت له:

«إنه حلم بلغة العالمين، ويمكنني تفسيره، لكن بصعوبة بالغة. لذلك يبدو لي أنني أستحق حصّتي مما سوف تجده.

«أنصتْ إلى التفسير: يجب أن تذهب إلى أهرامات مصر، التي لم أسمع أحداً يحدثني عنها، ولكن إذا كان من أراك إياها طفلاً، فإنها قائمة بالفعل؛ وهناك سوف تعثر على الكنز الذي يجعلك ثريّاً.

فوجئ الفتى، في البداية، ثم شعر بالسخط. لم يكن مضطراً أن

ياتي ويقابل هذه المرأة لأمر تافه كهذا، ولكن تذكّر أنه لن يدفع شيئاً. فقال لها:

ــ إذا كان الأمر مثلما تقولين، فلست بحاجة لإضاعة وقتي.

ــ أرأيت! لقد قلت لك إن حلمك يصعب تفسيره. إن الأشياء البسيطة هي الأكثر غرابة. والعلماء، وحدهم، يستطيعون إدراكها. وبما أنني لست واحدة منهم، فينبغي لي أن أستعين بفنون أخرى: القراءة في الكف، مثلاً.

ــ وماذا أفعل حتى أذهب إلى مصر؟

ــ مهمّتي تفسير الأحلام، وليس بمقدوري تحويلها حقيقة. لهذا السبب أراني مضطرة للعيش ممَّا تعطيني إياه بناتي.

ــ وإذا لم أبلغ مِصر؟

ــ عند ذلك، لن أحصل على شيء؛ ولن تكون هذه المرّة الأولى.

لم تضف العجوز شيئاً، بل طلبت إلى الفتى أن يغادر، لأنه أضاع الكثير من وقتها.



غادر الفتى خائباً، وعازماً على عدم الاعتقاد بالأحلام إطلاقاً. تذكّر أن عليه القيام بعدة أعمال: شراء ما يأكله، واستبدال كتاب أضخم حجماً بكتابه، والجلوس على مقعد، في الساحة، ليتذوّق، قدر ما يشاء، النبيذ الجديد الذي اشتراه. إنه نهار شديد الحرارة، والنبيذ قادر، بأحد أسراره العصيّة، على إنعاشه قليلاً. وكان قد أودع قطيع أغنامه حظيرة، عند مدخل المدينة، تخصّ صديقاً له. إنه يعرف العديد من الناس في هذه الأنحاء. ولهذا السبب بالذات يحب السفر، لأن السفر يساعدنا، باستمرار، على اكتساب أصدقاء جدد، دون أن نكون مضطرين إلى البقاء معهم يوماً بعد يوم. عندما نشاهد دائماً الأشخاص أنفسهم مثلما كانت الحال في المدرسة الإكليريكية، فسوف يؤدي ذلك إلى اعتبارهم جزءاً من حياتنا. وإذا بهم يحاولون تغييرها، في نهاية المطاف. لم نكن مثلما يتمنّون أن يرونا، يستاؤون، لأن الناس، جميعهم، يعتقدون بأنهم يعرفون، بالضبط، كيف ينبغي لنا أن تكون حياتنا.

ولكن لا أحد يعرف، إطلاقاً، كيف ينبغي له أن يعيش حياته. فجميعهم أشبه بامرأة حاملة، تجهل كيف تجسّد أحلامها.

قرَّر الانتظار حتى تنخفض الشمس قليلاً، قبل أن يذهب إلى البراري مع نعاجه. بعد ثلاثة أيام سيرى، من جديد، ابنة التاجر.

باشر قراءة الكتاب الذي زوّده به كاهن طريفا. إنه كتاب ضخم. ومنذ الصفحة الأولى، طالعته جنازة. ثم هناك، فوق ذلك،

أسماء الشخصيات، المعقّدة جداً. فإذا أتيح له، يوماً، أن يؤلّف كتاباً، فسوف يعرّف الشخصيات، شخصية إثر أخرى، لكي يجنّب القرّاء مشقّة حفظ أسمائهم جميعها، دفعة واحدة.

وفي حين بدأ يركّز تفكيره على القراءة، (لا سيما وأن الدفن يجري في الثلج ما يعطيه إحساساً بالطراوة تحت هذه الشمس الحارقة)، جلس رجل عجوز إلى جانبه، وراح يحاوره.

قال الشيخ، وهو يشير إلى العابرين في الساحة: «ماذا يفعل هؤلاء الناس؟».

أجاب الراعي بجفاء: «إنهم يعملون». وتظاهر بالانهماك في ما يقرأ. ولكنه كان، في الحقيقة، يفكر بأنه سوف يذهب ليجزّ صوف أغنامه أمام ابنة التاجر، لكي تكون على قناعة بأنه قادر على إنجاز أعمال مهمة. وقد سبق له أن تصوَّر ذلك المشهد عشرات المرات. وكان يرى الفتاة تعجب عندما يشرح لها أن جزَّ صوف الأغنام يبدأ من الوراء إلى الأمام. كما حاول أيضاً أن يتذكّر بعض الحكايات الجميلة ليرويها لها، وهو يجزُّ الصوف. وهي، في الغالب، حكايات قرأها في الكتب، ولكنه سوف يرويها كما لو أنه عاشها بالفعل. لن تدرك الفارق، لأنها لا تحسن القراءة.

بيد أن الرجل الشيخ ألحَّ، وقال إنه متعب وعطشان، وطلب أن يشرب جرعة من النبيذ، فقدّم له الفتى قنينته، على أمل أن يتركه بسلام.

ولكن الشيخ كان يرغب في الثرثرة بأيّ ثمن. سأل الفتى عن الكتاب الذي كان منصرفاً إلى قراءته. بيد أن الفتى فكّر أن يتصرّف على نحو فظّ ويغيّر المقعد؛ ولكن والده كان قد علّمه أن يحترم المسنّين. عند ذلك، قدَّم الكتاب إلى الرجل العجوز، لسببين اثنين: الأول، أنه وجد نفسه عاجزاً عن النطق بالعنوان، والثاني، أن الشيخ، إذا كان يجهل القراءة، فسوف يعمد إلى تغيير مقعده لئلا يشعر بالمهانة.

همهم الشيخ، وهو يتفحَّص الكتاب من مختلف جوانبه، كما لو أنه شيء نادر، فقال: «إنه كتاب مهم ولكنه مملٌّ جداً».

فوجئ الفتى كثيراً، فالعجوز يحسن القراءة، وسبق له أن قرأ هذا الكتاب بالذات. إذا كان كتاباً مملًّا، فلديه متّسع من الوقت لاستبداله.

تابع الشيخ:

«إنه كتاب يتناول، كمعظم الكتب، الشيء ذاته، أي عجز الناس عن اختيار مصيرهم الخاص. وفي النهاية، يحمل على الاعتقاد بأكبر خديعة في العالم».

سأل الفتى مندهشاً:

ـ وما هي أكبر خديعة؟

ـ في لحظة معيّنة من وجودنا، نفقد السيطرة على حياتنا، فتغدو، منذ ذلك، مسوقة بالقدر. ههُنا تكمن أكبر خديعة في العالم.

ـ لكن لم يجرِ الأمر معي على هذا النحو. لقد أرادوا أن يجعلوني كاهناً، غير أنني قررت أن أغدو راعياً.

ـ هذا أفضل لك، لأنك تحب السفر.

قال سانتياغو في نفسه: «لقد حَزِر أفكاري».

في هذا الوقت، كان الشيخ منصرفاً إلى تصفّح الكتاب دون أدنى نية بإعادته. وقد لاحظ الفتى أن الشيخ يرتدي زيّاً غريباً، كما أن سيماه تدلّ على أنه عربي، وهذا لا يبدو مستغرباً في هذه المنطقة، ذلك أن أفريقية تقع على مسافة ساعات قليلة من طريفا، يكفي لبلوغها اجتياز المضيق بالمركب. وغالباً ما يأتي عرب للتسوق في هذه المدينة، ويُشاهدون، وهم يؤدون صلاتهم غير مرة في اليوم.

سأل الفتى:

ـ من أين أنت؟

ـ من عدة أماكن.

ـ لا أحد يستطيع أن يكون من عدة أماكن، فأنا راع، ويمكنني أن أتواجد في أماكن مختلفة، ولكنني أنتمي إلى مكان واحد: مدينة مجاورة لقلعة قديمة، حيث ولدت.

ـ إذن، لنقل أنني ولدت في سالم.

لا يعرف الفتى أين تقع سالم، ولكن لم يشأ أن يستوضح لكي لا يُحرَج، لجهله. شَرَع ينظر إلى الساحة، فترةً: الناس يروحون ويجيئون ويبدون منشغلين للغاية.

سأل أخيراً، سعياً منه للحصول على إشارة ما:

ـ كيف هي الحال، في سالم؟

ـ مثلما هي دائماً وأبداً.

لا يحمل هذا الجواب اي إشارة. لقد عرف، على الأقل، أن سالم ليست في الأندلس، وإلا لكان سمع بها.

ـ وماذا تفعل في سالم؟

«ماذا أفعل في سالم؟» قالها الشيخ وهو يضحك، لأول مرّة، من الأعماق. وتابع: «إنني ملك سالم، يا له من سؤال!».

كثيراً ما يتفوّه الناس بأشياء مستهجنة. لعل من الأفضل، أحياناً، أن نعيش مع النعاج الخرساء التي تكتفي بالبحث عن الغذاء والماء، أو مع الكتب التي تروي أشياء خيالية عندما نكون راغبين بمعرفتها. ولكننا عندما نتكلّم إلى الناس، فإنهم يقولون بعض الأشياء التي تجعلنا عاجزين عن متابعة الحوار.

قال الشيخ:

ـ اسمي ملكي صادق. كم تملك من الخراف؟

ـ أملك ما يكفي.

لا بدَّ أن الشيخ أراد أن يعرف المزيد عن حياته:

ـ في هذه الحال، لدينا مشكلة. لا أستطيع مساعدتك ما دمت تفكّر أن لديك ما يكفي من الخراف.

بدأ الفتى يشعر بالانزعاج، فهو لم يطلب أي مساعدة، بل إن الشيخ هو من طلب منه النبيذ، وأراد التحدّث، وأبدى اهتماماً بكتابه.

قال:

ـ أعدْ لي هذا الكتاب. ينبغي أن أذهب إلى خرافي وأكمل طريقي.

ـ أعطني عُشر القطيع، وسأعلمك كيف تبلغ مكان الكنز المخبوء.

لدى سماعه ذلك، تذكَّر الفتى حلمه من جديد. وفجأة، بدا كلُّ شيء واضحاً. فالمرأة العجوز لم تأخذ منه شيئاً، ولكن هذا الشيخ (ربّما كان زوجها) يحاول أن يحصل على ما لم تحصل عليه، مقابل نبوءة. قد يكون غجرياً، هو أيضاً.

بيد أن الشيخ، قبل أن ينطق الفتى بكلمة، انحنى والتقط قشّة، وراح يكتب على رمل الساحة، ولدى انحنائه لمع شيء ما على صدره لمعاناً شديداً جعل عينيْ الفتى تنبهران، ولكن الشيخ، بحركة سريعة، لا تلائم سنه، جمع أطراف معطفه على جسده، فزال الانبهار من عيني الفتى، وبات باستطاعته أن يقرأ ما يكتبه العجوز.

على رمل الساحة الرئيسة للمدينة الصغيرة، قرأ اسم والده واسم والدته. وقرأ مسيرة حياته حتى هذه اللحظة، بما في ذلك ألعاب طفولته، والليالي الباردة في المدرسة الإكليريكية؛ قرأ أشياء لم يكن قد ذكرها أمام أحد إطلاقاً، مثل تلك الحادثة، حين سرق بندقية والده ليصطاد الأيائل، أو تجربته الجنسية الأولى بمفرده.

قال الشيخ: أنا ملك سالم.

سأله الفتى، بضيق ودهشة كبيرة:

ـ لِمَ يتكلّم ملك إلى راعٍ؟

ـ هناك عدة أسباب لذلك، ولكن لنقل السبب الأكثر أهمية، وهو أنك استطعت إنجاز **أسطورتك الشخصية**.

لم يفهم الفتى ما الذي تعنيه عبارة **الأسطورة الشخصية**.

«هي ما تمنيت، باستمرار، أن تفعله. إن كلًّا منا يعرف، في مطلع شبابه، ما هي **أسطورته الشخصية**.

«ففي تلك المرحلة من الحياة، يكون كل شيء واضحاً وممكناً، ولا نخاف أن نحلم بكل ما نحبّ أن نفعله في الحياة. بيد أن قوة غامضة تحاول، مع مرور الوقت، أن تثبت أن من المستحيل تحقيق **أسطورتنا الشخصية**».

لم يجد الراعي في ما قاله الشيخ معنىً مهماً، ولكنه أراد أن يعرف ما هي تلك «القوى الغامضة» التي ستُذهل ابنة التاجر لدى سماعها.

«إنها تبدو قوى سيئة، ولكنها تعلّمك كيف تحقق **أسطورتك الشخصية**، وهي التي تهيّئ عملك وإرادتك، لأن هناك حقيقة كبرى في هذا العالم: أيّاً تكن، ومهما تفعل، عندما ترغب حقاً بشيء ما، فإن تلك الرغبة تولد من روح الكون. هذه هي مهمتك على الأرض.

ـ حتى وإن كنا فقط راغبين بالسفر؟ أو بالزواج من ابنة تاجر المنسوجات؟

ـ «أو بالبحث عن كنز. إن روح الكون تغتذي بسعادة البشر، أو بشقائهم ورغباتهم وحسدهم. إن إنجاز **الأسطورة الشخصية** هو الواجب الوحيد المفروض على البشر. ليس الكلُّ سوى شيء واحد.

«وعندما ترغب في شيء ما، فإن الكون بأسره يطاوعك على القيام بتحقيق رغبتك».

سكتا لحظة يتأمّلان، خلالها، الساحة والمارة. ثم قطع الشيخ الصمت قائلاً:

ــ لماذا تحتفظ بالخراف؟

ــ لأنني أحب الترحال.

أشار الرجل إلى بائع للفشار، يقف بعربته الحمراء، على ناصية الساحة:

«رافقت طفولة هذا الرجل رغبة في السفر. ولكنه فضَّل أن يشتري عربةً صغيرة ليبيع الفشار، ويجمع المال، طوال سنوات عدة. حتى إذا غدا شيخاً، يذهب لقضاء شهر في أفريقية. لم يدرك، إطلاقاً، أننا نملك، دائماً، إمكانية تحقيق ما نحلم به».

فكَّر الفتى بصوت مسموع:

ــ كان عليه أن يختار مهنة الرعي.

ــ لقد فكَّر بالأمر فعلاً، ولكن بائعي الفشار أهم بكثير من الرعيان، لأن لهم مساكن يأوون إليها، في حين ينام الرعيان في العراء. والناس يفضّلون تزويج بناتهم لبائعي الفشار، أكثر منهم للرعاة.

شعر الفتى بانقباض في صدره، وهو يفكر بابنة التاجر. ذلك أن المدينة التي تعيش فيها، هناك، لا بُدَّ أن يكون فيها بائع فشار.

«وأخيراً، فإن ما يفكّر الناس فيه، بشأن بائعي الفشار، والرعيان، يغدو، بنظرهم أكثر أهمية من **الأسطورة الشخصية**».

فتح الشيخ الكتاب وتسلّى بقراءة إحدى صفحاته. انتظر الراعي قليلاً، ثم قاطعه بنفس الطريقة التي قاطعه بها:

ــ لمَ تقول لي هذه الأشياء؟

ــ لأنك تحاول أن تعيش **أسطورتك الشخصية**، ولأنك على وشك أن تعدل عن ذلك.

ـ وهل تعلن ظهورَك دائماً في مثل هذه اللحظات؟

ـ ليس بهذا الشكل دائماً، ولكنني لا أتخلَّف عن الظهور إطلاقاً. أحياناً أظهر في شكل فكرة جميلة. وأحياناً أخرى، وفي لحظة حاسمة، أتصرّف على نحو تغدو الأمور، معه، أكثر سهولة، وهكذا، ولكن معظم الناس لا يلاحظون شيئاً.

وحكى أنه اضطُرَّ، في الأسبوع الماضي، أن يظهر، لمنقِّب، في شكل حجر. ذلك أن الرجل تخلَّى عن كل شيء لينصرف إلى البحث عن الزُمرُّد. واستمر يبحث، طوال خمس سنوات على ضفاف أحد الأنهار، حيث كسر ٩٩٩ ٩٩٩ حجراً، محاولاً العثور على زمردة، دون جدوى. ففكَّر، عندئذ، بالتوقف عن البحث، ولم يكن ينقصه سوى حجر واحد ليجد زمردته. وبما أنه كان يراهن على **أسطورته الشخصية**، فقد قرَّر الشيخُ التدخل، فتحوّل حجراً يتدحرج عند قدميْ المنقِّب. لكن المنقِّب تحت تأثير الغضب، وبسبب شعوره بالإحباط بعد خمس سنوات راحت سدى، قذف الحجر بعيداً، وبقوّة أدّت، لدى اصطدامه بحجر آخر، إلى انفلاقه، فإذا، بداخله، أجمل زمرّدة في العالم.

قال الشيخ، وبعينيه*مسحة من المرارة:

«إن الناس يدركون، في سن مبكرة، الغاية من وجودهم، وربما كمن هذا السبب ذاته وراء تخلّيهم المبكر عنها. ولكن هكذا يسير العالم».

تذكّر الفتى، عندئذ، أن الحوار انطلق من موضوع الكنز المخبوء.

تابع الشيخ:

ـ إن السيل الجارف هو الذي يكشف الكنوز وهو الذي يدفنها في آن. إذا كنت تريد أن تعرف المزيد عن كنزك فينبغي لك إعطائي عِشر قطيعك.

ـ ألا ترضى بعشر الكنز؟

بدا الشيخ خائباً،

ـ إذا وعدت بما لم تملكه بعد، فسوف تفقد الرغبة في الحصول عليه.

فأجابه الفتى أنه وعد الغجرية بعشر الكنز.

عقّب الشيخ قائلاً،

ـ الغجر ماكرون. وفي كل حال، فإن من المستحسن أن تدرك أن لكل شيء في الحياة ثمنه. وهذا ما يحاول محاربو الضوء تعليمه.

وأعاد الكتاب إلى الفتى.

وقبل أن يختفي في إحدى زوايا الساحة، قال له،

«غداً، في مثل هذا الوقت تأتيني بعشر قطيعك، وسوف أشرح لك كيف تنجح بالعثور على كنزك المخبوء. عمت مساء».



حاول الفتى العودة إلى القراءة، ولكنه لم يستطع التركيز. كان مستثاراً ومتوتّراً، لأنه يعرف أن الشيخ يقول الحقيقة. ذهب إلى البائع المتجوّل، واشترى منه كيس فشار، وتساءل: هل ينبغي أن يحكي له ما قاله الشيخ أم لا؟ ارتأى أن تترك الأمور أحياناً على ما هي عليه، ولم يقل شيئاً. إذا حدَّثه عن ذلك، فقد يقضي البائع ثلاثة أيام يفكِّر ليعرف: هل سيترك كل شيء رغم أنه قد ألف، إلى حدٍّ بعيد، عربته الصغيرة؟

بوسعه أن يجنِّب البائع هذا الشك الموجع. انطلق يتجوّل في المدينة حتى بلغ المرفأ. ثمة مبنى صغير ذو نافذة خاصة يؤمّها الناس لشراء تذاكر السفر. إن مصر تقع في أفريقية.

سأله موظف شباك التذاكر: «أتريد شيئاً؟».

أجاب وهو يبتعد: «ربَّما غداً». بثمن نعجة واحدة يستطيع العبور إلى الضفة الأخرى من المضيق. أرعبته هذه الفكرة.

وفي حين أن الفتى كان يبتعد، قال موظف شباك التذاكر لزميله:

«إنه حالم آخر لا يملك ثمن تذكرة السفر».

عندما كان أمام شباك التذاكر، فكَّر بخرافه، إنه يخاف من العودة إليها. لقد تعلَّم، خلال هاتين السنتين، كل شيء عن تربية الغنم. وهو يتقن جزَّ الصوف، والعناية بالنعاج الحوامل، وحماية

قطيعه من الذئاب، ويعرف كل حقول الأندلس ومراعيها، كما يعرف ثمن المبيع وثمن الشراء لكل من بهائمه.

قرر العودة إلى حظيرة صديقه عبر الطريق الأطول. لهذه المدينة قلعتها أيضاً، وهو يودّ تسلّق المنحدر الصخري والجلوس على السور. باستطاعته أن يرى، من علٍ، أفريقية. لقد قال له أحدهم، ذات يوم، إن العرب جاؤوا من هناك، وفتحوا معظم إسبانيا لزمن طويل. إنه يحسب أن العرب هم الذين جاؤوا بالغجر.

ومن علٍ يستطيع، أيضاً، أن يشاهد القسم الأكبر من المدينة، بما في ذلك الساحة التي تحادث فيها مع الرجل العجوز.

قال الفتى في نفسه: «اللعنة على الساعة التي التقيت، فيها، ذلك الشيخ». لقد ذهب ببساطة، ليقابل امرأة قادرة على تفسير الأحلام. لكن لا المرأة ولا هذا الشيخ أبديا اهتماماً بكونه راعياً. إنهما شخصان منعزلان لا يأبهان لأيِّ أمر من أمور الحياة، ولا يفهمان أن الرعيان ينتهي بهم الأمر إلى التعلّق بماشيتهم. إنه يعرف كل واحدة، بمفردها، من ماشيته، ويعرف إذا كانت إحداها تعرج، وتلك التي ستلد بعد قليل؛ ويميّز الأغنام الكسولة؛ كذلك يتقن أيضاً جزّ صوفها، وذبحها. إذا قرر الرحيل، فسوف تتألّم لفراقه.

بدأت الرياح تهبّ. إنه يعرف هذه الرياح، فهي تدعى الرياح الشرقية، لأنها، هي بالذات، التي جاءت معها العصابات. قبل أن يتعرّف إلى مدينة طريفا لم يكن يتصور أفريقية قريبة إلى هذا الحدّ. وهذا يشكّل خطراً كبيراً؛ إذ باستطاعة المغاربة غزو البلاد من جديد.

ازداد عصف الريح. وقال في نفسه: «أنا حائر بين أغنامي والكنز». يجب أن يقرر، أن يختار بين شيء تعوّده وشيء يودّ، بشغف، الحصول عليه. ثم هناك ابنة التاجر، ولكنها ليست بأهمية النعاج، لأنها غير مرتبطة به. وهو على يقين بأن الفتاة إذا لم

تشاهده، بعد يومين، لن تولي الأمر كبير أهمية: فهي ترى جميع الأيام متشابهة. وإذا تشابهت الأيام، هكذا، فذلك يعني أن الناس توقّفوا عن إدراك الأشياء الجميلة التي تمثُل في حياتهم، ما دامت الشمسُ تعبر السماء.

قال في نفسه: «تركت أبي، وأمي، وقلعة المدينة حيث وُلدت. وقد تعوّدا غيابي، كما تعوّدت غيابهما. والأغنام، أيضاً، سوف تألف غيابي».

تأمّل، من علٍ، الساحة. ما زال البائع المتجوّل يبيع الفشار، في حين أن المقعد، الذي جمعه بحديث إلى الشيخ، قد شغله شاب وفتاة مستغرقَين في قبلة طويلة.

همس في نفسه: «بائع الفشار...» دون أن يكمل الجملة، لأن الريح الشرقية تعصف بقوة، ويشعر بعصفها على وجهه. إنها تأتي بالمغاربة، بلا ريب، ولكنها تحمل أيضاً رائحة الصحراء والنساء المحجبات، وتحمل العرق وأحلام الرجال الذين انطلقوا، ذات يوم، للبحث عن المجهول والذهب والمغامرات، و... عن الأهرامات. بدأ الفتى يغبط الرياح على حريتها، وقد أدرك أن باستطاعته أن يغدو حراً مثلها. لا شيء يمنعه عن ذلك، اللهمَّ إلا نفسه بالذات.

إن النعاج وابنة التاجر وحقول الأندلس، ليست سوى مراحل من **أسطورته الشخصية**.



في ظهيرة اليوم التالي التقى الفتى الشيخ، ومعه الخراف الستة وقال له: «إنني مندهش، لقد اشترى صديقي القطيع على الفور. قال لي إنه كان يحلم طوال حياته بأن يغدو راعياً. إنها إشارة طيبة».

ــ هكذا هو الأمر دائماً. هذا ما نسميه **المبدأ الملائم**. إذا لعبت الورق، لأول مرة، فسوف تربح حتماً. إنه حظ المبتدئ.

ــ لِمَ ذلك؟

ــ لأن الحياة تريدك أن تعيش **أسطورتك الشخصية**.

ثم راح يعاين الخراف الستة، واكتشف أن أحدها يعرج. فقال له الفتى أن لا أهمية لذلك، وأن هذا الخروف أذكى خرافه، ويعطي الكثير من الصوف.

ثم سأل الشيخَ: «أين يوجد الكنز؟».

ــ الكنز في مصر، على مقربة من الأهرامات.

اعترت الفتى رجفةٌ. لقد قالت له المرأة العجوز الشيء نفسه، ولكنها لم تتقاضَ أجراً.

«لكي تصل إلى الكنز، ينبغي لك أن تنتبّه إلى الإشارات. لقد كتب الربُّ، في العالم، لكلٍّ منّا الطريق التي يجب عليه اتّباعها. ومهمتك تقتصر على قراءة ما كُتب لك».

قبل أن يقول الفتى شيئاً ما، طارت فراشة بينه وبين الشيخ. تذكَّر جدَّه الذي أخبره، عندما كان طفلاً، أن الفراشات فأل

حسن. كذلك هي الجداجد، والجراد الأخضر اللون، والعظايات الصغيرة الرمادية اللون، والنفل ذات الأربع وريقات.

قال الشيخ، القادر على قراءة أفكاره:

«هذا صحيح، تماماً مثلما قال لك جدُّك. تلك هي الإشارات».

ثم فتح المعطف الذي يغطّي ملابسه، فدهش الفتى ممّا شاهده، حينذاك، وتذكَّر البريق الذي بهره يوم أمس. ذلك أن الشيخ يرتدي صدرية من الذهب الخالص، ترصّعها الأحجار الكريمة.

إنه ملك بالفعل. لا ريب أنه متنكّر، على هذا النحو، لينجو من اللصوص.

قال الشيخ، وهو ينتزع درّة بيضاء ودرّة سوداء من وسط الصدرية: «خذهما، إنهما تدعيان **أوريم وتوميم**. السوداء تعني «نعم»، والبيضاء تعني «لا». وعندما تعجز عن اكتشاف مواضع الإشارات، تساعدانك. ولكن ليكن سؤالك موضوعيًا باستمرار.

«حاولْ، إجمالاً، أن تتّخذ قراراتك بنفسك. إن الكنز موجود على مقربة من الأهرامات، وهذا أمر سبق أن عرفته، ولكنك اضطررت إلى إعطائي الخراف الستة لأنني أنا، من ساعدك على اتخاذ قرار».

خبّأ الفتى الدرّتين في خُرجه. سوف يتّخذ، من اليوم فصاعداً، قراراته بنفسه.

«لا تنسَ: ليس الكل إلا واحداً، ولا تنس لغة الإشارات، ولا تنس، خصوصاً، الذهاب إلى نهاية **أسطورتك الشخصية**.

«وأودّ، قبل أن نفترق أن أروي لك هذه الحكاية القصيرة:

«أرسل أحد التجار ابنه لكي يتعلّم سرَّ السعادة من أكبر حكيم بين البشر. سار الفتى، طوال أربعين يوماً، في الصحراء قبل أن يصل، أخيراً، إلى قصر جميل يقع على قمة جبل، حيث يعيش الحكيم الذي يبحث عنه. «وبدل أن يلتقي رجلاً قدّيساً، دخل قاعة تعجّ بالحركة والناس: تجار يدخلون ويخرجون، وأناس يثرثرون في

إحدى الزوايا، وجوقة تعزف قطعاً موسيقية عذبة، ومائدة حافلة بأشهى أطعمة هذه المنطقة من العالم. وكان الحكيم يتكلّم إلى هؤلاء وأولئك، فاضطر الفتى أن يصبر ساعتين كاملتين قبل أن يحين دوره.

«استمع الحكيم، بانتباه، إلى الفتى وهو يشرح سبب زيارته، لكنه قال أن لا وقت لديه، الآن، ليكشف عن سر السعادة. واقترح على الفتى أن يقوم بجولة في القصر، وأن يعود إليه بعد ساعتين.

«وأضاف الحكيم، وهو يعطي الفتى ملعقة صغيرة فيها نقطتا زيت: 'بيد أنني أريد منك أثناء تجوالك أن تمسك بهذه الملعقة، على نحو لا يؤدّي إلى انسكاب الزيت منها'.

«بدأ الفتى يصعد وينزل على سلالم القصر مثبتاً عينيه، باستمرار، على الملعقة. وعاد بعد ساعتين إلى مقابلة الحكيم.

«سأله الحكيم: هل شاهدت السجاجيد الفارسية في غرفة طعامي؟ هل شاهدت الحديقة التي استغرق إنشاؤها عشر سنوات على يد أمهر بستاني؟ هل لاحظت الرقّ الجميل في مكتبتي؟

«اعترف الفتى، مرتبكاً، أنه لم يشاهد شيئاً، بل كان همّه الوحيد عدم انسكاب نقطتيْ الزيت اللتين عهد الحكيم بهما إليه.

«فقال الحكيم: حسناً عُدِ، الآن، وتعرَّف إلى روائع عالمي الخاص. لأننا لا نستطيع الوثوق برجل، إذا نحن لم نتعرّف إلى المنزل الذي يسكنه.

«أخذ الفتى الملعقة، وقد غدا أكثر ثقة بنفسه، وعاد يتجوّل في القصر، مولياً انتباهه، هذه المرة، إلى شتى التحف الفنية المعلّقة على الجدران، وعلى السقوف. وشاهد الحدائق والجبال المحيطة بها، وأناقة الأزهار، ورهافة الذوق في وضع كل تحفة فنية في المكان الذي يلائمها. ولدى عودته إلى الحكيم، تحدَّث بدقّة عن كل ما شاهده. وحين سأله الحكيم: أين هما نقطتا الزيت اللتان عهدت بهما إليك؟ أدرك الفتى، وهو ينظر إلى الملعقة، حينذاك، ضياعهما.

«عندئذ، قال حكيم الحكماء: تلك هي النصيحة الوحيدة التي يمكنني أن أسديها إليك: إن سرَّ السعادة هو في أن تشاهد كل روائع الدنيا دون أن تنسى، إطلاقاً، نقطتيْ الزيت في الملعقة».

استمرَّ الراعي صامتاً. لقد فهم حكاية الملك العجوز. فبمقدور الراعي أن يحبَّ الأسفار، ولكن دون أن ينسى نعاجه إطلاقاً.

نظر الشيخ إلى الفتى، ورسم، براحتيه المفتوحتين، حركات غريبة فوق رأسه، ثم جمع الخراف الستة، وغادر.



ثمة حصن قديم، بناه المغاربة، يشرف على مدينة طريفا الصغيرة. ومن يجلس على أسواره، يمكنه مشاهدة ساحة عامة، وبائع فشار، وبقعة من أفريقية.

جلس ملكي صادق، ملكُ سالم، ذلك المساء، على أسوار الحصن، وشعر بهبوب الريح، التي تُدعى شرقية، على وجهه. وكانت النعاج، قربه، لا تكفُّ عن التحرك، إنها قلقة، ومضطربة جرّاء استبدال راعيها، وبسبب كل هذه البلبلة. إن كل ما ترغب فيه هو الحصول، فقط، على الطعام والماء.

راقب ملكي صادق المركب الصغير، وهو يبتعد من المرفأ. فكما استحال عليه أن يرى إبراهام ثانية، كذلك لن يرى الراعي الفتى، بعد أن جعله يدفع له العشر. إلّا أن ذلك، هو عمله.

يجب ألَّا يكون عند الآلهة أمنيات، لأن ليس لها **أسطورة شخصية**. غير أن ملك سالم تمنّى، في أعماقه، النجاح للفتى.

«يا للأسف! سوف ينسى اسمي قريباً. كان يجب أن أكرّره على مسامعه غير مرة. حتّى إذا تحدّث عني يقول إنني ملكي صادق، ملك سالم».

ثم رفع عينيه نحو السماء مرتبكاً من هذه الأفكار التي تراوده: «إنني أعلم أن ذلك باطل الأباطيل، مثلما قلت، **أنت ذاتك**، أيها الرب.

ولكن يحقُّ للملك عجوز أن يكون، أحياناً، فخوراً بنفسه».

❊ ❊ ❊

قال الفتى في نفسه:

«يا لها من بلاد عجيبة، أفريقية هذه!».

كان جالساً في مقهى يشبه سائر المقاهي التي استطاع مشاهدتها أثناء تجواله في شوارع المدينة الضيقة. ثمّة رجال يدخّنون ما يشبه الغليون العملاق (النارجيلة) ينقل من فم إلى فم.

نسي، وهو منهمك في الاستعداد للسفر الكبير، تفصيلاً صغيراً ووحيداً يمكن أن يبقيه بعيداً عن كنزه لمدة طويلة. ذلك أن الجميع، في هذه البلاد، يتكلّمون اللغة العربية.

اقترب صاحب المقهى منه، وأشار بإصبعه إلى شراب قدّمه لزبائن الطاولة المجاورة، وهو شايٌ مرٌّ الطعم. لكنّه يفضّل احتساء النبيذ.

لم يكن الوقت مناسباً للتفكير بمثل هذه الأمور. عليه ألّا يفكّر إلا بكنزه، وبطريقة الحصول عليه. فمن جرّاء بيع الخراف أودع جيبه مبلغاً معقولاً من المال. كان يعرف أن للمال فعل السحر: مع المال، لا يكون المرء وحيداً على الإطلاق. بعد قليل من الوقت، ربما بضعة أيام، سيجد نفسه عند سفح الأهرامات. إن رجلاً مسنًّا، مع كل ذلك الذهب الذي كان يلمع على صدره، لا يحتاج إلى رواية الأكاذيب ليحصل على ستة خراف.

لقد حدّثه الملك العجوز عن الإشارات. وفكّر هو، أثناء عبوره المضيق، بالإشارات. أجل، إنه يعرف جيداً عمّا يتكلم: فطوال ذلك الوقت، الذي قضاه في ربوع الأندلس، تعوّد أن يقرأ، على الأرض وفي

السماوات، التوجيهات المتعلقة بالطريق التي ينبغي له سلوكها. وتعلّم أن طائراً يكشف عن وجود أفعى قريبة، وأن شجيرة تتيح لنا أن نعلم بوجود الماء على مسافة بضعة كيلومترات. إن الخراف هي التي علّمته هذه الأشياء.

قال في سرّه:

«إذا كان الربُّ يرشد الأغنام جيداً، فسوف يرشد الإنسان، أيضاً»، وشعر بالاطمئنان، وبدا له الشاي أقل مرارةً.

سمع أحداً يسأله بالإسبانية: «من أنت؟».

شعر بارتياح غامر. كان يفكّر بالإشارات، وإذا بشخص يظهر له.

سأل بدوره: «أوَليس غريباً أن تتكلّم بالاسبانية؟».

كان القادم الجديد فتى يرتدي الزيّ الأوروبيّ، ولكن لون بشرته يدلُّ، «بوضوح»، على أنه من هذه المدينة. إنه يشبهه في طول القامة وفي العمر.

ـ هنا، يكاد كل الناس يتكلمون الإسبانية. إننا على بعد ساعتين من إسبانيا فقط.

ـ اجلس، لأطلب لك شيئاً. أما أنا، فسوف أطلب نبيذاً. إنني أمقت هذا الشاي.

ـ لا يوجد نبيذ في هذه البلاد، لأن الدين يحرّمه.

قال الفتى، عندئذ، إنه يريد الذهاب إلى الأهرامات، وكان على وشك أن يتحدّث عن الكنز، ولكنه آثر الصمت، فقد يطلب إليه العربي جزءاً من الكنز ليرافقه إلى هناك. وتذكّر ما قاله العجوز له في شأن الاقتراحات.

ـ أبوسعك إرشادي إلى هناك؟ وسوف أنقدك أجراً على ذلك. ألديك فكرة عن كيفية بلوغ ذلك المكان؟

لاحظ الفتى أن صاحب المقهى، الذي كان قريباً منهما، يُنصت

إلى الحوار باهتمام. فشعر بعدم الارتياح لوجوده. لكنه التقى دليلاً، ولا يريد إضاعة هذه الفرصة.

قال الشاب:

«ينبغي اجتياز الصحراء الكبرى بكاملها، ومثل هذا الأمر يتطلّب مالاً. ألديك المال الكافي أوّلاً؟».

استغرب الفتى هذا السؤال، ولكنه يثق بالرجل العجوز، الذي كان قد قال له: عندما نريد شيئاً ما، حقّاً، فإن الكون بأسره يطاوعنا لإيجاده.

أخرج نقوده من جيبه، وأراها لمرافقه الجديد. اقترب صاحب المقهى، منهما، أكثر، ونظر بدوره. تبادل الرجلان بضع كلمات بالعربية، وبدا صاحب المقهى غاضباً.

قال الشاب:

«لنغادر هذا المكان، إنه ليس راغباً في بقائنا هنا».

شعر الفتى بمزيد من الاطمئنان. نهض ليدفع ما يتوجّب عليه، ولكن صاحب المقهى أمسك بذراعه، وأسمعه عظة طويلة، دون توقّف. كان الفتى قويَّ البنية؛ بيد أنه غريب. وإذا بالصديق الجديد يدفع صاحب المقهى جانباً، ويمضي بالفتى إلى الخارج.

قال له:

«إنه يطمع بمالك. فطنجة ليست كسائر مناطق أفريقية. نحن هنا في ميناء؛ والموانئ، جميعها، مغارات لصوص».

يمكنه إذاً الوثوق بهذا الصديق الجديد الذي أتى لمساعدته عندما كان في وضع حرج. أخرج المال من جيبه وعدّه.

أخذ الشاب النقود، ثمّ أضاف:

«نستطيع الوصول، غداً، إلى الأهرامات، ولكن ينبغي أن أشتري جملين اثنين».

وانطلقا، معاً، في شوارع طنجة الضيّقة. كانت كل النواصي

والحوانيت، مملوءة بضائع معروضة للبيع. وصلا، أخيراً، إلى وسط ساحة كبيرة، حيث تُقام السوق. كان ألوف الأشخاص في المكان يتجادلون ويبيعون ويشترون، وكانت المنتوجات الزراعية تجاور الخناجر والسجاد والغلايين من شتى الأنواع. ولكن الفتى لم يحوّل نظره عن صديقه الجديد، فهو لا ينسى أن كل نقوده باتت بين يديه. فكَّر، غير مرة، باستعادتها. ولكن كان يقول لنفسه، إن تصرّفه ذاك لن يكون لائقاً. ثم إنه يجهل عادات هذه البلاد الغريبة التي يجوب الآن أرضها.

وقال في نفسه: «يكفي أن أراقبه». إنه أقوى من الآخر.

في وسط هذه الزحمة، وقعت عيناه فجأة على سيف لم يرَ أجمل منه؛ سيف له غمد من الفضة، ومقبض أسود اللون رُصِّع بالأحجار الكريمة. فوعد نفسه بشراء هذا السيف لدى عودته من مصر.

وقال لمرافقه:

«سلْ التاجر عن ثمنه». ولكنه أدرك أنه ذَهل عنه لدقيقتين عندما كان يتأمّل السيف.

انقبض قلبه، كما لو أن صدره قد تقلَّص فجأة، وخشي النظر إلى جانبه، مدركاً تماماً ما الذي ينتظره. أبقى عينيه مثبتتين، لحظةً، على السيف، ثم تشجّع أخيراً، واستدار.

ما زال كل شيء حواليه: السوق، والناس يروحون ويجيئون ويصرخون ويشترون السجاد والبندق، كذلك لا تزال الخُضر قرب الصواني النحاسية، والرجال المتشابكو الأيدي في الشارع؛ والنساء المحجّبات؛ وتوابل الطعام الغريبة... ولكن لا أثر لمرافقه في أيِّ مكان، لا أثر له، على الإطلاق.

حاول أن يوهم نفسه أنّ كلًّا منهما غاب عن نظر الآخر، مصادفة. وقرَّر أن يبقى في مكانه آملاً بعودة الآخر. بعد برهة، صعد رجل إلى أحد تلك الأبراج الشهيرة وبدأ يؤذِّن. ركع الموجودون

في المكان، جميعهم، وراحوا يصلّون. بعد ذلك، ومثل خليّة نمل تعمل، نزعوا الأكواخ الخشبية وغادروا.

وتوارت الشمس، بدورها، حدَّق الفتى إليها فترة طويلة، حتى اختبأت وراء المنازل البيضاء، المحيطة بالمكان، وقال في سرّه إنه عندما بزغت هذه الشمس صباح هذا اليوم، كان، في قارة أخرى، وكان راعياً يملك ستين رأساً من الضَّان، وكان على موعد مع فتاة. وصباح هذا اليوم، غداً، وهو يسير عبر الحقول، يعرف ما سوف يحدث.

إلَّا أنه، مع غياب الشمس، يجد نفسه غريباً، في بلد غريب حيث لا يستطيع حتى فهم اللغة التي يتكلّم الناس بها. لم يعد راعياً، ولا يملك شيئاً، حتى المال الضروري ليعود أدراجه، ويبدأ من جديد.

قال في نفسه:

«لقد حدث ذلك، كلُّه، بين شروق الشمس وغروبها». وأشفق على ذاته، وهو يرى أن الأشياء قد تتغير في الحياة، خلال ومضة، وحتى قبل أن يتوافر الوقت الكافي لتعوّدها.

من المخجل أن يبكي. لم يسبق له أن بكى إطلاقاً أمام أغنامه. ولكن ساحة السوق مقفرة، وهو بعيد عن وطنه.

بكى. بكى لأن الربَّ يكافئ الناس الذين يؤمنون بأحلامهم الخاصة، على هذا النحو. «عندما كنت مع أغنامي، كنت سعيداً، وكنت أقتسم سعادتي مع كل من جاورني. إذا شاهدني الناس مقبلاً نحوهم، استقبلوني بحفاوة. أما الآن، فإنني حزين وبائس. ماذا أفعل؟ يجب أن أكون أكثر حذراً، وألَّا أثق بأحد، لأن أحدهم خانني، وسوف أكره كل من وجد كنزاً مخبوءاً، لأنني لم أجد كنزي. وسوف أسعى، باستمرار، للمحافظة على ما لديَّ، لأنني أصغر من أن أفهم العالم».

فتح خُرجه ليرى ما بداخله. ربَّما بقيت قطعة من الشطيرة التي أكلها على متن المركب. ولكنه لم يجد سوى الكتاب

الكبير، والمعطف، والحجرين الكريمين اللذين أعطاه إياهما الرجل العجوز.

أحسّ، لدى رؤيتهما، بارتياح غامر. لقد استبدل بستّة خراف هذين الحجرين الكريمين المنتزعين من صدرية ذهبية. ويمكنه بيعهما ليشتري بثمنهما تذكرة العودة. قال في نفسه، وهو يتناولهما من خُرجه ليخبّئهما في قعر جيبه: «سوف أغدو، من الآن فصاعداً، أكثر مكراً. إنه، هنا، في ميناء، والشيء الحقيقي الوحيد، الذي قاله له ذلك الشاب: إن الموانئ مغارات لصوص.

لم يدرك قبل الآن سبب الجهد اليائس الذي بذله صاحب المقهى: كان يحاول تحذيره من ذلك الشاب. «إنني، مثل كل الناس، أرى العالم بمنظار من يريد أن تحدث الأمور كما يشتهي، وليس كما تحدث في الواقع».

ظلَّ يتفحص الحجرين الكريمين. يتلمّس كلًّا منهما بحنان، ويتحسّس حرارتهما وسطحهما الأملس. إنهما كنزه، يكفي أن يلمسهما حتى يزوِّداه بنوع من الاطمئنان. إنهما يذكّرانه بالرجل العجوز، الذي قال له:

«عندما تريد شيئاً ما، حقًّا، فإن الكون بأسره يطاوعك للحصول عليه».

كان بودّه أن يفهم كيف يمكن أن يتحقّق ذلك. إنه هنا، في ساحة السوق المقفرة، وبلا أيّ فِلس في جيبه، ودون أغنام يقوم بحراستها ليلاً. ولكن هذين الحجرين يؤكدان أنه التقى بالفعل ملكاً، ملكاً يعرف سيرته الشخصية، ويعلم بما فعله بسلاح والده، وبأول تجربة جنسية له.

«إن هذين الحجرين أوريم وتوميم يُستخدمان في التنجيم». أعادهما إلى مكانهما في الخرج، وقرر أن يقوم بالتجربة. كان الشيخ قد قال له: ينبغي طرح أسئلة واضحة، لأن الحجرين لا يؤديان خدمة، إلّا إذا كنا نعرف ماذا نريد.

سأل الفتى، حينئذ عمّا إذا كانت بركة الشيخ لا تزال ترافقه.

وأخرج أحد الحجرين. إنه حجر «أجل».

وأردف:

«هل سأعثر على كنزي؟».

أدخل يده في الخرج ليمسك بأحد الحجرين، ولكن الحجرين انزلقا من ثقب في قماش الخرج. لم ينتبه، من قبل، أن خرجه كان ممزقاً. انحنى ليلتقط أوريم وتوميم، ويعيدهما إلى الخرج. ولكنه، مع مشاهدته لهما على الأرض، تذكَّر جملة أخرى قالها العجوز:

«تعلَّم أن تحترم الإشارات وتطيعها».

«إشارة !»، ضحك الفتى من تلقاء نفسه، ثم التقط الحجرين، وأعادهما إلى خرجه. ليس في نيَّته أن يخيطه من جديد، وليفلت الحجرين عبر الثقب في أي وقت. لقد أدرك أن هناك أشياء يجب ألّا نطلبها، لكي لا نُفلت من قدرنا الخاص. وقال:

«لقد وعدت بأن أتّخذ قراراتي بنفسي».

ولكن الحجرين قالا إن الشيخ إلى جانبه، وقد أعاد ذلك إليه ثقته بنفسه. تأمّل، من جديد، السوق المقفرة. ولم يعد يشعر باليأس الذي شعر به من قبل. ليس هذا العالم بالعالم الغريب: بل هو عالم جديد.

إن كلّ الذي جرى كان، في الواقع، يمثّل ما أراده بالضبط: التعرّف إلى عوالم جديدة. حتى وإن لم يبلغ الأهرامات، فإنه ذهب إلى أبعد ممّا ذهب إليه أيُّ راعٍ من الرعيان الذين يعرفهم.

«آه! لو كانوا يعرفون أنه، على بعد أقل من ساعتين من الإبحار على متن المركب، يوجد الكثير من الأشياء المختلفة...».

إن العالم الجديد يتّخذ، أمام عينيه، شكل سوق مقفرة، بيد أنه سبق أن شاهده زاخراً بالحياة، ولن ينساه أبداً. تذكَّر السيف؛ لقد

دفع ثمناً غالياً جداً مقابل تأمُّله للحظة واحدة: ولكنه لم يكن قد شاهد ما يشبهه إطلاقاً. وراوده، فجأة، شعوز بأنه يستطيع أن ينظر إلى العالم كضحية تعيسة لأحد اللصوص، أو كمغامر يبحث عن كنز.

وقال في نفسه: «إنني مغامر يبحث عن كنز»، ثم استغرق في النوم، وقد هدَّه التعب.



أحسَّ وهو يستيقظ أنَّ أحداً ما هزَّه من كتفه. لقد نام في وسط الساحة تماماً، حيث ستعود السوق إلى استئناف نشاطها.

نظر حواليه، باحثاً عن أغنامه. ثم أدرك أنه، الآن، في عالم آخر. وبدل أن يحزنه ذلك، شعر بالسعادة. لم يعد مضطراً للذهاب بحثاً عن الماء والعشب، بل يمكنه أن ينطلق للبحث عن كنز. ليس في جيبه فلس واحد، ولكنه مؤمن بالحياة. لقد اختار، مساء أمس، أن يكون مغامراً يشبه أبطال الكتب التي تعوّد قراءتها.

راح يتنزّه ببطء، في الساحة. وكان التجار قد بدأوا بنصب أكواخهم؛ فساعد رجلاً يبيع الحلويات على تركيب كوخه. كانت تلوح على وجه هذا الرجل ابتسامة لا تشبه ابتسامة الآخرين: كان مفعماً بالحبور، ومنفتحاً على الحياة، ومستعداً لمجابهة يوم طيب للعمل. إنها ابتسامة تذكِّره، على نحو ما، بالشيخ، ذلك الملك العجوز الغامض، الذي تعرَّف إليه. قال الفتى في نفسه: «إن هذا التاجر لا يصنع الحلويات لأنه يريد السفر، أو الزواج من ابنة تاجر، بل لأنه يحب مهنته». ولاحظ أنه قادر أن يفعل مثل الشيَخ: أن يعرف، بمجرّد النظر إلى الشخص، ما إذا كان قريباً من **أسطورته الشخصية**، أو بعيداً منها: «إنه شيء سهل، ولكني لم أستطع التنبّه إليه من قبل».

عندما أنهيا تشييد الكوخ الخشبي، قدّم الرجل له أول قطعة حلوى أعدَّها، فأكلها بسرور كبير، وشكره، ثم مضى في

طريقه. ما إن ابتعد قليلاً، حتى فكَّر بأن الكوخ قد شُيِّد بأيدي شخصين اثنين: أحدهما يتكلم العربية، والآخر يتكلَّم الإسبانية.

ومع ذلك، فإن هذين الشخصين تفاهما على نحو رائع.

وقال في نفسه:

«ثمَّة لغة تتخطّى الكلمات، وقد مررت، مسبقاً، بهذه التجربة مع الأغنام. وها أنا أمر، الآن، بالتجربة ذاتها مع البشر».

فهو، إذن، بصدد تعلُّم أشياء جديدة متنوّعة، أشياء سبق له أن اختبرها وصادفها في طريقه؛ لكنه لم ينتبه إلى وجودها، لأنه تعوّد رؤيتها، وهي على ذلك جديدة. فقال في نفسه: «إذا تعلّمتُ فكّ رموز تلك اللغة التي تتخطّى الكلمات، فسوف أتوصّل إلى فكّ رموز العالم».

وتذكّر قول الرجل العجوز: «ليس الكل إلا واحداً أوحد».

قرر أن يتسكّع، بهدوء، في شوارع طنجة الضيّقة. فبهذه الطريقة، وحدها، ينجح في إدراك الإشارات. وهذا الأمر يتطلّب سعة صدر، والصبر أول فضيلة يتعلّمها الراعي.

مرة أخرى، أدرك أنه يطبّق، في هذا العالم الغريب، الدروس ذاتها، التي علّمته إياها أغنامه.

ألم يقل الرجل العجوز: «إن الكل واحد أوحد»؟



استقبل تاجر الأواني البلّوريّة النهار الجديد، وقد انتابه نفس الشعور بالقلق الذي ينتابه كل صباح. فهو، منذ قرابة ثلاثين عاماً، يشغل هذا المكان الذي يمثّل حانوتاً يقع في قمة شارع صاعد، حيث يندر مرور الزبائن. والآن، فات الأوان على تغيير أيِّ شيء: إن كل ما تعلّمه، في حياته، هو شراء الأواني البلّوريّة وبيعها. وقد مرَّ زمن كان حانوته، فيه، يؤمّه أناس كثيرون: تجار عرب، علماء آثار فرنسيون وإنكليز، جنود ألمان، كانت جيوبهم مليئة بالنقود. كان بيع الأواني البلّوريّة، في ذلك الزمن، مغامرة كبرى، وكان يحلم كيف سيغدو رجلاً ثريّاً، وبكلّ النساء الجميلات اللواتي سيحظى بهن في شيخوخته.

ثم مضت تلك الحقبة، رويداً رويداً، ومضت المدينة معها أيضاً. ذلك أن مدينة سبتة ازدهرت أكثر من طنجة، واتخذت التجارة طريقاً مختلفة. فانتقل بعض جيرانه إلى أماكن أخرى، ولم يبق سوى بعض الحوانيت القليلة في هذه الطلعة. وليس هناك من يرغب في تسلّق هذا الشارع الصاعد من أجل بضعة حوانيت بائسة.

لكن التاجر لم يكن لديه الخيار. قضى ثلاثين سنة من حياته وهو يبيع الأواني البلورية ويشتريها. وها قد فات الأوان على اختيار مهنة جديدة.

كل صباح، ينصرف إلى مراقبة العابرين القلائل، ذهاباً وإياباً، في الشارع الصغير. هذا ما يفعله منذ سنوات، حتى بات يعرف عادات كلٍّ من المارة.

قبل دقائق معدودات من موعد الغداء، وقف شاب غريب أمام الواجهة الزجاجية. كان يرتدي ما يرتديه سائر الناس، ولكن عين التاجر الخبيرة جعلته يحزر بأنه معدم. ورغم كل شيء، فإنّه قرر دخول حانوته، والانتظار بضع دقائق، حتى ينصرف الفتى.



علّقت على باب الحانوت لوحة صغيرة كتبت عليها عبارة: «نتكلم عدة لغات». وقد شاهد الفتى شخصاً وراء الصندوق. فخاطبه قائلاً:

«إذا شئتَ، أنظّف لك هذه الأواني، لأن من الصعب أن تباع وهي على حالتها هذه».

نظر التاجر إليه دون أن يقول شيئاً.

«وبالمقابل تدفع لي ما يسدّ رمقي، هل توافق؟».

بقي التاجر صامتاً. ففهم الفتى، عندئذ، أن عليه هو أن يقرِّر. تذكّر أن لديه معطفاً في الخرج: وهو لن يكون بحاجة إليه في الصحراء؛ فأخرجه، وراح ينظّف الفازات. وتمكَّن، خلال نصف ساعة، من تنظيف جميع الأواني البلورية التي تشغل الواجهة الزجاجية. دخل، أثناء ذلك، زبونان واشتريا عدّة أوانٍ.

بعد انتهائه من تنظيف كل شيء، طلب من التاجر أن يدفع له ثمن طعامه.

فقال التاجر: «هيّا بنا نمضي لتناول الطعام».

علّق لوحة على الباب، وذهب مع الفتى إلى حانة تقع في أعلى الشارع. ولدى جلوسهما إلى طاولتها الوحيدة، قال التاجر مبتسماً:

«لم يكن من الضروري أن تنظّف شيئاً. إن القرآن يلزمنا بإطعام أي جائع».

ـ لمَ تركتني أقوم بهذا العمل، إذن؟

ـ لأن الأواني كانت متسخة، وكلّ منا بحاجة إلى تنظيف رأسه من الأفكار السيئة.

بعد تناول الطعام، التفت التاجر إلى الفتى، قائلاً:

ـ أريدك أن تعمل في حانوتي، فقد دخل اليوم زبونان، عندما كنت تنظّف الأواني البلورية: وهذه إشارة طيّبة.

«يتكلم الناس كثيراً عن الإشارات، ولكنهم لا يدركون، تماماً، عمّا يتكلمون. فأنا، مثلاً، لم أكن أدرك أنني أتكلّم مع أغنامي، طوال عدة سنوات، لغةً بلا كلام».

سأل التاجر ثانية:

ـ أتريد أن تعمل عندي؟

ـ أستطيع أن أعمل بقية هذا النهار. وبالمقابل، أحتاج إلى المال لكي أكون غداً في مصر.

ضحك التاجر، على الفور، وقال:

ـ حتى لو قمت بتنظيف بضاعتي طوال سنة كاملة، وحتى لو نلت عمولة جيدة على مبيع كل قطعة منها، فلا بدّ لك، فوق ذلك، أن تقترض مالاً لكي تذهب إلى مصر. ثمّة آلاف الكيلومترات، عبر الصحراء، بين طنجة والأهرامات.

سيطرت، حينذاك، فترة من الصمت على نحو بدت المدينة، معه، وكأنها استسلمت، فجأة، للنوم. لم يعد هناك بازارات، ولا مجادلات تجّار، ولا رجال يصعدون إلى المآذن ويؤذّنون، ولا سيوف جميلة ذات مقابض مرصّعة. لقد انتهى الأمل، وانتهت المغامرة، والملوك العجزة، **والأساطير الشخصية**، ولم يعد هناك كنز، ولا أهرامات. بدا الأمر وكأن العالم بأسره قد غدا أبكم، لأن روح الفتى صمتت. ولم يعد هناك ألم، ولا معاناة، ولا يأس: مجرد نظرة فارغة تعبر من باب

الحانة الصغير، ورغبة جامحة في الموت، ورؤية كل شيء يزول إلى غير رجعة، في هذه اللحظة بالذات.

نظر إليه التاجر مذهولاً، لكأنَّ كل الحبور الذي شاهده هذا الصباح، قد تبخّر، فجأة.

وقال له:

«سأعطيك مالاً لكي تعود إلى بلدك، يا بني».

لبث الفتى هادئاً، ثم وقف، وأصلح ثيابه، والتقط خرجه، وقال:

«سأعمل عندك».

وبعد فترة صمت ثانية، أضاف مختتماً:

«أحتاج إلى المال لأشتري بعض الخراف».



القسم الثاني

مضى شهر ونيّف على عمل الفتى عند تاجر البلّور، ولم تكن طبيعة هذا العمل لترضيه حقاً. فالتاجر لا يكف عن التذمُّر طوال النهار، وهو يصدر من وراء طاولته الأمر تلو الآخر بالانتباه إلى السلع، لئلّا يكسر شيئاً منها.

بيد أنه ثابر، لأن التاجر، وإن كان كثير التذمّر، فهو، على الأقل، ليس ظالماً. فالفتى ينال عمولة لا بأس بها، على كل سلعة تباع. وقد استطاع، حتى الآن، أن يدخُر بعض المال. وقد قام، هذا الصباح، بإجراء حساباته: فإذا استمر في العمل، كل الأيام، على هذا النمط، فسوف يحتاج إلى سنة كاملة ليدّخر ثمن بضعة خراف.

وذات يوم، قال لرب عمله:

ـ أودُّ أن أعمل خزانة لعرض قطع الكريستال. يمكننا وضع رفوف في الخارج، وسوف تجذب المارة من بداية الطلعة.

ـ لم يسبق لي أن قمت بشيء مماثل. ثم إن وضع رفوف في الخارج قد يؤدّي إلى اصطدام أحد المارة بها، فتتكسّر المعروضات.

ـ عندما كنت أذرع البراري، مع أغنامي، كانت عرضة لأن تقع ضحية للدغة من أفعى؛ ولكن تلك المجازفة تشكّل جزءاً من حياة الأغنام والرعيان.

انصرف التاجر إلى الاهتمام بزبون يريد شراء ثلاث مزهريات من الكريستال. إنه يبيع، الآن، أفضل من ذي قبل، كما لو أن العالم

قد تراجع إلى الزمن الذي كان هذا الشارع فيه المكان الأكثر اجتذاباً في طنجة.

وقال لمساعده، بعد مغادرة الزبون:

«المارّة يزدادون تدريجاً. إن ما نربحه يتيح لي عيشاً أفضل، ويتيح لك أن تستعيد غنمك، في وقت قصير. فلماذا نطلب، إذن، المزيد من الحياة؟».

فأجاب الفتى دون أن يفكّر:

«لأن من المتوجّب علينا أن نتبع الإشارات». ثم ندم على قوله هذا، لأنه لم يسبق للتاجر أن التقى ملكاً.

«هذا ما نسميه **المبدأ الملائم** على حدّ زعم العجوز، أي حظّ المبتدئ، لأن الحياة تريدك أن تعيش **أسطورتك الشخصية**».

غير أن التاجر كان يدرك جيداً ما قاله مساعده. ذلك أن مجرّد وجود المساعد في الحانوت يشكّل إشارة. ومع مرور الأيام، وبالنظر إلى المال الذي يربحه، لن يشعر بالندم على استخدامه الفتى الإسباني، حتى وإن كان الفتى يكسب أكثر ممّا يستحقّ مثل هذا العمل. وبما أنه كان يؤمن دائماً أن حجم المبيعات لن يزداد، فقد منحه عمولة مرتفعة نسبياً؛ وكان حدسه يقول له إنه سوف يعود، بعد وقت قصير، إلى أغنامه.

فسأله لكي يتجنّب الحديث عن خزانة العرض:

ـ لمَ تريد الذهاب إلى الأهرامات؟

ـ لأني سمعت الكثير من الأحاديث عنها.

وقد تجنّب الفتى، بدوره، الحديث عن حلمه. لقد بات الكنز، الآن، مجرد ذكرى موجعة على الدوام. وهو يحاول، جاهداً، ألّا يفكّر فيه.

فقال التاجر:

ـ لست أعرف أحداً، هنا، يرغب بعبور الصحراء، لكي يذهب لمشاهدة الأهرامات فحسب، فهي ليست سوى ركامٍ من الحجارة. وباستطاعتك أن تبني، أنت أيضاً، أهراماً في حديقتك.

فقال الفتى، وهو يمضي لاستقبال زبون دخل لتوّه إلى الحانوت:

ـ أنت لم تحلم قطّ بالسفر.

في اليوم التالي، تحدَّث التاجر، مجدّداً، إلى مساعده الفتى، عن خزانة العرض:

«لا أُحبُّ التغيير كثيراً. فلا أنا ولا أنت، كالتاجر الثريّ حسن، الذي لا يتأثر كثيراً، إذا تعرّض لخسارة ما. لكن نحن الإثنين، علينا أن نتحمّل عبء أخطائنا».

فقال الفتى في نفسه:

«هذا صحيح تماماً».

وسأله التاجر:

ـ لمَ ترغب بخزانة العرض؟

ـ أريد أن أعود، بأسرع وقت، إلى أغنامي. عندما يكون الحظ إلى جانبنا، ينبغي لنا أن نستفيد منه، وأن نعمل أيَّ شيء لكي نساعده بالطريقة ذاتها التي ساعدنا بها. هذا ما يدعى **المبدأ الملائم**، ويدعى، أيضاً «حظ المبتدئ».

صمت التاجر، لحظة، ثم قال:

ـ لقد أملى علينا القرآن، الذي أُنزل على النبيّ، خمس فرائض علينا العمل بها طوال حياتنا. أهمها: الشهادة بأن لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له. أما الفرائض الأخرى فهي: تأدية الصلاة خمس مرات في اليوم، وصيام شهر رمضان، وإيتاء الزكاة لمساعدة المحتاجين.

ثم توقّف عن الكلام. ذلك أنه عندما تكلّم عن النبي امتلأت

عيناه بالدموع. فهو رجل شديد الورع، يحاول جاهداً أن يعيش وفق تعاليم الإسلام، حتى وإن كان نافد الصبر، أحياناً.

فسأله الفتى:

ـ وما هي الفريضة الخامسة؟

ـ «قلت لي، قبل يومين، بانني لم أحلم قطّ بالسفر. بيد أن الفريضة الخامسة على كلّ مسلم، صادق الإيمان، أن يقوم، في حياته، برحلة واحدة على الأقل إلى مكّة المكرّمة.

«إن مكّة أبعد بكثير من الأهرامات. وعندما كنت شاباً فضّلت توظيف ما كان لديَّ، من مال قليل، في هذه التجارة. وكنت آمل أن أغدو، يوماً ما، على قدْر من الثراء، لأزور مكّة. وقد بدأت، بالفعل، أكسب المال. ولكنني لم أكن أستطيع أن أوكل إلى أحد العناية ببضاعتي، لا سيما وأن البلّور سريع العطب. وخلال ذلك الوقت، شاهدت العديد من الناس يمرّون أمام حانوتي، في طريقهم إلى مكة. كان بينهم حجّاج أثرياء، يرافقهم موكب من الخدم والجِمال؛ ولكن غالبية الحجاج كانوا أكثر فقراً مني.

«وكان الجميع يذهبون ويعودون، سعداء، ويعلّقون على أبواب منازلهم رموز تأديتهم الحجّ. قال لي أحد هؤلاء، وكان إسكافياً يعيش من مهنته، إنه مشى قرابة سنة في الصحراء، مع أنه كان يشعر بالإرهاق عندما يعبر بضع مجموعات من المساكن، في طنجة، لشراء الجلد».

ـ ولمَ لا تذهب إلى مكة الآن؟

ـ «لأن مكة هي التي تبقيني قيد الحياة. وهي التي تمنحني القوة على تحمُّل كل هذه الأيام المتشابهة، وهذه المزهريات الموضوعة فوق الرفوف، والغداء والعشاء في هذا المطعم البائس. إنني أخاف إذا حققت حلمي، ألّا يبقى لي، بعد ذلك، سبب للعيش.

«أنت تحلم بالغنم والأهرام؛ لكنّك تختلف عني، لأنك تريد تحقيق أحلامك. أما أنا، فكلّ ما أريده هو أن أحلم بمكة. لقد

تصوّرت، آلاف المرات، عبور الصحراء، وبلوغ الحرم، حيث الحجر الأسود، والدورات السبع حوله قبل أن يحقّ لي لمسه. كما تصورت من يكون إلى جانبي، ومن أمامي، والخطب الدينية، والدعوات التي نتبادلها ونردّدها معاً. ولكنّ خوفي، أن يسفر الأمر عن خيبة مريرة، يجعلني أفضّل الاكتفاء بالحلم».

في ذلك اليوم، سمح التاجر للفتى أن يصنع خزانة العرض.

بيد أن الناس، جميعهم، لا يمكنهم أن يروا أحلامهم على النحو ذاته.



مرّ شهران آخران. وبدأت خزانة العرض تجذب العديد من الزبائن إلى حانوت الأواني البلوريّة. وقدَّر الفتى أنه، إذا عمل ستة أشهر إضافية، فقد يتمكّن من العودة إلى إسبانيا، وشراء ستين رأساً من الضان، بل ستين رأساً إضافية. ففي أقل من سنة، يكون قد ضاعف قطيعه مرتين. ربمّا استطاع التعامل مع العرب، لأنه نجح في تعلُّم هذه اللغة الغريبة. بعد ذلك الصباح الشهير في ساحة السوق، لم يلجأ إلى الاستعانة بأوريم وتوميم، لأن مصر غدت، في نظره، حلماً أبعد من حلم تاجر البلّور بمكة. ولكنه مرتاح، الآن، لعمله، ولا يكفُّ عن التفكير باليوم الذي سيصل فيه منتصراً إلى طريفا.

واستعاد ما قاله له الملك العجوز: «تذكَّرْ دائماً أن عليك معرفة ما تريده».

إن الفتى يعرف ما يريد، وهو يعمل على هذا الأساس. ربما كان كنزه هو في مجيئه إلى هذه الأرض الغريبة، وفي وقوعه بين يديْ لص، وفي مضاعفة قطيعه مرتين، دون أن ينفق فلساً واحداً.

إنه فخور بنفسه. لقد تعلّم أشياء مهمة، مثل تجارة البلور، واللغة التي بلا كلام، والإشارات.

بعد ظهر ذات يوم، شاهد رجلاً في أعلى الشارع الصاعد يشكو أنه، بعد كل هذا الصعود، لم يعثر على مكان يشرب فيه شيئاً. كان الفتى يدرك، حينئذٍ، لغة الإشارات، فقال لربِّ عمله:

ـ ينبغي أن نقدّم الشاي إلى الناس الذين يصعدون الشارع.

ـ إنّ أماكن شرب الشاي عديدة هنا.

ـ يمكننا تقديمه في أكواب من الكريستال. وبهذه الطريقة، يعجب الزبائن بالشاي ويشترون البلّور، لأن الجَمال يغري الناس أكثر من سواه.

نظر التاجر ملياً إلى مساعده، دون أن يجيب. ولكنه، بعد أن أدّى صلاته وأغلق حانوته، في المساء، جلس على الرصيف، ودعاه ليدخّن برفقته النارجيلة، ذلك الغليون المثير الذي يدخنه العرب.

سأل التاجر العجوز:

ـ إلى أين تبغي الوصول؟

ـ لقد أخبرتك عن ذلك؛ أريد استعادة نعاجي. ولأجل ذلك، لا بدَّ من المال.

وضع التاجر العجوز جمرة جديدة على رأس النارجيلة، وسحب نفساً عميقاً، وقال:

ـ لقد مرت عليَّ ثلاثون سنة في هذا الحانوت. وبتّ أعرف شتى أنواع البلور، الجيد منها والرديء، كما أعرف خصائص هذه التجارة، جميعها. لقد ألفت حانوتي، وألفت مساحته، وزبائنه. فإذا بدأت أبيع الشاي في أكواب من الكريستال، فإن العمل يزداد أهمية. عندها، ينبغي أن أغيّر نمط حياتي.

ـ ألن يكون ذلك جيداً؟

ـ لقد ألفت وجودي. كنت أفكّر، قبل مجيئك، بأنني أضعت هذا الوقت كلّه في نفس المكان، في حين أن جميع أصدقائي قد بدّلوا أعمالهم، فتعثّر بعضُهم وحالف الحظّ بعضهم الآخر. وكان ذلك يغرقني في حزن شديد. وأدركت الآن أن الأمر لم يكن كذلك: إن لهذا الحانوت، في الواقع، الحجم الصحيح الذي تمنّيته باستمرار. أنا لا أريدُ التغيير، لأنني أجهله؛ كما أنني بدأتُ آلف، تماماً، نمط حياتي.

لم يعرف الفتى ما ينبغي قوله. استأنف الرجل، قائلاً:

«كنت نعمة عليّ، وها أنا، اليوم، أفهم شيئاً: إن كلَّ نعمة لا تقبل، تتحوّل إلى لعنة. أنا لا أنتظر شيئاً من الحياة. وها أنت تجبرني على استشفاف ثروات وآفاق لم أفكر فيها من قبل. والآن، وقد بتُّ أعرفها، وأعرف إمكانياتي الكبيرة، سوف أشعر أنني أكثر سوءاً من أي وقت مضى، لأنني أدرك أن باستطاعتي الحصول على كل شيء، ولكنني لا أريد ذلك».

قال الفتى في قرارة لنفسه: «لحسن الحظ أنني لم أقل شيئاً لبائع الفشار».

لبثا يدخّنان النارجيلة لبعض الوقت، في حين كانت الشمس تميل نحو الغروب. كانا يتحدّثان باللغة العربية، وكان الفتى مسروراً من نفسه، لأنه يتكلّم بالعربية. لقد مرَّ ردح من الزمن كان يعتقد فيه أن أغنامه تستطيع أن تعلّمه كل شيء عن العالم، ولكن الأغنام غير قادرة على تعليم اللغة العربية.

وفي حين أنه كان ينظر إلى التاجر دون أن يقول شيئاً، ردّد في نفسه: «لا بدَّ من وجود أشياء أخرى، في العالم، لا تعرف الأغنام تعليمها، لأن الأغنام لا تبحث إلا عن الماء والطعام. أعتقد أنها ليست هي التي تعلّم: بل أنا من يتعلَّم».

قال التاجر أخيراً:

ـ كل شيء مكتوب.

ـ ما معنى ذلك؟

ـ ينبغي أن تكون قد ولدت عربياً لكي تفهم. ولكن الترجمة قد تكون شيئاً مثل: «قدر الإنسان مهيّأ من قبل».

ثم قال للفتى، وهو يطفئ جمر النارجيلة، أن باستطاعته تقديم الشاي للزبائن في أكواب من الكريستال.

أحياناً، يستحيل احتواء نهر الحياة.

* * *

كان الناس يتسلّقون الشارع الصاعد، ويشعرون بالإرهاق لدى بلوغهم نهايته. وهناك، في أعلى تلك الطلعة، حانوت لبيع البلّور الجيد والشاي بالنعناع المنعش جداً، يؤمّونه ليشربوا الشاي في أكواب رائعة من الكريستال.

قال أحد الرجال:

«لم تخطر هذه الفكرة على بال زوجتي، إطلاقاً». ثم اشترى بعض الأكواب لأن لديه مدعوين، هذه الليلة. وسوف يؤخذون بروعة هذه الأكواب الثمينة. وأكّد زبون آخر، من جهته، أن الشاي يغدو أطيب نكهة، إذا قُدّم في أكواب من الكريستال، لأنَّ عطره يكون محفوظاً على نحو أفضل. وقال ثالث إن العادة قد درجت، في الشرق، على استخدام الكريستال، عند تقديم الشاي، نظراً لتأثيره السحري.

انتشر الخبر في فترة قصيرة من الوقت. وراح الناس يتوافدون نحو نهاية الطلعة، ليتعرفوا إلى الحانوت الذي ابتكر شيئاً جديداً في تجارة قديمة جداً. وعمدت حوانيت أخرى إلى تقديم الشاي في أكواب من الكريستال، ولكنها لا تقع في أعلى شارع صاعد، ما أدى إلى بقائها خالية من الزبائن.

وسارع التاجر إلى استخدام موظّفَيْن آخرَيْن. كما اضطر أن يستورد، فضلاً عن الأواني البلورية، كميات كبيرة من الشاي، يستهلكها، يوماً بعد يوم، رجال ونساء، متعطّشون إلى أشياء جديدة.

وهكذا مرّت ستة أشهر.



استيقظ الفتى قبل شروق الشمس. لقد مرَّ عليه أحد عشر شهراً وتسعة أيام مذ وطئت قدماه، لأول مرة، القارة الأفريقية. ارتدى لباساً عربياً، من الكتَّان الأبيض، اشتراه خصيصاً لهذا اليوم. واعتمر العمامة المربوطة بحلقة من جلد الحمل. وانتعل، أخيراً، صندله الجديد، وهبط دون أن يُحدث أيَّ ضجة.

لا تزال المدينة نائمة. صنع لنفسه شطيرة بالسمسم، وشرب شاياً ساخناً في كوب من الكريستال. ثم جلس على عتبة الحانوت، يدخِّن النارجيلة بمفرده.

دخَّن بهدوء، دون أن يفكّر بأي شيء، ودون أن يسمع سوى ضجيج الريح التي تهبّ حاملة رائحة الصحراء. وبعد أن انتهى، أدخل يده في أحد جيوبه واستمز يتأمل، لبعض الوقت، ما أخرجه من ذلك الجيب.

ثمَّة مبلغ محترم من المال، يساعده على شراء مئة وعشرين رأساً من الضَّان، وتذكرة للعودة، وترخيصاً بالتصدير والاستيراد بين بلده وهذا البلد الذي يقيم فيه حاليًّا.

انتظر، بصبر، أن يستيقظ العجوز بدوره، ويفتح مخزنه ليشربا الشاي معاً.

عند ذاك، قال الفتى:

«سأغادر اليوم، بالذات، فقد بات لديَّ المال الكافي لشراء الغنم، ولديك ما يكفي لزيارة مكة».

لم يقل الرجل شيئاً.

فتابع الفتى بإلحاح:

«أسألك أن تمنحني بركتك. لقد ساعدتني».

تابع الرجل إعداد الشاي بصمت. وبعد وقت قصير، التفت إلى الفتى، وقال:

ــ إنني فخور بك، لقد أعدت الروح إلى حانوت البلور. ولكنني لن أذهب إلى مكة، تعرف ذلك جيداً. كما تعرف، أيضاً، أنك لن تسترجع غنمك.

سأله الفتى، مذهولاً:

ــ من قال لك ذلك؟

فأجاب تاجر البلور العجوز ببساطة: «كلّ شيء مكتوب».

ثم باركه.



توجَّه الفتى إلى غرفته، وجمع أغراضه، وملأ ثلاثة أكياس. وفيما هو على أهبة الخروج من الغرفة، شاهد، في إحدى الزوايا، خرجه القديم يوم كان راعياً. كان الخرج في حالة يرثى لها، ذلك أنه كاد ينسى حتى وجوده. وكان لا يزال في داخله كتابه ومعطفه. عندما أخرج المعطف، وفكّر في إعطائه لأول غلام يلتقيه في الشارع، تدحرج الحجران الكريمان أوريم وتوميم على الأرض.

ذكّره ذلك بالملك العجوز، واستغرب، عندما أدرك أنه لم يفكّر في ذلك اللقاء منذ زمن طويل. لقد عمل، سنة كاملة، دون كلل. ولم يهتمّ إلّا بكسب المزيد من المال، لئلّا يعود إلى أسبانيا منكسراً.

سبق أن قال له الملك العجوز:

«لا تتخلَّ، إطلاقاً، عن أحلامك، وانتبه إلى الإشارات».

التقط أوريم وتوميم عن الأرض. وعاوده الحدس الغريب بأن الملك موجود في مكان قريب. لقد عمل بجهد، طوال هذه السنة، ثم أوحت إليه الإشارات أن وقت الذهاب قد حان.

«سأجد نفسي، تماماً، مثلما كنت من قبل، وحيث لم تعلّمني النعاج اللغة العربية».

ومع ذلك، فإن النعاج قد علّمته، من جهة أخرى، شيئاً مهمّاً، فحواه أن في العالم لغة يفهمها الجميع، وقد استخدمها، هو ذاته، طوال هذا الوقت، لتطوير الحانوت. إنها لغة الحماسة، ولغة الأعمال

التي نؤديها بشغف واندفاع، لتحقيق نتيجة نتمنّى بلوغها، أو نتيجة نؤمن بها. لم تعد مدينة طنجة، الآن، مدينة غريبة عليه، وراوده شعور بأنه، إذا كان قد نجح في غزو هذا المكان، فبمقدوره، أيضاً، أن يغزو العالم.

وتذكّر قول الملك العجوز:

«عندما تريد شيئاً ما، حقاً، فإن الكون بأسره يطاوعك على تحقيق رغبتك».

بيد أن الملك العجوز لم يتكلّم عن اللصوص، والصحارى الشاسعة، والناس الذين يعرفون أحلامهم، ولكنهم لا يريدون تحقيقها. ولم يقل الملك العجوز إن الأهرامات ليست سوى ركام من الحجارة، وإن باستطاعة أيٍّ يكن أن يجمع ركاماً من الحجارة في حديقته. كما أنه نسي، أيضاً، أن يقول إن توافر المال لشراء قطيع يفوق القطيع الذي كان لدينا، يحتّم علينا أن نشتريه.

التقط الخرج، وحمله مع الأكياس الأخرى، وهبط الدرج؛ كان التاجر منصرفاً إلى خدمة زوجين أجنبيين، في حين كان زبائن آخرون يحتسون الشاي في أكواب من الكريستال. إنها بداية نهار طيّبة في هذه الساعة من الصباح. ولأول مرّة، لاحظ من مكانه، أن شعر تاجر البلور يذكّره بشعر الملك العجوز. وتذكّر ابتسامة تاجر الحلويات في يومه الأوّل بطنجة، عندما استيقظ من النوم، وهو لا يدري إلى أين يذهب، وماذا يأكل؛ لقد ذكّرته تلك الابتسامة، أيضاً بالملك العجوز.

وقال في سرّه:

«لكأنّه مرَّ من هنا وترك بصماته»، ولكأنَّ كل واحد من هؤلاء الأشخاص عرف الملك، في وقت أو آخر، من وجوده. سبق أن قال إنه يظهر باستمرار لمن يعيش **أسطورته الشخصية**».

غادر من دون أن يودع تاجر البلور، لأنه لا يريد أن يبكي؛ فربّما تلاقيا. لكنّه سوف يتحسّر على هذه الفترة، وعلى كل

الأشياء التي تعلَّمها. كان يشعر أن ثقته بنفسه تزداد؛ وأنه يرغب في غزو العالم.

«ولكنني عائد إلى البراري التي عرفتها من قبل، وسوق الأغنام من جديد». أحسّ أنه ليس راضياً عن اتّخاذه هذا القرار. لقد عمل سنة كاملة لكي يحقّق حلمه، وكان هذا الحلم بين دقيقة وأخرى، يفقد، من أهميته، لأنه في آخر المطاف، قد لا يكون حلمه بالذات.

«من يؤكّد، بعد كلّ ما جرى، أن ليس مستحسناً أن يغدو كتاجر البلور الذي لن يذهب أبداً إلى مكة، بل يعيش على الرغبة في الذهاب إليها؟». ولكنّه يملك أوريم وتوميم، وهذان الحجران الكريمان يزوّدانه بقوة الملك العجوز وإرادته. ورد إلى ذهنه أنه، بفعل المصادفة، أو بفعل إشارة ما، وصل إلى المقهى الذي ارتاده أول يوم. لم يشاهد اللصّ فيه، بل جاءه صاحب المقهى بكوب من الشاي.

قال في نفسه:

«أقدر، على الدوام، أن أعود راعياً. لقد تعلّمت العناية بالأغنام. ولن أنسى، إطلاقاً، كيف هي. لكن قد تفوتني فرصة الذهاب إلى أهرامات مصر. كان الملك العجوز يرتدي صدرية من ذهب، وكان يعرف سيرة حياتي. لقد كان ملكاً حقيقياً، ملكاً حكيماً».

ها هو يبعد، من سهول الأندلس، مسافة ساعتين، تقريباً، بالمركب. ولكن، بينه وبين إهرامات مصر، صحراء. وفهم أن من الممكن النظر إلى الوضع، على النحو التالي: إنه، في الحقيقة، يبعد، الآن، حوالى الساعتين عن كنزه. وحتى لو أراد أن يجتاز هذه المسافة التي تقتضي ساعتين اثنتين، فإنه في حاجة إلى سنة كاملة لتحقيق ذلك.

«إنني أفهم جيداً رغبتي في العودة إلى أغنامي، فأنا أعرف تلك الأغنام من قبل، وهي لا تحتاج إلى كثير من الجهد، وبوسعي أن

أحبّها. أيمكن أن أحبَّ الصحراء؟ لا أدري. ولكن الصحراء هي التي تخفي كنزي. وإذا لم أعثر عليه، فبمقدوري العودة، متى شئت، إلى دياري. مع ذلك، فإن الحياة أعطتني، دفعة واحدة، المال الكافي، والوقت الكافي. إذن، لِمَ لا؟».

أحسَّ، في هذه اللحظة، بجذل غامر. ذلك أن بإمكانه أن يعود راعياً في أيِّ وقت، وأن يعود بائع كريستال في أي وقت. ربَّما كان العالم يخفي كنوزاً أخرى مخبوءة، ولكنه حلم بكنزه غير مرة، والتقى ملكاً، ومثلُ هذا الأمر لا يحدث لجميع الناس.

كان في غاية السرور عندما غادر المقهى. تذكَّر أن أحد مُموِّلي التاجر كان يأتيه بالكريستال مستخدماً القوافل التي تعبر الصحراء. أبقى أوريم وتوميم في يده، وبسبب هذين الحجرين الكريمين، سوف يعود إلى طريق كنزه.

وتذكّر ما قاله له الملك العجوز:

«إنني، دائماً، إلى جانب أولئك الذين يعيشون **أسطورتهم الشخصية**».

لن يخسر شيئاً بذهابه إلى محطّ القوافل، ليعرف ما إذا كانت الأهرامات بعيدة فعلاً إلى هذا الحدّ؟



كان الرجل الإنكليزي جالساً داخل مبنى تتصاعد منه روائح البهائم، والعرق، والغبار. لا يمكن أن نسمي هذا المكان محطاً للقوافل. إنه، بالضبط، زريبة للبهائم.

قال في نفسه، وهو يتصفّح، ساهياً، مجلة في الكيمياء:

«لقد قضيت حياتي لكي أصل إلى هذا المكان. عشر سنوات من التحصيل ساقتني إلى زريبة للبهائم».

ولكن عليه الاستمرار. ينبغي الإيمان بالإشارات. إن حياته كلّها، ودراساته كلَّها، تمحورت حول البحث عن لغة واحدة يتكلم بها الكون. لقد اهتم، في البداية، باللغة العالمية، ثم بالأديان، إلى أن انتهى الأمر به إلى الخيمياء. إنه يجيد التكلُّم باللغة العالمية، ويعرف مختلف الأديان جيداً، ولكنه لم يصبح، بعدُ، خيميائياً. لقد نجح، بلا ريب، في فك رموز أشياء مهمة، ولكن أبحاثه، في ذلك، بلغت نقطة لم يستطع تجاوزها. لقد حاول أن يكون على علاقة بأحد الخيميائيين، أيّاً يكن، ولم ينجح في ذلك. إلا أن الخيميائيين أناس غريبو الأطوار، لا يفكرون إلّا بأنفسهم، وغالباً ما يرفضون تقديم المساعدة. من قال إنهم لم يتوصلوا إلى اكتشاف **الحجر العظيم**، أو حجر الفلاسفة، وأنهم، لهذا السبب ينغلقون داخل صمتهم؟

لقد أنفق، من قبلُ، جزءاً من الثروة التي ورثها عن والده، باحثاً، دون جدوى، عن حجر الفلاسفة. زار أغنى مكتبات العالم، واشترى المؤلّفات الخاصة بعلم الخيمياء، الأكثر أهمية، والأندر وجوداً. وقبل

سنوات، اكتشف في أحد تلك المؤلفات أن خيميائياً عربياً شهيراً زار أوروبا، يقال إنه ناهز المئتي سنة، وأن ذلك الخيميائي اكتشف حجر الفلاسفة وإكسير الحياة. وقد تركت تلك الحكاية تأثيرها البالغ في نفس الإنكليزي. إلّا أن ذلك، كلّه، كان يمكن أن يبقى مجرد أسطورة، بين سائر الأساطير، لو لم يخبره أحد أصدقائه، العائد من رحلة إلى الآثار في الصحراء، عن عربي يمتلك قدرات استثنائية.

قال صديقه:

ـ إنه يعيش في واحة الفيّوم، ويروي الناس أنه بلغ المئتي سنة، وأنه قادر على تحويل أيٍّ معدن من المعادن ذهباً.

ذُهل الإنكليزي، وشعر بإثارة لا حدود لها، ثم ألغى كلَّ ارتباطاته السابقة، وجمع أهم كتبه. وها هو، الآن، في محطّ القوافل هذا الذي يشبه زريبةً للبهائم.

وفي الخارج، كانت قافلة كبيرة تستعدّ لعبور الصحراء.

وسوف تمر هذه القافلة بالفيّوم.

قال الإنكليزي في نفسه:

«ينبغي لي أن ألتقي، حتماً، هذا الخيميائي اللعين»، في حين رائحة البهائم باتت محتملة أكثر من ذي قبل.

دخل شاب عربي المبنى الذي قبع الإنكليزي فيه، وكان يحمل، هو أيضاً، رُزماً من الأغراض، وألقى السلام عليه، سائلاً:

«إلى أين أنت ذاهب؟».

أجاب الإنكليزي: «إلى الصحراء»، وعاد إلى القراءة. لم يكن راغباً، في تلك اللحظة، بالمحادثة. إنه بحاجة إلى تذكّر كل ما تعلَّمه خلال تلك السنوات العشر، لأن الخيميائي سوف يُخضعه، بلا ريب، إلى نوع من الامتحان.

تناول الشاب العربي، بدوره، كتاباً وراح يقرأ، وكان الكتاب

باللغة الإسبانية. قال الإنكليزي في سرّه: «إنني محظوظ»، فهو يتقن الإسبانية أكثر ممّا يتقن العربية. فإذا كان هذا الشاب ذاهباً إلى الفيّوم، فسيحظى الإنكليزي برفيقٍ يتحدّث إليه، عندما لا يكون مستغرقاً في أمور مهمّة.



قال الشاب في قرارة نفسه، وهو يحاول أن يقرأ مجدّداً مشهد الدفن الذي تبدأ الرواية به: «إنّه لأمرٌ مستغرب حقًّا، لقد باشرت قراءة هذا الكتاب، منذ سنتين، ولم أتوصّل إلى أبعد من هذه الصفحات القليلة». حتى من دون وجود ملك يقاطعه، لم يتمكّن من التركيز. إنه ما زال متردداً بشأن القرار الذي يجب اتّخاذه. ولكنه أدرك، الآن، أمراً مهماً: هو أن القرارات تشكّل، فقط، بداية شيء ما. فعندما يتخذ شخص قراراً ما، يغوص، فعلاً، في تيار جارف يحمله نحو وجهةٍ لم يكن يتوقّعها، إطلاقاً، حتى في الحلم، لحظة اتخذ ذلك القرار.

وتأكيداً لتحليله، قال الشاب في نفسه: «عندما اخترت أن انطلق للبحث عن كنزي، لم أكن أتصور قطّ أنني سوف أعمل في متجر للأواني البلوريّة. وعلى النحو ذاته، يمكن لهذه القافلة أن تتوافق مع قرار اتخذته بنفسي، إلّا أن سيرها ووجهتها يبقيان في عالم الغيب».

ثمّة رجل أوروبي كان يجلسُ قبالته، هو، أيضاً، كان يقرأ كتاباً. إنه رجل سمج: لقد رمقه بنظرة احتقار لدى دخوله. كان من المحتمل أن يصبحا صديقين طيّبين، ولكن الأوروبي أبعد هذا الاحتمال على الفور.

أغلق الفتى كتابه. لم يشأ القيام بأي عمل قد يوحي بوجود تشابه بينه وبين هذا الأوروبي. أخرج أوريم وتوميم، من جيبه، وراح يلهو بهما.

صرخ الأجنبي:

ـ أوريم وتوميم!

سارع الفتى إلى وضع الحجرين في جيبه، وقال:

ـ ليسا للبيع.

ـ إنهما لا يساويان شيئاً يذكر، فهما مجرّد بلّورتين حجريّتين تتوافر الملايين منهما على الأرض. أما من يعرف سرّهما فيرى فيهما أوريم وتوميم. لم أكن أعلم أنهما موجودان في هذه المنطقة من العالم.

ـ إن ملكاً أهداهما إليّ.

لبث الإنكليزي مذهولاً، ثم أدخل يده في جيبه، وأخرج حجرين مماثلين، وهو يرتجف:

ـ لقد تكلّمت عن ملك.

فقال الفتى، وهو يرغب هذه المرة بوضع حدٍّ للحوار:

ـ يبدو أنك لا تصدّق أن ملكاً يمكن أن يتكلم إلى راعٍ.

ـ على العكس تماماً. لقد كان الرعاة أول من آمنوا بملك أنكره كل البشر. وهكذا، ليس من المستغرب، أبداً، أن يتكلم الملوك إلى الرعاة.

وأضاف، خشية ألّا يكون الشاب قد فهم ما قاله جيّداً:

ـ لقد ورد ذلك في التوراة، وهو الكتاب عينه، الذي علّمني أن أضع ذينك الأوريم والتوميم. وقد كان هذان الحجران الوسيلة الوحيدة للتنبؤ التي سمح بها الرب. ويحملهما الكهنة على صدارٍ من ذهب.

شعر الفتى، حينئذٍ، بالسعادة لوجوده في هذا المكان.

فقال الإنكليزي، كما لو أنه يفكّر بصوت مرتفع:

ـ ربّما كان في ذلك إشارة.

فسأله، وقد ازداد اهتمامه تدريجيًا:

ـــ من حدّثك عن الإشارات؟

فردّ الإنكليزي، وقد عمد هذه المرّة إلى إغلاق المجلّة التي كان يقرأ فيها:

«إن كلَّ شيء في الحياة إشارة، والكون مخلوق بلغة يفهمها جميع البشر، ولكن البشر نسَوها. إنني أبحث، في جملة ما أبحث عنه من أمور، عن هذه اللغة الكونية. ومن أجل ذلك، أنا هنا. لأنني يجب أن ألتقي رجلاً يعرف هذه اللغة الكونية، وهو خيميائي.

وضع المسؤول عن محطّ القوافل، وهو عربيّ ضخم الجثة، حدّاً للحوار:

«إنكما محظوظان، فثمة قافلة تنطلق، بعد ظهر هذا اليوم، إلى الفيّوم.

فقال الفتى:

ـــ أنا ذاهب إلى مصر.

فأجاب الرجل الضخم:

ـــ الفيُّوم تقع في مصر. يبدو لي أنك عربيّ غريب الأطوار.

أوضح الفتى أنه أسباني. فسُرَّ الإنكليزي لسماع ذلك. حتى وإن ارتدى الزيَّ العربي، فهو، على الأقل، أوروبي.

قال الإنكليزي، بعد خروج الرجل:

«إنه يطلق على الإشارات اسم «حظ»، لو كان بوسعي أن أفعل، لكتبت موسوعة ضخمة عن كلمتَيْ «حظ» و«مصادفة». فبهاتين الكلمتين، تكتب اللغة الكونية».

ثم استأنفا الحديث. فقال للفتى إن الأمر لم يكن مصادفة أن

يـرى بـين يـديـه أوريم وتـومـيـم. وسـألـه إن كـان ذاهـبـاً هـو، أيـضـاً، للبحث عن الخيميائي.

فأجابه الفتى:

«أنا ذاهب للبحث عن كنز».

ثم ندم على الفور.

ولكن الإنكليزي بدا وكأنه لم يولِ ما قاله اهتماماً:

«وأنا أيضاً، على نحو ما».

فقال الفتى، في الوقت الذي كان مسؤول محطّ القوافل يناديهما للخروج:

«إنني لا أعرف حتى ما هي الخيمياء».



قال رجل ذو لحية طويلة وعينين سوداوين: «أنا رئيس القافلة، وإليّ ترجع حياة وموت كل الذين أقودهم، لأن الصحراء امرأة نزقة تجعل الرجال، أحياناً، مجانين».

ضمّت القافلة قرابة المئتي شخص، وضِعف هذا العدد حيوانات، من جِمال وخيول وبغال وطيور.

كان فيها نساء وأطفال، وعدّة رجال يحملون سيوفاً في أوساطهم أو بنادق على أكتافهم. وكان بحوزة الإنكليزي الكثير من الصناديق المليئة بالكتب. وقد عمّ المكان ضجيج صاخب. أما رئيس القافلة، فراح يردد خطبته، غير مرة، ليفهمها الجميع:

«تنطوي هذه القافلة على نماذج مختلفة من الناس، الذين يحملون في قلوبهم آلهة متعدّدين. لكن ربّي الوحيد هو الله. وأقسم بالله أنني سوف أعمل كل ما في وسعي، وأبذل كل طاقتي لكي أنتصر، مرة أخرى، على الصحراء. بيد أنني أريد، أيضاً، أن يقسم كل منكم بالرب الذي يؤمن به قسماً من أعماقه، على طاعتي في شتى الظروف، لأن العصيان في الصحراء يعني الموت».

اجتاحت الجمع همهمة خافتة. أقسم كل منهم بصوت خفيض، متخذاً من ربّه شاهداً عليه. أقسم الفتى بيسوع المسيح، بينما لزم الإنكليزي الصمت. طالت الهمهمة أكثر من الوقت اللازم لقسم؛ كذلك طلب الناس، أيضاً، الحماية من السماء.

انطلق صوت بوق، واستمر بعض الوقت. فركب كلّ مطيّته.

وكان الفتى والإنكليزي قد اشتريا جملين، ولقيا بعض الصعوبة في اعتلاء السنام. وأبدى الفتى بعض الشفقة على جمل الإنكليزي المحمَّل بصناديق الكتب الثقيلة.

قال الإنكليزي، محاولاً استئناف الحوار الذي بدأ في محطّ القوافل: لا وجود للمصادفات؛ إن أحد أصدقائي هو الذي حملني على المجيء إلى هنا، لأنه يعرف رجلاً عربياً...».

وفي هذا الوقت، سارت القافلة، وغدا من الصعب سماع ما يقول. إلّا أن الفتى كان يدرك تماماً ما رمى إليه: هذه السلسلة الغامضة التي تجمع بين شيء وآخر، والتي جعلت منه راعياً، وجعلت الحلم ذاته يراوده غير مرة، ودفعته إلى أن يتواجد في مدينة قريبة من أفريقية، وأن يلتقي ملكاً في الساحة، وأن يُسرق ماله، فيضطر إلى الذهاب للتعرف إلى تاجرالأواني البلوريّة، و...

قال الفتى في سرّه: «بقدر ما يقترب المرء من حلمه، تغدو **الأسطورة الشخصية** الغاية الحقيقية للحياة».

انطلقت القافلة باتجاه الشرق، تُمْعِن في السير صباحاً، وتتوقّف عندما يشتدّ القيظ، ثم تستأنف السير مع انخفاض الحرارة تدريجاً. لم يكن الفتى يتكلّم كثيراً مع الإنكليزي الذي يقضي معظم الوقت غارقاً في كتبه. لذلك راح يراقب، بصمتٍ، سير الحيوانات، والناس، عبر الصحراء. أصبح كل شيء الآن، مختلفاً، عن يوم الانطلاق. كان ذلك اليوم، يوم الفوضى، والصراخ، وبكاء الأطفال، وأصوات الحيوانات. وفي وسط تلك البلبلة، كلِّها، تتعالى الأوامر الحادّة للأدلّاء والتجار.

ولكن، في الصحراء، لا شيء سوى الريح الأبدية، والسكون، وحوافر الحيوانات، حتى الأدلّاء لا يتبادلون الكلام إطلاقاً.

قال جمّال ذات مساء: «سبق لي أن عبرت هذه المساحات من الرمال. ولكن الصحراء على درجة من الاتساع، والآفاق على درجة من البعد، بحيث نشعر، معهما، أننا صغار جداً، فنلزم الصمت».

أدرك الفتى ما رمى إليه الجمّال بقوله، رغم أنه لم يسلك صحراء من قبل. ولكنه في كل مرّة كان يشاهد فيها البحر أو النار، كان يقضي ساعات طويلة دون أن ينبس بكلمة واحدة، وهو مستغرق في صميم هذا الكون الشاسع وقوّة عناصره.

قال في نفسه: «لقد تعلّمت من أغنامِ، وتعلّمت من بلوريات، وأستطيع، أيضاً، أن أتعلّم من الصحراء، فهي تبدو لي أكثر قِدماً، وأبلغ حكمة».

ما كانت الرياح لتهدأ قطّ. فتذكّر اليوم الذي شعر فيه بهذه الرياح في طريفا، عندما كان جالساً على الأسوار. قد تكون هذه الرياح، الآن، تدغدغ صوف أغنامه التي تذرع براري الأندلس، سعياً إلى الماء والكلأ.

أسرَّ إلى نفسه، دون أن يشعر بحنين حقيقي: «لم تعدْ أغنامي، لا بدَّ من أن تكون قد ألفت راعياً جديداً، ونسيتني تماماً. ربما كان الأمر أفضل هكذا، لأن من تعوّد الترحال، مثل الأغنام، يعرف أنه سيأتي يوم ينبغي فيه الرحيل».

ثمَّ تذكَّر ابنة التاجر، وهو على يقين بأنها تزوجت، ربَّما من بائع فشار، أو من راعٍ يحسن القراءة، هو أيضاً، ويكون بوسعه أن يسمعها حكايات مثيرة. وفي كل حال، ليس من الضروري أن يكون الوحيد. ولكن هذا الشعور، الذي تملّكه، ولّد، في أعماقه، نوعاً من القلق. هل هو بصدد أن يتعلّم، بدوره، هذه اللغة الكونية الشهيرة التي تعرف ماضي البشر وحاضرهم؟ «إنها مجرّد هواجس»، كما كانت تردّد أمه في غالب الأحيان. لقد بدأ يدرك أن الهواجس هي حالات سريعة من غوص الروح في هذا التيار الكوني للحياة،

حيث يتعانق تاريخ جميع البشر في صميمه، على نحو يغدو، معه، تاريخاً واحداً، نستطيع أن نعرف، معه، كل شيء، لأن كل شيء مكتوب.

«مكتوب»، قالها، وهو يفكّر بتاجر أواني البلّور.

تبدو الصحراء تارة من رمل، وتارة من حجارة. وكلما بلغت القافلة كتلة صخرية، دارت حولها، وإذا كانت الكتل الصخرية مكتّسة، قامت بدورة أوسع. وعندما يكون الرمل ناعماً جداً تحت أخفاف الجمال، يجري البحث عن ممر تكون الرمال فيه أكثر ثباتاً. وتكون الأرض مغطّاة بالملح في مكانِ جَمَعَ، من قبل، مياه الأمطار، فتجد الحيوانات صعوبة في السير. عند ذلك يترجَّل الجمّالون ويساعدونها. وقد يضطرون، أحياناً، إلى حمل المتاع على ظهورهم لاجتياز الأماكن الصعبة؛ ثم يعودون لوضعها على ظهور المطايا. وإذا مرض أحد الأدلّاء، أو مات، يعمد الجمَّالون إلى اختيار بديل له بواسطة القرعة.

ولكن ليس لذلك، كلّه، سوى غاية واحدة. فلا أهمية كبيرة لهذه الدورات التي تقوم القافلة بها، ما دامت تسير نحو الهدف نفسه. وبعد أن تجاوز كل العقبات، تجد أمامها النجم الذي يستمر في تحديد الاتجاه نحو الواحة. وعندما يرى المسافرون هذا النجم الذي يلمع في الصباح الباكر، يدركون أنه يرشدهم إلى حيث توجد النساء والماء والنخيل والتمور. وحده، الإنكليزي، لم يكن يبالي بأيِّ شيء لأنه غارق معظم الوقت في كتبه.

كذلك كان لدى الفتى كتاب حاول أن يقرأه، في الأيام الأولى من السفر. لكنه وجد أن مراقبة القافلة، والإصغاء إلى صوت الريح أكثر إثارةً. ومذ تعلَّم كيف يعامل جَمَله، وبدأ يتعلّق به، طرح الكتاب جانباً. فالكتاب عبءٌ إضافي؛ ومع ذلك، كان يخيَّل إليه، على نحو خرافي، أنه سوف يلتقي شخصاً مهمّاً، في كل مرّة يفتح فيها هذا الكتاب.

وانتهى الأمر به إلى إقامة علاقة صداقة مع الجمَّال الذي يراه، باستمرار، إلى جانبه. وحين يُقبل المساء، ويطول السهر حول النار، يحكي له عن مغامراته، يوم كان راعياً.

وفي أحد هذه الأحاديث حكى له الجمّال، بدوره، عن حياته:

«كنت أقيم في محلّة قريبة من القاهرة، وكان لديَّ أرض أزرعها، وأولاد، وعشت حياة لم يكن من المفترض أن تتغير حتى مماتي. ذات سنة، غلّ الموسم خيراً فاق المألوف، سافرنا، جميعنا، إلى مكة. وبذلك أدَّيت الفريضة الوحيدة التي لم أكن قد أدَّيتها حتى ذلك الوقت، فبات بإمكاني أن أموت مطمئنّاً، الأمر الذي أسعدني كثيراً.

«وذات يوم أخذت الأرض تهتزّ، وفاض نهر النيل. وما كان، في اعتقادي، يصيب الآخرين فقط، أصابني، أنا أيضاً. خاف جيراني أن يفقدوا أشجارهم جزاء الفيضان. وخافت زوجتي أن ترى أولادنا غارقين في المياه. واعتراني الخوف لمجرّد التفكير في أن أرى كلّ ما بنيته في حياتي ينهار.

«ولكن لم يكن هناك من حلّ. ولم يبق لدى الأرض ما تزوّدنا به. ووجدت نفسي مكرهاً على إيجاد وسيلة أخرى للعيش. وها أنا، الآن، جمَّال، ولكنني كنت أصغي إلى قوله تعالى: قل إنَّ ربي يبْسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ من عبادِهِ ويَقْدِرُ له.

«إن كل ما كنا نخشاه هو فقداننا ما نملك، سواء أكان حياتنا، أم مزروعاتنا. بيد أن هذا الخوف يزول عندما ندرك أن تاريخنا وتاريخ العالم، إنما كتبا باليد ذاتها».



تتلاقى القوافل، أحياناً، في فترة المساء، حيث تتبادل المساعدات، كما لو أن كل شيء مكتوب، بيدٍ واحدة. ويتبادل الجمّالون المعلومات عن العواصف الرملية. ويجتمعون، حول المواقد، ويروون حكايات الصحراء.

وفي بعض الأحايين، كان يأتي، أيضاً، رجال غامضون ملثّمون، هم بُداة يراقبون المسالك التي تعبرها القوافل. ويقدّمون معلومات عن اللصوص والقبائل المتمردة. يأتون بهدوء وينصرفون بهدوء، متلفّعين بجلابيبهم الداكنة، ولُثمهم الشاشيّة التي تحجب كل شيء إلّا عيونهم.

في إحدى تلك السهرات، انضمّ الجمّال إلى الفتى والإنكليزي اللذين يجلسان قرب النار، وقال:

«ثمّة شائعات عن حرب دائرة بين القبائل».

استمرّ الصمت يلفّ الرجال الثلاثة. ولاحظ الفتى الإسباني إن هناك نوعاً من الخوف الغامض يخيّم، في حين لم يتفوّه أحد بكلمة. فاستشفّ، مرة أخرى، اللغة الخالية من الكلمات، أو اللغة الكونية.

بعد لحظات قليلة، سأل الإنكليزي: أهناك خطر ما؟

أجاب الجمّال:

«إن من يلتزم عبور الصحراء لا يمكنه العودة على أعقابه. وما

دمنا لن نعود إلى الوراء، فينبغي لنا ألَّا نهتمّ إلا بأفضل طريق للتقدُّم إلى الأمام، والباقي مرهون بمشيئة الله، بما في ذلك الخطر».

واختتم ناطقاً بالعبارة الغامضة: «كل شيء مكتوب».

قال الفتى للإنكليزيّ، بعد مغادرة الجمّال: «يجب أن تولي القوافل مزيداً من الانتباه، فهي تقوم بدورات كثيرة، ولكنها تتجّه باستمرار نحو النقطة نفسها».

ــ وأنت. عليك أن تقرأ المزيد عن العالم، لأن الكتب تشبه القوافل تماماً.

بعد ذلك، بدأ الموكب الطويل، من بشرٍ وحيوانات، يتقدّم بوتيرة أسرع. ولم يعد الصمت يخيم أثناء النهار، فحسب، بل في المساء أيضاً، حيث تعوّد الناس التجمُّع ليتحدّثوا حول النار، كان الصمت يخيّم تدريجاً. وذات مساء، قرّر قائد القافلة عدم إيقاد النار، منعاً للفت الأنظار خلال الليل.

فاضطر المسافرون، عندئذٍ، إلى النوم في وسط دائرة مغلقة تشكّلت من الحيوانات، ليتّقوا برودة الليل. وفي الوقت عينه، وزَّع قائد القافلة حرّاساً مسلّحين حول المكان.

في إحدى تلك الليالي، جفا الإنكليزيَّ النومُ، فقصد الفتى الإسباني ليتنزَّها معاً، في الكثبان القريبة. كان القمر بدراً، وروى الفتى للإنكليزي حكايته كلَّها.

أبدى الإنكليزي اهتماماً خاصاً بالفصل المتعلّق بالمتجر الذي أخذ يزدهر، يوماً بعد يوم، مذ باشر الفتى العمل فيه. وقال:

«ها هو المبدأ الذي يُحرّك كل شيء. وهذا ما يُسمّى، في الخيمياء: **روح العالم**. عندما نرغب في شيء، من أعماق قلوبنا، نكون أكثر قرباً من **روح العالم**. إن لذلك، دائماً، قوة إيجابية.

[illegible] لا يشكّل امتيازاً للبشر فحسب، بل إن كلّ ما على سطح

الأرض، يملك، أيضاً، روحاً، سواء أكان معدناً أم نباتاً أم حيواناً أم مجرّد فكرة.

«إن كل ما هو تحت سطح الأرض أو فوقه، لا يكفّ عن التحوّل، لأن الأرض كائن حي، له روحه. ونحن جزء من تلك الروح؛ ونادراً ما ندرك أنها تعمل لصالحنا. لكن يجب أن تدرك أن الأواني، ذاتها، في حانوت البلّور، قد ساهمت في نجاحك».

لزم الفتى الصمت، بعض الوقت، وهو يتأمّل القمر والرمل الفضي. وقال أخيراً:

«راقبت القافلة وهي تعبر الصحراء؛ إنهما تتكلّمان اللغة نفسها. لذلك، تسمح الصحراء للقافلة بأن تعبرها؛ وهي لا تكفّ عن الإحساس بكل خطوة من خطاها، لكي تتحقّق من أنها على تناغم معها. فإذا كان الأمر كذلك، فسوف تبلغ الواحة. أما إذا كان أحدنا لا يفهم هذه اللغة، فإنه، على الرغم من كل الشجاعة التي يتحلّى بها، سوف يموت، منذ اليوم الأول».

ظلّا يتأملان معاً ضوء القمر.

وتابع الفتى قائلاً:

ـ إنه سحر الإشارات. لقد شاهدت كيف يقرأ أدلّاؤنا إشارات الصحراء، وكيف تتحاور روح القافلة مع روح الصحراء.

صمت الإنكليزي لحظة، ثم قال أخيراً:

ـ ينبغي، بالفعل، أن أولي القافلة، انتباهاً أكثر.

ـ وأنا، ينبغي أن أقرأ كتبك.



إنها كتب غريبة حقاً، تتكلّم عن الزئبق والملح والتنينات والملوك، لذلك لم يفهم شيئاً منها. غير أن ثمة فكرة يبدو أنها تتكرر، باستمرار، في معظم هذه الكتب: وهي أن الاشياء، جميعها، ليست سوى تجلّيات لمظهر واحد أوحد.

وقد اكتشف، في أحد الكتب، أن أهم بحث في الخيمياء جاء في بضعة أسطر فقط، كُتبت على زمرّدة بسيطة.

قال له الإنكليزي، فخوراً، بأنه علّم رفيقه شيئاً ما:

«إنه لوح الزمرُّد».

ــ لمَ كل هذه الكتب إذن؟

أجاب الإنكليزي، دون أن يكون مقتنعاً تماماً، بإجابته: «لكي تساعد على فهم تلك الأسطر القليلة».

وكان الكتاب، الذي أثار اهتمام الفتى أكثر من سواه، كتاباً يروي سِيَر الخيميائيين المشهورين. إنهم رجال كرّسوا حياتهم، بكاملها، لتطهير المعادن في المختبرات؛ وكانوا يعتقدون أن وضعَ معدن على النار، لسنوات وسنوات، سيفضي إلى تحرّره من كل خصائصه النوعية. ولا يبقى، عندئذ، مكانه سوى **روح العالم**. هذا هو **الشيء الوحيد** الذي يتيح للخيميائيين أن يفهموا كل ما على الأرض، لأنه يمثّل اللغة التي تتواصل بفضلها الأشياء. إن هذا الاكتشاف هو الذي أطلقوا عليه اسم **الإنجاز العظيم**، المكوَّن من جزء سائل وجزء صلب.

سأل الفتى:

ــ ألا يكفي أن نراقب البشر والإشارات لاكتشاف هذه اللغة؟

أجاب الإنكليزي، منزعجاً:

ــ يبدو أنَّك درجتَ على تبسيط كل شيء. إن الخيمياء عمل جديّ. ومن الضروري أن نتابع كل مرحلة من مراحل سير العملية، كما لقَّننا المعلمون.

اكتشف الفتى أن الجزء السائل من **الإنجاز العظيم** يُسمّى إكسير الحياة، وهو لا يقتصر على شفاء كلّ الأمراض، بل يمنع الخيميائي، أيضاً، أن يهرم. أما الجزء الصلب، فيسمَّى **حجر الفلاسفة**.

وقال الإنكليزي:

«ليس من السهل اكتشاف **حجر الفلاسفة**، فقد بقي الخيميائيون سنوات عديدة في مختبراتهم يراقبون هذه النار التي تطهِّر المعادن. وبقدر ما كانوا ينظرون إلى النار، كانوا يتوصّلون، في أعماقهم، شيئاً فشيئاً، إلى التخلّي عن أباطيل العالم. ثم ما لبثوا أن أدركوا، ذات يوم، أن تطهير المعادن قد أدى، في نهاية المطاف، إلى تطهُّرهم، هم بالذات».

تذكّر الفتى، عندئذ، تاجر البلّور الذي قال له: «إنه لأمر جيد أن ننظّف قطع الكريستال، لأننا بذلك نجد أنفسنا متحررين، في الوقت ذاته، من الأفكار السيئة». كان يقنع نفسه، أكثر فأكثر، بأن الخيمياء يمكن تعلُّمها في الحياة اليومية.

«إن حجر الفلاسفة يملك، فضلاً عن ذلك، ميزة خارقة جداً، إذْ يكفي جزء صغير جداً منه لتحويل كميات كبيرة من المعادن الرخيصة ذهباً».

انطلاقاً من ذلك، غدا اهتمام الفتى بالخيمياء اهتماماً بالغاً. وفكَّر أنه، مع قليل من الصبر، يمكنه أن يحوّل كل شيء ذهباً. قرأ سيرة حياة الأشخاص الذين حقّقوا ذلك، أمثال هلفتيوس وإيلي

وفولكانيلي وجيبير. إنها سِيَرٌ مذهلة: فقد عاشوا، جميعهم، حتى النهاية **أسطورتهم الشخصية**. كانوا يسافرون، ويلتقون العلماء، ويجترحون العجائب أمام أنظار المشكّكين، ويملكون حجر الفلاسفة وإكسير الحياة المديدة.

ولكن، عندما أراد الفتى أن يتعلَّم كيفية تحقيق **الإنجاز العظيم**، وجد نفسه تائهاً كلياً، لأنه لم يرَ سوى رسوم، وتعليمات مرمَّزة ونصوص غامضة.

سأل الإنكليزيّ ذات مساء: «لماذا يستعلمون لغة صعبة الفهم إلى هذه الدرجة؟».

غير أنه لاحظ، في هذه المناسبة، أن الإنكليزي يبدو في مزاج سيئ، كما لو أنه يحنّ إلى كتبه.

بيد أن الإنكليزي أجاب عن سؤال الفتى:

ـ لئلّا يفهمها إلّا أولئك الذين يتمتّعون بمستوى رفيع من المسؤولية يجعلهم قادرين على فهمها. تصوَّرْ أن الناس، جميعهم، يعملون على تحويل الرصاص ذهباً، ألا يغدو الذهب، بعد وقت قصير، بلا أيّ قيمة. وحدهم ذوو النفوس المثابرة والباحثون العنيدون يستطيعون تحقيق **الإنجاز العظيم**. ومن أجل ذلك أنا هنا، في وسط هذه الصحراء،لألتقي، بالتحديد، خيميائياً حقيقياً يساعدني على فك الرموز.

ـ في أي عصر كتبت هذه المؤلفات؟

ـ منذ عدة قرون.

ـ لم يعرف ذلك الزمن المطبعة، ولم يكن من الممكن إطلاقاً أن يتوصّل الجميع إلى معرفة الخيمياء. فلمَ، إذن، هذه اللغة، الشديدة الغرابة وكل هذه الرسوم؟

على الرغم من هذا الإلحاح، لم يجب الإنكليزي عن السؤال. وقال إنه يراقب القافلة، بانتباه، منذ عدة أيام؛ وإنه لم يكتشف شيئاً جديداً، ولم يلاحظ سوى أمر واحد: وهو أنهم يتكلّمون، أكثر فأكثر، عن الحرب.

* * *

أعاد الفتى، ذات صباح، الكتب إلى الإنكليزي، الذي سأله بفضول وإلحاح، وكان في حاجة إلى مَن يثرثر معه، ليطرد خوفه من الحرب:

ـ حسناً، إذن، هل تعلَّمت الكثير؟

ـ تعلَّمت أن للعالم روحاً، وأنّ من يفهم تلك الروح يفهم لغة الأشياء. وتعلّمت أن العديد من الخيميائيين عاشوا **أسطورتهم الشخصية**، وأنهم نجحوا في اكتشاف روح العالم، وحجر الفلاسفة، وإكسير الحياة الطويلة. وتعلّمت، أكثر ما تعلّمت، أن هذه الأشياء على درجة من البساطة، بحيث يمكن أن تُحفر على زمرُّدة.

شعر الإنكليزي بالخيبة. فلا سنوات الدرس ولا الإشارات السحرية، ولا الكلمات العصيّة الفهم، ولا الأدوات المخبرية، تركت أثراً في الفتى. واستنتج أن الفتى يُعاني، بلا شك، شيئاً من البدائية يحول دون إدراكه هذه الأمور.

أخذ كتبه، وأعادها إلى الصناديق المعلّقة في سرج الجمل. وقال للفتى:

،عُدْ إلى قافلتك، فهي، أيضاً، لم تعلّمني شيئاً يُذكر،.

عاد الفتى يتأمّل اتّساع الصحراء، والرمال التي تذريها الحيوانات أثناء سيرها. وكان يردّد في نفسه: ،إنّ لكل امرئ أسلوبه في التعلُّم. فأسلوب كلٍّ منا يختلف عن أسلوب الآخر. بيد أننا، كلينا، نسعى إلى تحقيق **أسطورتنا الشخصية**، لذلك أقدّره،.

* * *

بدأت القافلة تسير، من الآن فصاعداً، ليلَ نهار. وكان الرسل المُلثَّمون يظهرون في كل لحظة. وقد شرح الجمَّال، الذي غدا صديقاً للفتى، قائلاً: «إن حرباً اندلعت بين القبائل، وإننا سوف نكون محظوظين إذا نجحنا في بلوغ الواحة».

كانت الحيوانات منهكة، والناس أكثرَ صمتاً. وغدا الصمت أعمقَ تأثيراً خلال الليل. إذا رغا جمل (ورغاء الجمل كان مألوفاً من قبل) شعر الجميع بالخوف: فربّما عنى ذلك إشارة لهجوم.

مع ذلك، فإن الجمّال، كما بدا، لم يكن مبالياً كثيراً بأمر الحرب.

قال للفتى، وهو يأكل قبضة من التمر في ليلة لا قمر فيها ولا نار مواقد: «إنني حَيٌّ: عندما آكل، لا أفعل شيئاً آخر سوى الأكل. وعندما يحين وقت السير، أسير، هذا كل شيء. وإذا اقتضى الأمر، يوماً، أن أقاتل، فيغدو أيَّ يوم يساوي أي يوم آخر، حيال الموت. لأنني لا أحيا في ماضيَّ، ولا في مستقبلي. ليس لي سوى الحاضر، وهو، وحده، ما يهمّني. إذا كان باستطاعتك البقاء، دائماً، في الحاضر، تكون، عندئذ، إنساناً سعيداً. وسوف تدرك أن في الصحراء حياةً، وأن في السماء نجوماً، وأن المحاربين يقاتلون، لأنَّ في ذلك شيئاً ما ملازماً لحياة البشر. وهكذا تغدو الحياة، في تلك الحال، عيداً، ومهرجاناً كبيراً، لأنها ليست سوى اللحظة التي نعيشها، ليس إلاَّ».

بعد ليلتين اثنتين، وفي حين كان على وشك النوم، نظر الفتى إلى النجم الذي يشير إلى الاتجاه الذي يسيرون فيه؛ فبدا له الأفق أكثر انخفاضاً، لأن في سماء الصحراء مئات النجوم.

قال له الجمَّال:

ـ إنها الواحة.

ـ لماذا، إذن، لا نسير إليها فوراً؟

ـ لأننا في حاجة إلى الرقاد.



فتح عينيه، في حين أن الشمس كانت تستلقي على سرير الغروب في الأفق البعيد. أمامه، حيث لمعت النجوم الصغيرة خلال الليل، يمتدّ صف، لا نهاية له من أشجار النخيل، يغطي كل امتداد الصحراء.

قال الإنكليزي، وهو يطرد، بدوره، فلول النوم:

ــ لقد وصلنا إليها.

ولكن الفتى بقي على صمته. لقد تعلَّم الصمت من الصحراء، واكتفى بالنظر إلى أشجار النخيل المواجهة له. ما زالت، أمامه، طريق طويلة لبلوغ الأهرامات. لكنه، الآن، أي في العيد الذي تكلّم عنه الجمّال، يحاول أن يعيش اللحظة الحاضرة مع دروس ماضيه، وأحلام مستقبله، ولن يكون منظر هذه الآلاف من أشجار النخيل، في يوم ما، سوى ذكرى. ولكنه، في هذه اللحظة، يعني له الظل، والماء، والملجأ من الحرب. وكما يمكن أن يتحوَّل رغاء الجمل إنذاراً بالخطر، كذلك يمكن أن يشكّل صفٌّ من النخيل معجزةً.

وردّد، في نفسه، قائلاً: «إن العالم يتكلم بأكثر من لغة واحدة».



«عندما يسرع الزمن في مسيرته، تسرع القوافل في سيرها أيضاً». هكذا فكَّر الخيميائي لدى مشاهدته وصول مئات الأشخاص والحيوانات إلى الواحة؛ وتدافُع السكان، وهم يصرخون، نحو القادمين الجدد. كان الغبار المُثار يحجب شمس الصحراء، والأطفال يقفزون ابتهاجاً بمشاهدة الغرباء. لاحظ الخيميائي أن زعماء القبائل يتجمَّعون ليلتقوا قائد القافلة ويستغرقوا، معاً، في حديث طويل مشبوه.

ولكن شيئاً، من ذلك كلّه، لم يُثر اهتمامه. لقد سبق أن شاهد الكثير من الناس يأتون ويغادرون، في حين تستمر الواحة والصحراء ثابتتيْن في مكانهما. وشاهد ملوكاً ومتسوّلين يطأون هذه المساحات الرملية التي تُغيّر شكلَها الرياح، ولكنها تستمر، هي ذاتها، كما عرفها مذ كان طفلاً. ورغم ذلك كله، فإنه لم يتمكّن، في أعماقه، من السيطرة على هذا القليل من الحبور الذي يشعر به كل مسافر عندما تظهر، أمام عينيه، خضرة أشجار النخيل، عقب الأرض الصفراء والسماء الزرقاء.

وقال في قرارة نفسه: «ربما خلق الله الصحراء لكي يتيح للإنسان أن يتمتّع بمشاهدة أشجار النخيل».

قرر، عندئذ، أن يركّز تفكيره على أمور ذات طابع عملي. إنه على علم بأن رجلاً سوف يأتي، مع هذه القافلة، ينبغي له أن يعلّمه جزءاً من أسراره. فقد أبلغته الإشارات ذلك. لم يكن يعرف ذلك

الرجل من قبل، ولكن عينيه الخبيرتين سوف تتعزفان إليه في اللحظة التي يراه فيها. وهو يأمل أن يكون شخصاً موهوباً مثل تلميذه السابق.

وردّد في أعماقه: لست أدري لما يجب أن تنتقل هذه الأمور سرًا. فأنا لا أرى أن الأمر يتعلق بأسرار حقيقية، بالضبط، ذلك أن الله يكشف، بسخاء، أسراره لكل عباده،

إنه لا يجد لذلك سوى تفسير واحد: يجب أن يجري تناقل هذه الأمور، على هذا النحو، لأنها تنطوي، دون شك، على حياة خالصة. وهذا النمط من الحياة يصعب التقاطه، وهو يتخذ شكل رسوم أو كلمات.

فالناس يؤخذون بفتنة اللوحات والكلمات، فينسوا في النهاية **لغة العالم**.



اقتيد القادمون الجدد، على الفور، ليمثلوا أمام زعماء القبائل في الفيّوم. وجد الفتى صعوبة في تصديق ما تراه عيناه: فبدلاً من مكان صغير، يحتوي على بئر، وتحيطه أشجار النخيل (بحسب الوصف الذي قرأه، ذات مرة، في أحد كتب التاريخ)، تبيَّن له أن الواحة أكبر بكثير من عدة قرى، مجتمعة، من القرى الإسبانية. فهي تحتوي على ثلاثمئة بئر، وخمسين ألف شجرة نخيل، وعدد كبير من الخيام الملوّنة المنتشرة بين أشجار النخيل.

قال الإنكليزي، وهو متلهفٌ للقاء الخيميائي في أقرب وقت ممكن: «لكأننا في عالم **ألف ليلة وليلة**».

سرعان ما أحاط بهم الأطفال، وهم ينظرون، بفضول، إلى المطايا، والجمال، والناس الوافدين. وكان الرجال يريدون أن يعرفوا منهم: هل رصدوا إشارات تدل على حدوث معارك. أما النسوة، فكنّ يتناهبن الأقمشة، والأحجار الكريمة، التي حملها التجار معهم. لقد غدا سكون الصحراء، الآن، حلماً بعيداً. الجميع يتكلمون دون انقطاع، ويضحكون، ويغنّون بأعلى أصواتهم، كما لو أنهم غادروا عالماً من الأرواح الطاهرة، ليجدوا أنفسهم بين البشر. كان الناس فرحين وراضين.

وعلى الرغم من الاحتياطات المتّخذة منذ الأمس، فإن الواحات المنتشرة في الصحراء تعتبر دائماً أماكن محايدة، لأن الغالبية الساحقة، من الذين يعيشون فيها، هم من النساء والأطفال، كما أن

وجود واحات من الجهتين، يدفع المحاربين إلى القتال في رمال الصحراء، تاركين الواحات آمنة، باعتبارها أماكن لجوء.

جمع قائد القافلة، بشيء من الصعوبة، كل مسافري قافلته، وبدأ يوجه تعليماته إليهم: سوف نبقى هنا ما دامت الحرب دائرة بين القبائل. وبما أن أفراد القافلة ضيوف، فسوف يقيمون في خيام سكان الواحة الذين يقدّمون إليهم أفضل الأماكن. إنه قانون الضيافة التقليدي. ثم طلب إلى الجميع، بمن فيهم أفراد حرسه الخاص، تسليم أسلحتهم إلى الرجال الذين يعيّنهم رؤساء القبائل.

وقال لهم شارحاً: «تلك هي قواعد الحرب. وبذلك لا تُستخدم الواحات ملاذاً للمحاربين».

وذهش الفتى حين أخرج الإنكليزي من جيب سترته، مسدساً ملبَّساً «بالكروم»، وسلّمه إلى الرجل المكلَّف جمع الأسلحة.

فسأله:

ــ لمَ المسدّس؟

أجاب الإنكليزي وهو بادي السعادة لبلوغه مأربه:

ــ لكي يساعدني على أن أثق بالناس.

أما الفتى، فكان يحلم بكنزه. وبقدر ما كان يقترب من حلمه، كانت الأمور تزداد صعوبة. وما كان الملك العجوز يسمّيه «حظ المبتدئ» لم يظهر قطّ. إنه يعرف أن امتحان الإصرار والشجاعة لمن يسعى إلى **أسطورته الشخصية**، إنما يجري الآن. لذلك يجب ألَّا يتسرَّع، وألَّا يكون نافد الصبر، وإلَّا فاتته مشاهدة الإشارات التي وضعها الربُّ في طريقه.

وردّد الفتى في أعماقه مستغرباً: «إن الربَّ هو الذي وضعها في طريقي». لقد كان، حتى الآن، يعتبر أن الإشارات شيء يخصُّ العالم، شيء مثل الأكل والنوم، مثل البحث عن الحب أو البحث عن عمل.

ولكنه لم يفكر إطلاقاً أنها يمكن أن تكون لغة يستعملها الربُّ لكي يريه ما ينبغي فعله.

ثمّ ردّد في سرّه: «لا تكن نافد الصبر». أَوَلم يقل الجمّال: كُلْ عندما يحين موعد الأكل، وعندما يحين موعد السير، سِرْ».

في الليلة الأولى، نام الجميع، بمن فيهم الإنكليزي، جرّاء الإرهاق. كان الفتى في خيمة بعيدة يشغلها خمسة فتيان آخرون يقاربونه في العمر. إنهم من سكّان البادية، ويريدون سماع أخبار المدن الكبرى. تحدَّث الفتى عن حياته كراعٍ، وكان على وشك أن يتطرّق إلى تجربته في متجر البلوريات، عندما دخل الإنكليزي.

قال، وهو يصطحب رفيقه إلى الخارج: «بحثت عنك، طوال فترة الصباح. ينبغي أن تساعدني على إيجاد مسكن الخيميائي».

حاولا، في البداية، أن يعثرا عليه بوسائلهما الخاصة. لا شك في أن الخيميائي يعيش على نحو مختلف عن سائر سكان الواحة. ومن المحتمل جداً أن يكون في خيمته فرن مشتعل باستمرار. وما لبثا أن اكتشفا، بعد أن سارا كثيراً، أن الواحة أكبر، بكثير، مما كانا يتصوران، وأن فيها المئات والمئات من الخيام.

قال الإنكيزي، وهو يجلس مع رفيقه، قرب إحدى آبار الواحة: «ها قد أضعنا قرابة يوم».

فأجاب الفتى: «قد يكون من الأفضل أن نسأل».

لم يكن الإنكليزي راغباً بالكشف عن وجوده في الفيوم، فبدا مترذداً. ثم استجاب، وطلب إلى الفتى، الذي يتقن العربية أكثر منه، أن يتولّى الأمر. عند ذلك، تقدّم الفتى من امرأة بلغت البئر لتملأ قُربة من جلد الغنم.

وخاطبها قائلاً:

ـ مساء الخير، يا سيدتي! هلّا أرشدتني إلى مسكن خيميائي يعيش في هذه الواحة.

أجابت المرأة أنها لم تسمع به من قبل، وانصرفت في الحال. إلّا أنها تباطأت، لكي تحذّر الفتى من توجيه الكلام إلى النسوة اللواتي يرتدين ثياباً سوداً، لأنهن نسوة متزوّجات. وتلفته إلى احترام التقاليد.

أصيب الإنكليزي بصدمة قوية. وبدت رحلته بلا جدوى. كذلك شعر رفيقه بالحزن. فالإنكليزي، مثله، يتابع **أسطورته الشخصية**. ومن يكون كذلك، فإن الكون باكمله يقف إلى جانبه حتى يجد ضالّته؛ هكذا قال الملك العجوز، ولا يمكنه أن يخطئ.

قال أحد الشبّان:

ـ لم أسمع، حتى الآن، بوجود أيّ خيميائي، وإلّا لما ترددت في مساعدتك.

أشرقت نظرة الإنكليزي، فجأة، بوميض خاطف:

«هذا أمر طبيعي. ربما كان الكثيرون هنا لا يعرفون معنى كلمة خيميائي. إسأل، إذن عن رجل يعالج كل الأمراض!».

جاءت عدة نسوة يرتدين الزيَّ الأسود، ليملأن جرارهن من ماء البئر. ولم يرضخ الفتى لإصرار الإنكليزي على توجيه السؤال إليهن. أخيراً اقترب أحد الرجال.

سأله الفتى:

ـ هل تعرف أحداً يعالج المرضى في هذه القرية؟

أجاب الرجل بادي الخوف من هذين الغريبين: «إن الله وحده، هو الذي يشفي من جميع الأمراض. أنتما تبحثان عن سَحَرة».

وبعد أن تلا بعض الآيات القرآنية، تابع طريقه.

جاء رجل آخر أكبر سناً، يحمل دلواً صغيراً. طرح الفتى عليه السؤال ذاته. فأجاب:

ـ لم تريدان التعرُّف إلى رجل كهذا؟

ـ لأن صديقي، هذا، قام برحلة استغرقت عدة شهور بهدف لقائه.

قال الرجل العجوز بعد أن فكَّر قليلاً:

ـ إذا كان هذا الرجل في الواحة حقاً، فلا بدَّ من أن يكون رجلاً مهماً جداً. ولا يقدر حتى زعماء القبائل أن يقابلوه، متى احتاجوا إليه. ينبغي أن يقرر هو بنفسه.

ثم ختم حديثه، وهو يبتعد: «انتظرا نهاية الحرب، وغادرا مع القافلة، لا تحاولا التدخل في حياة الواحة».

لكن الإنكليزي فرح بما سمع. إنهما على الدرب الصحيح.

في هذه الأثناء، ظهرت فتاة لم تكن ترتدي الثوب الأسود. كانت تحمل جرة على كتفها، ويعلو رأسها منديل، ولكن وجهها كان سافراً. تقدّم الفتى نحوها ليسألها عن الخيميائي.

عندئذ، بدا الأمر وكأنَّ الزمن قد توقَّف، وكأن روح العالم قد انبثقت بكل قوّتها أمام الفتى.

عندما شاهد عينيها السوداوين وشفتيها الحائرتين بين التبسم والصمت، أدرك الجزء الجوهري، الأكثر إفصاحاً في اللغة التي يتكلم بها العالم، والتي تستطيع كل كائنات الأرض أن تفهمها في أعماقها، وهو ما يسمى الحب. إنه شيء ما أكثر قِدماً من البشر ومن الصحراء ذاتها. ومع ذلك يتكرر انبثاقه بالقوة، ذاتها، وفي كل مكان، كلَّما تعانقت نظرتان مثلما حدث للتوّ قرب بئر ماء. افترّت شفتا الفتاة، أخيراً، عن ابتسامة كانت بمثابة إشارة، وهي الإشارة التي انتظرها، دون أن يدري، خلال فترة طويلة جداً من

حياته، والتي كان يبحث عنها في الكتب، وقرب نعاجه، وفي الكريستال، وفي صمت الصحراء.

إنها هي بالذات، لغة العالم النقي، دون أيّ تفسير، لأن الكون لا يعوزه تفسير لكي يتابع مسيرته في الفضاء اللامتناهي. إن كل ما فهمه، في هذه اللحظة، هو أنه موجود أمام امرأة حياته، دون أيِ ضرورة للكلام، ولا بد أنها تعرف ذلك هي أيضاً. إنه على يقين بشعوره أكثر من أي شيء في العالم. حتى وإن كان أقاربه وأقارب أقاربه يقولون، باستمرار: المغازلة في البدء، فالخطوبة، فمعرفة الطرف الآخر، ومن ثم امتلاك المال للزواج. إن من يقول بذلك، لا يعرف، إطلاقاً، **اللغة الكونية**، لأن من يتمكّن منها، يدرك أن هناك على الدوام شخصاً ما في العالم ينتظر شخصاً آخر، سواء أكان ذلك في وسط الصحراء، أم في أعماق المدن الكبرى. وعندما يلتقي ذانك الشخصان، وتتعانق نظراتهما، يغدو الماضي والمستقبل بلا أهمية، إذْ لا وجود إلَّا لهذه اللحظة الراهنة، ولهذا اليقين، الذي لا يمكن إدراكه، بأن كل شيء، تحت قبة السماء، قد كُتب باليد ذاتها، اليدِ التي تلد الحب، والتي خلقت توأماً لروح كل كائن يعمل، أو يرتاح، أو يبحث عن الكنوز تحت نور الشمس. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإن أحلام الجنس البشري تغدو بلا معنى.

أسرَّ إلى نفسه: «كل شيء مكتوب»..

نهض الإنكليزي، الذي كان جالساً، وهزَّ صديقه الفتى، قائلاً:

«هيَّا! سلْها».

اقترب الفتى من الفتاة. ابتسمت ثانيةً، وابتسم هو أيضاً.

سألها:

ــ ما اسمكِ؟

أجابت، وهي تخفض نظراتها:

ـــ فاطمة.

ـــ اسم تحمله بعض النسوة في البلاد التي جئت منها.

ـــ إنه اسم بنت النبي، وقد نقله محاربونا إلى هناك.

كانت الفتاة تتكلّم عن المحاربين باعتزاز. وكان الإنكليزي، إلى جانبه، يُلحُّ عليه، فسألها الفتى ما إذا كانت قد سمعت بالرجل الذي يشفي كل الأمراض.

قالت:

«إنه رجل يعرف أسرار العالم ويتكلّم مع الجنّ في الصحراء». عنت بالجنّ الأرواح الخيّرة والشريرة في آن. وأشارت بحركة من يدها نحو الجنوب، حيث يسكن هذا الشخص الغريب. ثم ملأت جرّتها وانصرفت. وذهب الإنكليزي، أيضاً، ليبحث عن الخيميائي. في حين لبث الفتى، لوقت طويل، جالساً قرب البئر، مدركاً أن الشرق قد ترك على وجهه، ذات يوم، عطر هذه المرأة، وأنه كان يحبها حتى قبل أن يعرف أنها على الأرض، وأن الحب الذي يكنّه لها سوف يمكّنه من اكتشاف أسرار العالم جميعها.

في اليوم التالي، جاء إلى البئر لينتظر الفتاة، ففوجئ بوجود الإنكليزي، هناك، يتأمّل الصحراء لأول مرة.

قال الإنكليزي:

«انتظرت طوال العصر والمساء. وصل مع ظهور أولى النجمات. أخبرته بما أبحث عنه. وسألني ما إذا كنت قد حوّلت الرصاص ذهباً، من قبل. أجبته أن هذا، بالتحديد، ما أريد أن أتعلّمه. فقال لي، عندئذ، «هيَّا، حاول»، ولم يضف أيّ كلمة أخرى.

ظلَّ الفتى صامتاً. فالإنكليزي لم يقم بهذه الرحلة، كلّها، إلا

ليسمع ما كان يعرفه من قبل. وتذكّر أنه هو، نفسه، أعطى الملك العجوز ستة خراف ليبلغ نتيجة مشابهة.

قال للإنكليزي:

ــ حاول إذن.

ــ هذا، ما سوف أفعله، وسوف أباشر فيه.

بعد ذهابه، وصلت فاطمة إلى البئر لتملأ جرَّتها. فقال لها:

«جئت لأفضي إليك بأمرٍ بسيط للغاية: أود أن تكوني زوجتي. إنني أحبك».

تركت الفتاة الإناء يطفح بالماء.

واستأنف الفتى كلامه:

ــ سانتظرك، كلّ يوم، في هذا المكان. لقد اجتزت الصحراء لأبحث عن «كنز خبيئ قرب الأهرامات. كانت الحرب لعنةً عليَّ، فإذا بها تستحيل نعمةً، لأنها تبقيني قريباً منك.

ــ سوف تنتهي الحرب ذات يوم.

نظر إلى أشجار النخيل في الواحة. تذكّر أنه كان راعياً، ولديه أعداد كبيرة من الخراف. وأدرك أن فاطمة أكثر أهمية من الكنز.

قالت، كما لو أنها تقرأ أفكاره:

«المحاربون يبحثون عن كنوزهم. ونساء الصحراء يفخرن بمحاربيهن».

ثم ملأت جرتها من جديد، وغادرت.

واظب الفتى على ارتياد البئر بانتظار مجيء فاطمة. حدَّثها عن حياته، كراعٍ، ولقائه الملك، وعن متجر البلوريات. أصبحا صديقين،

وباستثناء الدقائق الخمس عشرة التي يقضيها برفقتها، كان يحسّ بيومه طويلاً، طويلاً، لا يُحتمل.

بعد مرور قرابة الشهر على وجوده في الواحة، دعا قائد القافلة المسافرين، جميعهم، إلى اجتماع.

قال لهم:

«لسنا ندري متى تنتهي الحرب، وليس بإمكاننا استئناف رحلتنا. سوف تستمر المعارك، بلا ريب، لوقت طويل ربما بلغ سنوات. إن في كلتا الجهتين مقاتلين أشدّاء، كما أن الجيشين فخوران، بخوض المعارك. ليست هذه الحرب حرباً بين الصالحين والأشرار، بل هي حرب بين قوى تتناحر للاستيلاء على السلطة ذاتها. وعندما تندلع حرب من هذا النوع، فإنها تطول أكثر من أي حرب أخرى، لأن الله يقف فيها إلى جانب كلٍّ من الفريقين، في آن».

تفرَّق الجمع. وفي المساء التقى الفتى فاطمة، من جديد، وأطلعها على ما جرى في الاجتماع.

قالت الفتاة:

«حدّثتني، في لقائنا الثاني، عن حبّك. ثم لقّنتني أموراً جميلة جداً، مثل **اللغة الكونية وروح العالم**. وشيئاً فشيئاً، غدوت، جزاء ذلك، جزءاً من ذاتك».

كان الفتى يصغي إلى صوتها، ويجده أكثر جمالاً من وشوشة الريح وأشجار النخيل.

وما لبث أن قال:

«مضى وقت طويل على ارتيادي هذه البئر، لأنتظرك، فلا تذكَّرت ماضيّ، ولا التزمت العادات التي يريد الرجال أن تتقيّد نساء الصحراء بها. كنت أحلم، في طفولتي، أن الصحراء قد تحمل لي،

ذات يوم، أجمل هدية في حياتي، وها هي الهدية بين يدي، إنها أنت».

أراد أن يمسك يدها، ولكن يديها كانتا تمسكان بأذنيْ الجزة.

فقالت له:

«حدّثتني عن أحلامك، وعن الملك العجوز. وعن الكنز، كما حدثتني عن الإشارات. لذلك لم أعد أخاف شيئاً، لأن تلك الإشارات هي التي جاءت بك إليّ. إنني أصبحت جزءاً من حلمك، ومن **أسطورتك الشخصية**، مثلما تقول غالباً. لهذا السبب دون سواه، أريدك أن تتابع طريقك باتجاه ما جئت تبحث عنه. وإذا كان ينبغي لك أن تنتظر نهاية الحرب، فذا أمر جيد، أما إذا كان عليك الرحيل قبل ذلك، فاذهب، إذن، نحو أسطورتك، فالكثبان تتغيّر بفعل الرياح، ولكن الصحراء تستمر هي ذاتها، وكذلك هو شأن الحبّ الذي وُلِد بيننا.

أضافت: «إذا كنت جزءاً من أسطورتك، فسوف تعود ذات يوم؛ هذا ماكتب لك».

شعر بالحزن عندما فارقها. فكّر بأناس كثيرين كان قد عرفهم. كان الرعاة المتزوّجون يجدون صعوبة في إقناع نسائهم بضرورة تجوالهم في البراري، حيث يقيمون. إن الحبّ يقتضي البقاء قرب من نحبّ.

وفي اليوم التالي، حدّث فاطمة بهذه الأمور كلّها.

فقالت له:

«إن الصحراء تأخذ رجالنا، ولا تعيدهم أحياناً. يجب أن نتعوّد ذلك. وإثر غيابهم، يتراءون لنا في الغيوم التي تعبر دون أن تمطر، وفي الحيوانات التي تتوارى بين الصخور، وفي المياه السخية التي

تنبجس من الأرض. يصبحون جزءاً من كل شيء، أي من **روح العالم**. بعضهم يعود، فتغمر السعادة النسوة الأخريات، لأن الرجال الذين ينتظرْنَهم يمكن أن يعودوا، هم أيضاً، ذات يوم.

«كنت، من قبل، أنظر إلى أولئك النسوة وأغبطهن على تلك السعادة. أما الآن، فسوف يكون لديَّ من أنتظره. إنني أمرأة من الصحراء، وأراني فخورة بذلك. أريد أن ينطلق رجلي، هو أيضاً، حرّاً مثل الريح التي تحرّك الكثبان، وأن يتاح لي أن أراه في السحب، وفي الحيوان، وفي الماء».

ذهب الفتى إلى الإنكليزي. أراد أن يحدّثه عن فاطمة، ففوجئ به وقد بنى فرناً صغيراً إلى جانب خيمته. كان فرناً غريباً وضع عليه وعاء شفافاً، وراح يضرم النار في الحطب، ويتأمّل الصحراء. بدت عيناه أكثر لمعاناً ممّا كانتا عليه وهو يقضي كلّ وقته غارقاً في الكتب.

قال للفتى:

«إنها المرحلة الأولى من العمل. يجب فصل الكبريت الخام، ينبغي لي ألّا أخشى الفشل. إن خوفي من الفشل هو الذي ظلّ، حتى الآن، يمنعني من محاولة تحقيق **الإنجاز العظيم**. وها أنا أبدأ، الآن، بما كان ينبغي أن أبدأه قبل عشر سنوات. ولكنني سعيد، لأنني لم أنتظر عشرين سنة».

وتابع تغذية النار، وهو ينظر إلى الصحراء. ومكث الفتى قربه، إلى أن ألقت شمس المغيب ألوانها الوردية على رمال الصحراء. فشعر، عندئذ، برغبة جامحة في الذهاب إلى هناك، ليرى ما إذا كان السكون قادراً أن يجيب عن تساؤلاته.

سار، على غير هدى، بعض الوقت، دون أن تغيب أشجار النخيل عن نظره. كان يصغي إلى الريح، ويُحسُّ بصلابة الحصى تحت قدميه. كان أحياناً يجد صَدَفَةً، ويدرك أن هذه الصحراء كانت في غابر الزمن بحراً واسعاً. جلس على صخرة كبيرة وترك نفسه

تُفتن بروعة الأفق الماثل أمامه. ليس بوسعه أن يتصوَّر الحب دون أن يشرك فيه فكرة الامتلاك. ولكن فاطمة امرأة من الصحراء. وإذا كان ثمَّة شيء يستطيع مساعدته على الفهم، فهو الصحراء فحسب.

لبثَ هكذا، دون أن يفكر في شيء، حتى اللحظة التي أحسّ فيها أن شيئاً ما يتحرّك فوق رأسه. نظر إلى أعلى، وشاهد صقريْن يحلّقان، عاليا جدّاً، في السماء.

راقب الطيرين الجارحين، والأشكال التي يرسمانها أثناء طيرانهما. بدت تلك الأشكال خطوطاً مبعثرة، لكنّها كانت تعني له الكثير.

لم يستطع فهم ما ترمز إليه. فقرَّر حينئذ متابعة حركات الطيريْن؛ ربما استطاع أن يقرأ فيها رسالة ما، وربما استطاعت الصحراء أن تشرح له معنى الحب دون امتلاك.

أحسَّ بالنعاس، إلّا أن قلبه حثّه ألّا ينام. لكنه، خلافاً لذلك، كان يشعر بحاجة قصوى إلى الاستسلام. قال في نفسه: «ها أنا أتغلغل في صميم **لغة الكون**. إن ولكلّ شيء، هنا معنى، حتى تحليق الصقرين». وشعر أنه خصّ هذا الحب الذي يكنُّه لامرأة بتقدير كبير: «عندما نحبّ، تكتسب الأشياء معانيَ أكثر غِنًى».

فجأة، انقضّ أحد الصقرين، عموديًا، لمهاجمة الآخر. وفي هذه اللحظة بالذات، لاحت للفتى رؤيا مفاجئة وخاطفة: جماعة مسلّحة تقتحم الواحة شاهرة السيوف. وسرعان ما اختفت الرؤيا تاركة فيه أثراً عميقاً. لقد سمع الكثير عن السراب، وسبق أن شاهد بعضاً منه. وما السراب إلّا رغبات تتجسَّد فوق رمال الصحراء. وهو مع ذلك لا يريد، البتّة، أن يرى جيشاً يحتلّ الواحة.

أراد أن ينسى ذلك كلَّه ويعود إلى التأمُّل. فحاول، من جديد، أن يركِّز تفكيره على الصحراء بلونها الوردي، وعلى الحجارة. ولكن شيئاً ما، في قرارته، كان يقطع عليه سبيل الراحة.

ألم يقل له الملك العجوز: «اتبع الإشارات باستمرار». فكَّر بفاطمة.

ثم تذكّر الرؤيا التي ارتسمت له، والتي حدس أنها لن تكون بعيدة عن أن تغدو واقعاً.

عانى كثيراً قبل أن يتمكّن من تبديد القلق الذي ساوره. نهض وسار باتجاه أشجار النخيل. أدرك، مرة جديدة، اللغات المتعددة للأشياء: باتت الصحراء، الآن، هي الأمان، والواحة هي الخطر.

كان الجمّال جالساً عند جذع نخلة يراقب، هو أيضاً، غروب الشمس. أبصر الفتى قادماً من وراء أحد الكثبان.

قال الفتى على الفور:

ـ هناك جيش يقترب، لقد ارتسمت لي رؤيا.

ـ إن الصحراء تملأ قلوب البشر بالرؤى.

ولكن الفتى حدَّثه عن الصقرين، وكيف كان يرقب تحليقهما، ثم غاص فجاة، في **روح العالم**.

لم يُجب الجمَّال. إنه يدرك ما قاله محدِّثه. ويعرف أنَّ أي شيء، على وجه الأرض، يستطيع أن يروي تاريخ كلّ الأشياء. إذا فتحنا صفحة من كتاب، أو تفحّصنا يديْ شخصا، أو راقبنا تحليق طائر، أو أمعنّا النظر في ورق للعب، أو في أيِّ شيء آخر، فإن كلًّا منا يمكنه أن يكتشف صلةً بما يعيشه. لا تكشف الأشياء، في الحقيقة، أمراً بذاتها، بل إن الناس هم الذين يكتشفون، بملاحظتهم الأشياء، طريقة للنفاذ إلى **روح العالم**.

كانت الصحراء مأهولة برجال يكسبون عيشهم، لأنهم يستطيعون النفاذ، بسهولة، إلى **روح العالم**. كانوا يُسَمّون بالعزافين. وكانوا يخيفون النساء والعجائز. ونادراً ما يستشيرهم المحاربون؛ أوَيمضي أحدٌ إلى الحرب وهو يعرف، مسبقاً، اللحظة التي سيموت فيها؟ إن المحاربين يفضّلون طعم القتال والإثارة الناجمة عن المجهول. وهم يستبشرون في المستقبل خيراً. فالله من كتبه، وكلّ ما يكتبه الله إنما يجيء لخير البشر. فالمحاربون، إذن، يعيشون الحاضر ببساطة، لأنهم يرونه غنيًّا بالمفاجآت، وبحتّم عليهم أن يكونوا

متيقظين لأمور كثيرة: أين يكمن سيف العدو، وجواده، وأيّ ضربة يسدّدون لينجَوا من الموت.

لم يكن الجمَّال محارباً، وقد سبق له أن استشار بعض العرّافين. كثيرون منهم قالوا له أشياء صحيحة، وآخرون قالوا أشياء باطلة. وذات يوم، سأله أحدهم، وكان الأكبر سنّاً (والأكثر مهابة)، لماذا يهتم كثيراً بمعرفة المستقبل.

أجابه الجمّال:

- لكي أفعل بعض الأشياء، وأحول دون حدوث ما لا أريده أن يحدث.

- عندئذ لن يكون هذا المستقبل مستقبلك.

- ولكن ربّما أردت معرفة المستقبل لأكون مستعدّاً لما لا بدَّ من حدوثه.

- سيكون للأشياء الحسنة وقعٌ جميل؛ لكنَّ الأمور السيّئة سوف تسبّب لك الألم قبل حدوثها.

- أريد أن أعرف المستقبل لأني إنسان، والناس تحكم معيشتهم العلاقة بمستقبلهم.

لبث العرّاف، صامتاً، بعض الوقت. كانت مهنته اللعب بالعصيّ التي تُطرح على الأرض: فيفسّر الأمور بحسب وقوعها. ولكنه لم يستخدم، ذلك اليوم، العصيّ، بل لفَّها في قطعة من القماش، ووضعها في جيبه.

قال العراف:

«أكسب عيشي متكهّناً بمستقبل الناس، ولديّ خبرة باستعمال العصا لمعرفة الغيب. في ذلك المجال، يمكنني معرفة الماضي، ونبش ما هو منسيّ، وفهم إشارات الحاضر. عندما يستشيرني الناس، لا أقرأ المستقبل: بل أتكهّنه، لأن المستقبل لا يعلمه إلَّا الله، وهو وحده يكشفه، في ظروف غير عادية. ولكن كيف يمكنني التنبُّوء بالمستقبل؟ بفضل إشارات الحاضر. ففي الحاضر يكمن السرّ؛ وإذا

انتبهتَ إلى حاضرك، أمكنك جعله أفضل ممّا هو عليه. ومتى حسَّنت الحاضر، فإن ما يأتي، بعد ذلك، يكون أفضل أيضاً. إنسَ المستقبل، وعِشْ كل يوم من حياتك وفق أحكام الشريعة، متّكلاً على رحمة الله بعباده، فكلّ يوم يحمل الأبدية في صميمه».

أراد الجمَّال أن يستشفّ طبيعة تلك الظروف الاستثنائية التي يسمح الله أن يُرى المستقبل بواسطتها:

«إنّما يكشفها **هو** ذاته، ونادراً ما يكشفها، وذلك لسبب واحد: إنه مستقبل كُتبَ لكي يتغيَّر».

ردّد الجمال في سرّه:

«لقد كشف الله مستقبل الفتى، لأنه أراد أن يغدو الفتى أداته».

ثمّ قال:

ــ إذهب وقابل زعماء القبائل، وحدِّثهم عن المحاربين الذين يقتربون.

ــ سوف يهزأون بي.

ــ إنهم رجال من الصحراء، ورجال الصحراء أَلِفوا الإشارات.

ــ إذن، لا بدَّ من يكونوا قد عرفوا مسبقاً.

ــ ليس ذلك من همومهم، فهم يعتقدون أن ضرورة اطّلاعهم على أمر شاء الله أن يطلعهم عليه، تدفع بأحدٍ أن يأتي ليخبرهم به. حصل ذلك غير مرة. أما اليوم، فأنت، بالذات، «الرسول».

فكَّر الفتى بفاطمة، وقرَّر الذهاب لمقابلة زعماء القبائل.

قال للشخص الذي كلِّف الحراسة عند مدخل الخيمة البيضاء الكبيرة، المنصوبة في وسط الواحة:

ـ إنني أحمل رسالة من الصحراء، وأريد أن أتكلّم مع الزعماء.

لم يجب الحارس بكلمة، بل دخل الخيمة. غاب طويلاً، ثم خرج برفقة رجل عربي يرتدي الأبيض والمذهَّب. أخبره الفتى بما شاهد. فطلب إليه العربي أن ينتظر قليلاً، ثم دخل.

هبط الليل. ثمّة عرب وتجّار يدخلون ويخرجون بأعداد كبيرة. بدأت أضواء الخيام تنطفئ تدريجاً، وغدت الواحة بُعيد ذلك ساكنة مثل الصحراء. وحدها، الخيمة الكبيرة، ظلّت مضاءة. وطوال هذا الوقت، لم يكفّ الفتى عن التفكير بفاطمة، رغم أنه لم يفهم جيداً الحوار الذي دار بينهما، بعد الظهر.

أخيراً، وبعد عدة ساعات، أذِن الحارس له بالدخول.

ما شاهده، في الداخل، أغرقه في حالة من الذهول. لم يكن يتصوَّر، إطلاقاً، وجود خيمة، كهذه الخيمة، في وسط الصحراء. فالأرض مغطاة بأجمل أنواع السجاد الذي لم تطأ قدماه مثله. ومن السقف تتدلّى ثريات من المعدن المرصّع بالذهب تحمل شموعاً مشتعلة. كان الزعماء يتصدّرون الخيمة في شكل نصف دائري. وقد أرخيت أرجلهم وأذرعتهم على طنافس من الحرير المطرّز. وكان الخدم يروحون ويجيئون، حاملين صواني من الفضة، حافلة بأشهى الأطعمة، أو بأقداح الشاي. وآخرون يسهرون على إبقاء جمر النراجيل مشتعلاً. ورائحة التبغ الزكية تملأ الجو.

كان، في الخيمة، ثمانية زعماء. ولكنه أدرك، على الفور، أيَّهم الأرفع منصباً: إنه رجل عربي، يرتدي الأبيض والمذهَّب، جلس في وسط نصف الدائرة، وإلى جانبه الشاب الذي تكلّم معه، قبل قليل.

سأل أحد الزعماء، وهو ينظر إليه:

ـ من هو الغريب الذي تكلم عن رسالة؟

أجاب الفتى:

ـ أنا.

وأخبرهم بما رأى.

قال زعيم قبيلة آخر:

ـ لماذا تقول الصحراء، إذن، هذه الأشياء إلى رجل قادم من مكان آخر، وهي تعلم أننا، هنا، منذ عدّة أجيال؟

ـ لأن عينيَّ لم تتعوّدا الصحراء بعد، ما يمكّنني من مشاهدة أشياء لا تستطيع مشاهدتها العيون التي ألِفت ذلك.

«ولأنني أعرف، أيضاً، **روح العالم**» هذا ما أسرّ به الشاب إلى نفسه، من دون أن يقوله، لأن العرب لا يعتقدون بمثل هذه الأشياء.

قال زعيم ثالث:

ـ إن الواحة أرض محايدة. لا أحد يهاجم واحةً.

ـ إنني أحكي عمّا شاهدت. فإذا كنتم لا تريدون تصديقه، فلا تحرّكوا ساكناً.

أطبق على الخيمة صمت شامل، احتدم بعده الجدال بين الزعماء الحاضرين. ولما كانوا لا يتكلّمون اللغة العربية الفصحى، فإن الفتى لم يتمكّن من الفهم. لكن عندما بدا عليه التأهّب للخروج، طلب الحارس إليه أن يبقى. عند ذلك، شعر ببعض الخوف، ذلك أن الإشارات قالت له أن ثمّة أمراً لا يوحي بالارتياح، وندم على خوضه في هذا الموضوع مع الجمّال.

فجأة، لاحت ابتسامة، لا تكاد ترى، على وجه الرجل الطاعن، الجالس في الوسط، فعاوده الاطمئنان. لم يشارك العجوز في النقاش، ولم يقل أي كلمة بعد. ولكن الفتى كان يدرك من قبل **لغة العالم**، وبإمكانه أن يحسَّ بذبذبة **سلامٍ** تعبر الخيمة من جهة لأخرى. وأنباه حدسه أنه أحسن فعلاً بمجيئه.

بانتهاء النقاش، سكت الجميع ليسمعوا كلام الرجل العجوز الذي التفت إلى الفتى الغريب، وكانت سماته باردة وجافة، وقال:

«قبل ألفيْ عام، وفي بلاد نائية، أُلقي في بئر رجل بيع عبداً،

وكان يؤمن بالأحلام. اشتراه تجّار من بلادنا وجاؤوا به إلى مصر. ونعرف، جميعنا، أن من يؤمن بالأحلام، يحسن، أيضاً، تفسيرها».

ردّد الفتى في سرّه، متذكّراً الغجرية العجوز: «وإن كان لا يتوصل، دائماً، إلى تحقيقها».

تابع الرجل المسنّ:

«بفضل ما راود فرعون مصر من أحلامٍ تراءت فيها البقرات العجاف، والبقرات السمان، أنقذ ذلك الفتى مصر من المجاعة. كان اسمه يوسف، وكان مثلك، أيضاً، غريباً في بلد غريب، وعمره يقارب عمرك تقريباً».

حلَّ الصمت طويلاً. واستمرت نظرة العجوز نظرة باردة.

واستأنف قائلاً:

«إننا نتقيّد، دائماً، **بالتقليد**. **فالتقليد** أنقذ مصر من المجاعة في ذلك الزمن، وجعل من شعبها الأغنى بين الشعوب. **والتقليد** يعلّم الرجال كيف يعبرون الصحراء، وكيف يزوّجون بناتهم. ويقول **التقليد** إن أيَّ واحة هي أرض محايدة، لأن لكلا المعسكرين واحاتٍ، جميعها عرضة للأخطار».

وبينما كان العجوز يتكلّم، لم ينبس أحد ببنت شفة.

«ولكن **التقليد** يقول لنا، أيضاً، أن نصدّق رسائل الصحراء، لأن كلَّ ما نعرفه علّمتنا إيّاه الصحراء».

وبإشارة من العجوز، وقف الجميع. لقد انتهى الاجتماع. أُطفئ جمر النراجيل، وتأهّب الحرّاس، وتهيّأ الفتى لمغادرة المكان، لكن العجوز استأنف الكلام:

«غداً نُبطل مفعول الاتفاق القاضي بعدم حمل السلاح في الواحة. وأثناء النهار، ننتظر العدوّ. وعندما تميل الشمس نحو الأفق، يعيد الرجال، إليَّ، أسلحتهم. ومقابل كل عشرة قتلى من العدو، تُمنح قطعة من الذهب.

،غير أن الأسلحة يجب ألَّا تخرج من مخابئها إلا لخوض المعركة، لأن الأسلحة مشاكسة كالصحراء. فإن نحن أخرجناها من دون هدف، فيمكن أن تحرن، فلا تُطلق. وإذا لم تُستخدم أي قطعة منها، غداً، فسوف تكون هناك واحدة، على الأقل، لكي تُستخدم ضِدَّك أنت».



لدى خروج الفتى من الخيمة، لم تكن الواحة مضاءة إلَّا بنور القمر. كان ينبغي له أن يسير عشرين دقيقة ليبلغ خيمته، فقفل عائداً.

بات مشوّش الذهن من كل ما جرى. شعر نفس مغموراً بروح العالم. وقد غدا من الممكن أن يكون الثمن حياته بالذات. إنه رهان كبير. ولكن رهانه كان كبيراً منذ اليوم الذي باع، فيه، خرافه ليتبع **أسطورته الشخصية**. أوَلم يقل الجمّال إن الموت، غداً، مثله مثل الموت في أي يوم آخر، وإن كل يوم يأتي إما لنحيا، وإما لنغادر هذا العالم. والأشياء جميعها تتعلق بعبارة واحدة هي: «كلّ شيء مكتوب».

تابع مسيرته صامتاً، وهو ليس بآسف لشيء. إذا مات غداً، فذلك يعني أن الله ليس راغباً بتغيير المستقبل. ولكنه يكون قد مات بعد أن عبر المضيق، وبعد أن عمل في متجر البلوريات، وعرف الصحراء وعينيْ فاطمة. لقد عاش حياة كان كلّ يوم من أيامها حافلاً، حياةً بدأت يوم غادر بلده، منذ زمن بعيد. وإذا كان لا بدَّ من موته، غداً، فإن عينيه قد شاهدتا من الأشياء أكثر مما شاهدته عيون الرعيان الآخرين بكثير، وهو فخور بذلك.

فجأة، سمع ما يشبه دويّ الرعد، ووجد نفسه مُلقىً على الأرض بفعل عاصفة هوجاء. واكتسحت المكان سحابة من الغبار كادت

تحجب ضوء القمر. ثم انتصب، أمامه، جواد أبيض، هائل الحجم، يصهل صهيلاً مخيفاً.

حاول، بصعوبة، أن يتبيَّن ما يحصل. وعندما انقشع الغبار قليلاً، شعر بخوف لم يشعر بمثله، من قبل. انتصب، قبالته، رجل على صهوة جواده، يرتدي ثياباً سوداء ويعتمر عمامة، ويعلو وجهه لثام لا تبدو منه سوى عينيه، ويجثم على كتفه اليسرى صقر. بدا كأنه رسول الصحراء، لكنه يتمتّع بحضور لا مثيل له لدى أي شخص في العالم.

استلَّ الفارس الغريب، من الغمد، السيف الطويل ذا النصل المعقوف والذي كان معلّقاً في السرج، فلمع الفولاذ تحت ضوء القمر.

سأل بصوت قوي ردَّدت صداه، كما بدا، الخمسمئة ألف نخلة في الفيّوم:

ـ من الذي تجرَّأ على قراءة تحليق الطيور؟

أجاب الفتى:

ـ أنا تجرأت.

وتراءى لعينيه في الحال تمثال مار يعقوب داحراً الأشرار تحت حوافر حصانه. كان الوضع نفسه مقلوباً. خفض رأسه ليتلقى ضربة السيف: «كثير من الأرواح سوف تنقذ لأنك تجاوزت **روح العالم**».

بيد أن السيف لم يسدّد بعنف: هبطت يد الفارس، ببطء، فلامست ذؤابة النصل جبين الفتى، وكانت الذؤابة حاذة، فسقطت نقطة دم واحدة.

كان الفارس جامداً تماماً، وكذلك الفتى. لم يفكّر حتى بالهرب. سيطر عليه حبور نابع من أعماقه: سوف يموت من أجل **أسطورته الشخصية**، ومن أجل فاطمة. لقد صدقت الإشارات،

أخيراً. ها هو العدو، هنا. ولن يبالي بالموت، لأن هناك روحاً للعالم سيغدو، بعد قليل، جزءاً منها، وكذلك العدو.

غير أن الرجل الغريب اكتفى بإبقاء ذؤابة السيف على جبينه:

ــ لمَ قرأت تحليق الطيور؟

ــ قرأت ما كانت تريد الطيور أن ترويه، فحسب. أرادت إنقاذ الواحة. أما أنت وجماعتك، فسوف تموتون، لأن رجال الواحة أكثر عددا منكم.

كانت ذؤابة السيف، لمّا تزل على جبينه:

ــ من أنت حتى تعمل على تغيير القدر الذي خطَّه الله؟

فأجاب الفتى، متذكُراً ما قاله الجمّال:

ــ لقد شكّل الله الجيوش، وصنع السيوف، وهو الذي أراني لغة الطيور. إن كل شيء كُتب باليد نفسها.

أخيراً، رفع الفارس سيفه، فشعر الفتى بالارتياح. ولكنه لم يكن قادراً على الهرب:

ــ إحذر التنبؤات. عندما تكون الأشياء مكتوبة، فلا مجال لتجنُّبها.

ــ لقد رأيت جيشاً، فحسب، ولم أرَ نهاية معركة.

بدا الفارس راضياً عن جوابه، ولكنه ظلّ ممسكاً بالسيف.

ــ ماذا يفعل غريب في أرض غريبة؟

ــ إنني أبحث عن **أسطورتي الشخصية**. وهذا شيء لن تستطيع فهمه إطلاقاً.

أعاد الفارس السيف إلى غمده. وأطلق الصقر، الجاثم على كتفه، صوتاً غريباً، وبدأ الفتى يستعيد هدوءه.

قال الفارس:

ـ أردت اختبار شجاعتك، الشجاعة هي الفضيلة العظمى لمن يبحث عن لغة العالم.

فوجىء الفتى. ذلك أنّ هذا الرجل يتكلَّم عن أشياء لا يعرفها سوى القليل من الناس.

استأنف الفارس: «ينبغي ألا تضعف عزيمتك، حتى لو كنت قد أنجزت هذا الشوط الكبير من السفر. ينبغي أن تحبّ الصحراء، ولكن لا تثق بها ثقة عمياء، لأنّها محكّ الرجال؛ تختبر كلّ امرئ من وقع خطواته، وتقتل من يستسلم للسهو».

أوحت كلماته بكلمات الملك العجوز.

قال الفارس أيضاً: «إذا جاء المحاربون، ولم يَطِرْ رأسك، فتعال إليّ غداً بعد مغيب الشمس».

اليد ذاتها، التي حملت سيفاً، حملت سوطاً. وهاج الحصان، من جديد، مُثيراً سحابة من الغبار.

صاح الفتى بينما كان الفارس يبتعد: «أين تسكن؟».

أشارت اليد التي تحمل السوط باتجاه الجنوب.

وهكذا جرى اللقاء بين الفتى والخيميائي.



في صباح اليوم التالي، كان في الفيوم ألفا مسلَّح، توزّعوا بين أشجار النخيل. وقبل أن تبلغ الشمس أعلى مدى لها، ظهر خمسمئة محارب في الأفق. دخل الفرسان الواحة من جهة الشمال. كانت هذه الحملة، في الظاهر، حملة سلمية، ولكن الأسلحة كانت مخبّأة تحت البرانس البيضاء. وعندما بلغوا الخيمة الكبيرة، المنصوبة في وسط الساحة، أخرجوا السيوف، العريضة النصال، والبنادق، وهاجموا خيمة خالية.

طوّق رجال الواحة فرسان الصحراء. وفي غضون نصف ساعة كان هناك أربعمئة وتسع وتسعون جثة مبعثرة فوق الأرض. كان الأطفال في الجهة الأخرى من بستان النخيل، ولم يشاهدوا شيئاً، في حين كانت النسوة، داخل الخيام، يطلقن الدعوات بالنصر لأزواجهن، دون مشاهدتهن ما يجري، أيضاً. ولولا الجثث الممدَّدة في كل مكان، لبدت الواحة وكأنها تعيش يوماً عادياً.

استُثني محارب واحد من القتل، هو قائد المهاجمين الذي سيق، في المساء، ليمثل أمام زعماء القبائل الذين سألوه لماذا خرق **التقليد**. فأجاب بأن رجاله يعانون الجوع والعطش، وقد أرهقهم استمرار القتال، فقرروا الاستيلاء على أيّ واحة لكي يتمكّنوا من استئناف الحرب.

أبدى زعيم الواحة، الأعلى، أسفه لمقتل المحاربين. ولكن لا بدّ

من احترام **التقليد** في شتى الظروف. فالشيء الوحيد الذي يتغيّر في الصحراء عندما تهبُّ الرياح، إنما هو الكثبان.

ثم حكم على الزعيم المعادي بالموت على نحو مهين، فبدل أن يقتل بسلاح أبيض، أو بطلقةٍ من بندقية، جرى شنقه على جذع نخلة يابس، واستمرت جثته تترنّح في رياح الصحراء.

استدعى زعيم الواحة الفتى الغريب، وأعطاه خمسين قطعة ذهبية. ثم ذكّر، مجدّداً، بحكاية يوسف في مصر، وطلب إلى الفتى أن يكون، من الآن فصاعداً، مستشار الواحة.



عندما غابت الشمس كلّياً، وبدأت النجوم الأولى تظهر في السماء (دون أن تلمع كثيراً، لأن القمر كان بدراً)، سار الفتى جنوباً. لم يكن، هناك، سوى خيمةٍ واحدة. وبدا المكان، كما قال بعض الأعراب الذين صادف مرورهم، مسكوناً بالجن. ولكنه جلس، وانتظر وقتاً طويلاً.

ظهر الخيميائي، بعد أن كان القمر قد بلغ قبّة السماء، وعلى كتفه صقران ميّتان.

قال الفتى:

ـ هاأنذا.

أجاب الخيميائي:

ـ يجب ألّا تكون في هذا المكان، أم أن **أسطورتك الشخصية** هي التي شاءت أن تجيء؟

ـ الحرب دائرة بين القبائل ولا يمكنني عبور الصحراء.

ترجّل الخيميائي عن جواده، وأشار إلى الفتى أن يدخل برفقته. إنها خيمة تشبه سائر الخيام التي شاهدها في الواحة، باستثناء الخيمة الكبيرة، المركزية، التي يذكّر الترف، فيها، بحكايا الجنيّات. جال بنظره، بحثاً عن معدات وأفران خاصة بالخيمياء، ولكن لا شي من ذلك. هناك، فقط، أكوام من الكتب، وفرن للطبخ، وسجاجيد مزخرفة برسوم غامضة.

قال الخيميائي:

ـــ إجلس، سأعدُّ الشاي. وسوف نأكل، معاً، هذين الصقرين.

تساءل الفتى: «هل هما الطيران اللذان شاهدهما مساء البارحة؟». لكنه لم يقل شيئاً. أشعل الخيميائي النار. وما لبثت رائحة الشواء الشهية أن انتشرت في أرجاء الخيمة، وكانت أزكى من رائحة النراجيل.

سأل الفتى:

ـــ لماذا أردت أن تراني؟

ـــ بسبب الإشارات. لقد أنبأتني الرياح أنك آت، وأنك في حاجة إلى المساعدة.

ـــ لستُ أنا، بل الغريب الآخر. إن الإنكليزي هو من كان يبحث عنك.

ـــ يجب أن يجد أشياء أخرى، قبل أن يجدني. لكنه بات على الدرب الصحيح، لقد بدأ يتأمّل الصحراء.

ـــ وأنا؟

قال الخيميائي مردّداً كلام الملك العجوز:

ـــ عندما نحلم بشيء، فإن الكون بأسره يطاوعنا على تحقيق حلمنا.

فهم الفتى ما رمى إليه محدّثه. فهذا شخص آخر، وجد على طريقه، لكي يقوده حتى يبلغ **أسطورته الشخصية**.

ـــ سوف تعلّمني، إذن؟

ـــ لا. إنك تعرف، مسبقاً، كل ما ينبغي أن يُعرف. أودُّ، فقط، أن أضعك على الدرب المتّجه إلى كنزك.

كرّر الفتى:

ـــ هناك الحرب بين القبائل.

ـــ لكنني أعرف الصحراء.

ـ لقد وجدت كنزي: لديَّ جمل، ومال متجر البلوريات، وخمسون قطعة ذهبية. سأكون رجلاً ثرياً في بلادي.

ـ لكن أيًّا ممّا ذكرته ليس قريباً من الأهرامات.

ـ لديَّ فاطمة. إنها الكنز الأعظم بين كلّ ما حصلت عليه.

ـ وهي، أيضاً، ليست قرب الأهرامات.

أكلا الصقرين بصمت. فتح الخيميائي قنينة وسكب منها سائلاً أحمر اللون في كأس ضيفه. كان السائل نبيذاً من أجود أصناف النبيذ الذي لم يذق مثيلاً له. ولكن النبيذ محرّم شرعاً.

قال الخيميائي: «ليس الشرُّ في ما يدخل فم الإنسان، بل هو في ما يخرج منه».

بدأ الفتى، مع الشرب، يشعر أن حاله تتحسّن. بيد أن الخيميائي كان يخيفه قليلاً. خرجا وجلسا خارج الخيمة، يتأمّلان ضوء القمر الذي كسف ضوء النجوم.

قال الخيميائي، ملاحظاً أن الفتى يغدو نشوان، أكثر فأكثر:

«اشرب واستمتع، قليلاً، بوقتك. استرحْ مثلما يستريح المحارب قبل خوض المعركة. لكن، لا تنس أنه حيث يكون قلبك يكون كنزك. ينبغي أن تعثر على كنزك، وإلّا يغدو كلّ ما اكتشفته في رحلتك بلا معنى.

«غداً، بعْ جملك واشتر جواداً، لأن الجمال خائنة: فهي تسير آلاف الخطى، دون أن تبدي أيَّ إشارة تدل على تعبها. ثم تقع، فجأة، على ركبتيها وتنفق. أما الجياد، فهي تتعب تدريجاً. وتعرف دائماً طاقتها، واللحظة التي تموت فيها».



بلغ الفتى خيمة الكيميائي، مساءَ اليوم التالي، وكان يمتطي حصاناً. انتظر قليلاً، ثم أطل الخيميائي على صهوة حصانه، أيضاً، والصقر جاثم على كتفه اليسرى.

وقال:

«أرني الحياة في الصحراء. إن من يستطيع أن يجد فيها الحياة، هو وحده الذي يستطيع أن يجد فيها كنوزاً، أيضاً».

انطلقا فوق الرمال، تغمرهما أشعة القمر. ردّد الفتى في سرّه: «لست أدري: هل أنجح في العثور على الحياة في الصحراء؟ فأنا لا أعرف الصحراء بعد».

أراد أن يلتفت، ليعبّر عن هذه الفكرة للخيميائي، ولكنه كان خائفاً منه.

وصلا إلى المكان، الكثير الحصى، الذي شاهد فيه الصقرين يحلّقان، والذي بات، الآن، صمتاً ورياحاً.

قال الفتى:

ــ لن أتمكّنَ من لقاء الحياة في الصحراء. أعرف أنها موجودة، لكنني لا أعثرُ عليها.

ــ الحياة تجذب الحياة.

وأدرك الفتى ما رمى إليه الخيميائي. وأطلق، على الفور، العنان لحصانه الذي راح، عندئذ، يخبُّ على هواه، وسط الحجارة والرمال.

تبعه الخيميائي، صامتاً. وتابع حصان الفتى تقدُّمه، على هذا النحو، مدّة نصف ساعة. لم يعد بإمكان الرجلين أن يشاهدا أشجار النخيل في الواحة. لا شيء سوى ضوء السماء المذهل، والحجارة التي يجعلها الضوء تلمع مثل الفضة. انتبه الفتى إلى أن حصانه قد توقّف، في مكان، لم يكن يعرفه من قبل.

قال للخيميائي:

«هنا، توجد الحياة. لا أعرف لغة الصحراء، ولكن حصاني يعرف لغة الحياة».

ترجَّلا. لم يقل الخيميائي شيئاً، بل أخذ ينظر إلى الحجارة، وهو يتقدّم ببطء. ثم توقّف، فجأة، وانحنى بحذر شديد. ثمَّة ثقب في الأرض، بين الصخور، أدخل الخيميائي يده، ثم ذراعه حتى الكتف. تحرك شيء ما في عُمق الثقب، واكفهرَّت عينا الخيميائي (لم يكن الفتى يرى سوى عينيه) ما يدلُّ على الجهد الكبير الذي كان يبذله. وبدت ذراعه في حالة صراع مع ما بداخل الثقب. وبقفزة سريعة، أخافت مرافقه، سحب الخيميائي ذراعه ونهض واقفاً على الفور، وهو يمسك بأفعى من ذنبها.

قفز الفتى، بدوره، إلى الوراء. كانت الأفعى تتلوّى بعنف، مع فحيح وصفير قطعا سكون الصحراء. إنها من أفاعي «الكوبرا»، التي يقتل سمّها في دقائق قليلة.

ردّد الفتى في سرّه: «انتبه إلى السمّ». لكن الخيميائي الذي أدخل يده في الثقب قد تعرّض، مسبقاً، لعضة الأفعى. مع ذلك فإن سماته بدت هادئة تماماً. وسبق للإنكليزي أن أخبره أن الخيميائي يبلغ من العمر مئتيْ سنة. ولا بدَّ أنَّه يعرف كيف يتصرَّف مع أفاعي الصحراء.

شاهد الفتى مرافقه يعود إلى حصانه، ويستلّ سيفه الطويل المقوَّس كهلال، ويرسم به دائرة في الرمل، ويضع الأفعى وسطها، لتجمد حركتها على الفور.

قال الخيميائي:

ــ لا تقلق، لن تخرج من هنا. لقد اكتشفت الحياة في الصحراء، والإشارة التي أحتاج إليها.

ــ لماذا ترى الأمر بهذه الأهمية؟

ــ لأن الأهرامات تقع وسط الصحراء.

لم يكن الفتى راغباً في سماع كلامٍ عن الأهرامات. كان قلبه حزيناً ومثقلاً بالهموم منذ ليلة أمس. ذلك أن متابعته البحث عن الكنز تعني، في الواقع، التخلّي عن فاطمة.

عندئذٍ قال الخيميائي:

ــ سأكون دليلك في الصحراء.

ــ أريد أن أبقى في الواحة. لقد التقيت فاطمة. وهي، في نظري، أثمن من أي كنز.

ــ إن فاطمة فتاة من الصحراء، وهي تعرف أن على الرجال أن يرحلوا ليعودوا. لقد وجدت فاطمة كنزها الذي ليس سوى أنت. وهي تنتظر، الآن، منك أن تجد ما تبحث عنه.

ــ وإذا قررت البقاء؟

ــ «تكون مستشاراً للواحة، ويكون لديك ما يكفي من الذهب لكي تشتري عدداً كبيراً من الخراف والجمال، وتتزوّج من فاطمة. وتعيشان سعيدين في السنة الأولى. وتتعلّم أن تحب الصحراء. وتعرف الخمسين ألف نخلة، واحدة واحدة، وتفهم كيف تنمو بحيث تريك عالماً يتغيّر باستمرار. عند ذلك، سوف تفكّ رموز الإشارات على نحو أفضل، لأن الصحراء معلّم يفوق كلّ معلّم.

«وفي السنة الثانية، تتذكَّر موضوع الكنز، وتلحّ الإشارات بمخاطبتك. وتحاول أنت ألّا تأبه لها، وتستخدم معرفتك لخير الواحة وسكانها، فحسب. ويجمع زعماء القبائل على تقديرك ومراعاة رغباتك، وتأتيك جِمالك بالثروة والسلطة.

«في السنة الثالثة، تستمر الإشارات في الكلام عن كنزك وعن **أسطورتك الشخصية**، فتقضي أنت لياليك تائهاً في الواحة. وتغدو فاطمة امرأة حزينة لأنها كانت السبب في توقّف مسيرتك. ولكنك تستمر في حبّها، ويكون هذا الحب مُتبادلاً بينكما؛ وسوف تتذكّر أنها لم تطلب إليك، إطلاقاً، البقاء، لأن امرأة الصحراء تعرف أن تنتظر عودة زوجها، لذلك لن تحقد عليها. لكنك ستسير الليالي في رمال الصحراء، عابراً أشجار النخيل، وأنت تفكّر أنه ربما كان ينبغي لك أن تتابع الطريق، وأن تكون أكثر ثقة بحبك لفاطمة، لأن ما حملك على البقاء في الواحة، هو، فقط، خوفك من ألّا تعود إليها أبداً. وعندما تغدو هناك، سوف تخبرك الإشارات أن كنزك مدفون تحت الأرض إلى الأبد.

«في السنة الرابعة، تتخلّى عنك الإشارات، لأنك لم تشأ الإنصات إليها. وبما أن زعماء القبائل سيدركون ذلك، فسوف يعزلونك من مهمتك الاستشارية؛ وتصبح، عندئذ، تاجراً غنياً تملك العديد من الجمال، والكثير من البضائع. ولكنك تقضي بقية أيامك هائماً بين أشجار النخيل والصحراء، مدركاً أنك لم تنجز **أسطورتك الشخصية**، وأن الوقت قد فات لاستدراك ذلك.

«ولن تعرف، في مطلق الأحوال، أن الحبّ لا يمنع رجلاً من متابعة **أسطورته الشخصية**. لكن إذا حصل ذلك، فلأن هذا الحب ليس بالحب الحقيقي الذي يتكلّم **لغة العالم**».

محا الخيميائي الدائرة التي خطّها على الرمل، فهربت الأفعى واختفت بين الحجارة.

فكّر الفتى بتاجر البلوريات الذي كان يرغب، على الدوام، أن يزور مكة؛ وبالإنكليزي الذي كان يبحث عن خيميائي. كما

فكَّر بالمرأة التي تثق بالصحراء، والتي جاءتها الصحراء، ذات يوم، بالرجل الذي كانت تشتهي أن تحبّه.

امتطيا حصانيهما، وكان الفتى هو من يتبع الخيميائي، هذه المرة. كانت الريح تحمل أصوات الواحة، فحاول أن يتبيّن، بينها، صوت فاطمة. لم يتمكّن، هذا اليوم، من ارتياد البئر بسبب القتال.

ولكن، في هذه الليلة، وبينما كانا ينظران إلى الأفعى المطوَّقة بالدائرة، تحدَّث الفارس الغريب، وصقره جاثم على كتفه، عن الحب، والكنوز، ونساء الصحراء، وعن **أسطورته الشخصية**.

قال الفتى: «سأذهب معك». وشعر، على الفور، بالاطمئنان يغمر قلبه.

«سنذهب غداً قبل شروق الشمس».

وكان ذلك جواب الخيميائي الوحيد.



لم يغمض للفتى جفن تلك الليلة. أيقظ، قبل الفجر بساعتين، أحد الغلمان الذين ينامون في الخيمة نفسها، وطلب إليه أن يدلّه على المكان الذي تسكن فيه فاطمة. خرجا معاً، وتوجَّها إليه. ونقد الدليل، مقابل ذلك، ما يمكّنه من شراء نعجة.

ثم توسَّل إليه أن يهتدي إلى المكان الذي تنام فيه الفتاة، وأن يوقظها. لبّى الغلام طلبه، فأعطاه الفتى الأجر الكافي لشراء نعجة ثانية.

وقال له: «والآن، دعنا وحيدين»، فتوجَّه الغلام إلى خيمته ليعاود النوم، وهو فخور بمساعدته لستشار الواحة، ومسرور جداً لحصوله على ما يشتري به غنماً.

ظهرت فاطمة عند باب الخيمة. فسارا، معاً، بين أشجار النخيل. كان يدرك أن ما يفعله منافٍ **للتقليد**. ولكن لم يكن لهذا الأمر من أهمية، الآن.

قال لها: «سأرحل، وأودّ أن تعلمي أنني عائد، أحبك لأن....».

فقاطعته:

ـ لا تقل شيئاً، إننا نحب لأننا نحب. ليس هناك أيُّ سبب للحُبّ.

ولكن الفتى، مع ذلك، تابع قائلاً:

ـ أحبّك لأنني رأيتُ حلماً، وقابلت ملكاً، وبعت أواني بلورية، وعبرت صحراء نشب قتال بين قبائلها، وجئت إلى مكان قريب من

بئر لأستدل على مسكن خيميائي. أحبّك، لأن الكون بأسره تواطأ معي لأصل.

تعانقا. إنها المرة الأولى التي تلامس فيها جسداهما.

قال الفتى:

ــ سوف أعود.

ــ من قبل، كانت تتحرّك في أعماقي رغبة، كلّما نظرت إلى الصحراء. أما الآن، فسأغدو امرأةً ملؤها الأمل. لقد رحل أبي، ذات يوم، ولكنه عاد، بعد ذلك، إلى أمي، وما زال يعود باستمرار.

لم يقولا شيئاً آخر. سارا، قليلاً، بين أشجار النخيل، ثم رافقها حتى مدخل خيمتها.

قال لها: «سوف أعود مثلما عاد أبوك إلى أمك».

لاحظ أن عينَيْ فاطمة تدمعان.

ــ أتبكين؟

أجابت، وهي تخبىء وجهها:

ــ إنني امرأة من الصحراء، ولكنّني، امرأة قبل كلّ شيء.

دخلت فاطمة خيمتها. بعد قليل تشرق الشمس. ومع بداية النهار ستخرج لتقوم بما تعوّدت القيام به، منذ سنوات؛ ولكن كل شيء قد تغيَّر. لم يعد الفتى في الواحة. ففقدت الواحة الدلالة التي كانت لها، قبل الآن، بل قبل برهة. ولن يكون هذا المكان، هو نفسه المكان الذي يضم الخمسين ألف شجرة نخيل، والثلاثمئة بئر، والذي كان الحجّاج يشعرون بالسعادة لدى وصولهم إليه، بعد سفر طويل. إن الواحة ستغدو بدءاً من هذا اليوم، مكاناً موحشاً في نظرها.

وبدءاً من هذا اليوم، ستصبح الصحراء أكثر أهمية من الواحة.

سوف تقضي وقتها تتأمّل الصحراء، وتتساءل بأيٍّ نجمة يستهدي الفتى في البحث عن الكنز. وسوف تبعث إليه بقبلاتها على أجنحة الرياح، آملة أن تلمس الرياح وجهه، وتخبره أنها ما تزال قيد الحياة، وأنها تنتظره كما تنتظر أيُّ امرأة رجلها الشجاع الذي يدأب في البحث عن الأحلام والكنوز.

منذ ذلك اليوم، لم تعد الصحراء تعني لها إلا شيئاً واحداً: الأمل بعودته.



ما إن امتطى كلٌّ منهما صهوة جواده، وبدءا المسير فوق رمال الصحراء، حتى بادر الخيميائي إلى القول:

ـ لا تفكّر أبداً بما تركته وراءك، كلّ شيء محفور في **روح العالم**، وفيها يبقى إلى الأبد.

قال الفتى، الذي ألِف صمت الصحراء:

ـ إن البشر يحلمون بالعودة، أكثر مما يحلمون بالرحيل.

ـ إذا كان ما وجدته مصوغاً من مادة نقيّة، فلن يبلى إطلاقاً، وتقدر أن تعود إليه ذات يوم. وإذا لم يكن سوى ومضة ضوء، مثل انفجار كوكب، فلن تجد، عندئذ، شيئاً لدى عودتك. ولكنك تكون قد رأيت انفجاراً ضوئياً. وهذا، وحده، يستحق عناء أن نعيش.

كان الرجل يتكلّم لغة الخيمياء. ولكن رفيق دربه كان يدرك أنه يُلمِح، بكلامه، إلى فاطمة.

لم يكن سهلاً ألَّا يفكر بورائه. فالصحراء، التي غالباً ما تتشابه مناظرها، لا تني تطفح بالأحلام. كان الفتى لا يزال يرى أشجار النخيل والآبار ووجه الحبيبة، وكان يرى الإنكليزي ومختبره، والجمَّال الذي كان معلّماً دون أن يعرف ذلك. وردّد في سره: «لعلّ الخيميائي لم يعرف الحبّ يوماً».

كان الخيميائي يسير في المقدّمة، والصقر على كتفه. إن

الصقر يتقن، جيداً، لغة الصحراء. وكان، عندما يتوقّفان عن السير، يبرح كتف الخيميائي، ويطير بحثاً عن الطعام. جاء، في اليوم الأول، بأرنب، وفي اليوم التالي، بعصفورين.

في المساء، كانا يبسطان غطاءيهما على الأرض، دون أن يوقدا ناراً. وليالي الصحراء باردة جداً، وتشتدّ ظلمتها كلما تناقص القمر في قبة السماء. سارا، أسبوعاً كاملاً، دون أن يتبادلا الحديث إلّا عن الاحتياطات الضرورية لتجنّب الوقوع في وسط المعارك. ذلك أن حرب القبائل كانت مستمرة، وكانت الريح تحمل، أحياناً، رائحة دم خفيفة. فقد نشبت معركة في الجوار؛ وذكّرت الريحُ الفتى بوجود **لغة الإشارات**، المتأهبة، على الدوام، لتريه ما لا تستطيع عيناه أن ترياه.

في اليوم السابع من الرحلة، قرّر الخيميائي أن يخيّم قبل الوقت المعهود. انطلق الصقر للبحث عن طريدة، وأخرج الخيميائي قِربة الماء، وقدّمها إلى الفتى.

وقال:

ـ ها أنت توشك على بلوغ نهاية رحلتك. لقد لاحقت **أسطورتك الشخصية**: أهنئك على ذلك.

ـ لكنّك ترشدني دون أن تقول شيئاً. لقد اعتقدت أنك ستلقّنني ما تعرفه. منذ وقتٍ، كنتُ في الصحراء، برفقة رجل يملك كتباً في الخيمياء، لكنني لم أفد منها.

ـ ثمّة طريقة واحدة للمعرفة، هي العمل. إن كل ما كنت في حاجة إلى معرفته، علّمك إيّاه السفر. لم يبقَ إلا شيء واحد.

أراد الفتى أن يعرف ما هو ذلك الشيء، إلّا أن الخيميائي ظلّ محدّقاً إلى الأفق، يترقّب عودة الصقر.

ـ لماذا يسمّونك الخيميائي؟

ـ لأنني كذلك.

ـ ما الذي كان يعرقل عمل مختلف الخيميائيين الذين يبحثون عن الذهب، فانتهى بهم الأمر إلى الفشل؟

ـ اكتفاؤهم بالبحث عن الذهب. كانوا يبحثون عن كنز **أسطورتهم الشخصية**، ولم يرغبوا في أن يعيشوا الأسطورة بالذات.

ألح الفتى:

ـ ما الذي ينقصني، أيضاً، على صعيد المعرفة؟

ولكن الخيميائي تابع التحديق إلى الأفق. عاد الصقر، بعد لحظات، يحمل فريسةً. حفرا حفرة في الرمل، وأوقدا النار فيها، لئلّا يرى أحد لهبها.

قال الخيميائي، بينما كانا يحضِّران وجبة الطعام:

ـ أنا خيميائي لأنني خيميائي. اقتبست هذا العلم عن أجدادي الذين اقتبسوه عن أجدادهم، وهكذا، دواليك، منذ خَلْق العالم. وكان من الممكن، في ذلك الزمن، أن يُكتب علم **الإنجاز العظيم** على زمردة بسيطة، ولكن البشر لم يولوا الأشياء البسيطة أي أهمية، بل راحوا يدوِّنون الأبحاث، والشروح، والدراسات الفلسفية، وبدأوا يزعمون، أيضاً، أنهم عرفوا النهج أفضل من سواهم.

ـ ما الذي كان مدوَّناً على **لوح الزمرد**؟

انصرف الخيميائي، عندئذ، إلى الرسم على الرمل. لم يستغرق هذا العمل سوى خمس دقائق. وبينما كان يرسم، تذكّر الفتى الملك العجوز، والمكان الذي التقيا فيه. بدا ذلك وكأنه حدث منذ سنوات وسنوات.

قال الخيميائي، عندما انتهى من الرسم: «هذا ما كان مكتوباً على **لوح الزمرد**».

اقترب الفتى، وقرأ ما كتب على الرمل.

قال، وقد اعتراه شيء من الخيبة:

ـ هذا رمزٌ من **لوح الزمرُّد**، لكأنه يشبه ما رأيته في كتب الإنكليزي.

ـ «لا، إنه يشبه تحليق الصقور؛ ويجب ألَّا يُفهم بالمنطق وحده. إن **لوح الزمرُّد** هو ممرٌّ مباشر نحو **روح العالم**.

لقد فهم الحكماء أن هذا العالم الطبيعي ليس سوى صورة، بل نسخة عن الجنّة. وبما أنه قائم، فلا بُدَّ أن يكون هناك عالم أكثر كمالاً منه. وقد خلقه الله ليتمكّن البشر، بواسطة الأشياء المرئية، أن يفهموا تعاليمه الروحية وروائع حكمته. وهذا ما أسميه **العمل**».

ـ هل ينبغي لي أن أعرف **لوح الزمرُّد**؟

ـ لو أنك في مختبر للخيمياء، لكان هذا الوقت هو الوقت الأنسب كي تدرس الطريقة الفضلى لفهم **لوح الزمرُّد**. ولكنك في الصحراء. فتوغَّل فيها إذن: إنها تساعد على فهم العالم أكثر من أيِّ شيء آخر على وجه الأرض، ولن تكون في حاجة إلى فهم الصحراء: يكفي أن تتأمّل حبّة رمل واحدة، لكي ترى فيها كل عظمة الخلق.

ـ ما الذي يجب أن أفعله لأتوغّل في صميم الصحراء؟

ـ أنصِتْ إلى قلبك، فهو يعرف كل شيء، لأنه يأتي من **روح العالم**، وسوف يعود إليها يوماً.



تابعا السير، بصمت، يومين آخرين. بدا الخيميائي أكثر حذراً، لأنهما كانا يقتربان من منطقة المعارك الأشدّ عنفاً. وكان الفتى حريصاً على الإنصات إلى قلبه.

إنه قلب يصعب سماعه. كان، من قبل، دائم الاستعداد، للرحيل. وهو الآن، يريد، أن يصل بأيٍّ ثمن. كان قلبه، بعض الأحيان، يستغرق، طويلاً، في رواية حكايات عن الحنين، ويختلج أحياناً أخرى لدى شروق الشمس في الصحراء، فيحمل الفتى على البكاء خفيةً، وكان يسرع في الخفقان، عندما يحدّثه عن الكنز، ويتباطأ، عندما تضيع عينا الفتى في أفق الصحراء اللامتناهي. ولكنه لا يسكت إطلاقاً، حتى وإن كان الفتى لا يتبادل، مع الخيميائي، كلمة واحدة.

سأل، لدى توقّفهما، ذلك المساء، للاستراحة:

ــ لمَ يتوجب علينا الإصغاء إلى قلوبنا.

ــ لأنه: حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك.

ــ إن قلبي مضطرب. إنه يحلم، ويقلق. وهو مغرم بفتاة الصحراء، يسألني عن أشياء كثيرة، ويحرمني الرقاد لليالٍ، عندما أفكّر بمن أحب.

ــ هذا مؤشر جيد، يدلّ على أن قلبك حيٌّ. استمرْ في الإصغاء إلى ما يفضي به.

خلال الأيام الثلاثة التالية، التقيا العديد من المحاربين، وشاهدا

كثيرين سواهم في البعيد. لذلك بدأ قلب الفتى يتحدَّث بالخوف. كان يروي له حكاياتٍ سبق أن سمعها من **روح العالم**، حكاياتٍ عن رجال ذهبوا للبحث عن كنوزهم دون أن يجدوها. وكان يُخيفه، أحياناً، من فكرة إخفاقه، هو أيضاً، في الوصول إلى كنزه، أو ملاقاته الموت في الصحراء، أو يقول له إنه بات الآن راضياً، وأنه وجد حُبّاً، وكسب قطعاً عديدة من الذهب.

قال الفتى للخيميائي، عندما توقّفا ليريحا حصانيهما قليلاً:

ــ قلبي خائن، فهو لا يريدني أن أستمر.

ــ حسناً، هذا دليل على أن قلبك حيٌّ. من الطبيعي أن نخاف من أن نستبدل بكلّ نجاحاتنا السابقة حلماً.

ــ لمَ يتوجَّب عليَّ، إذن، الإصغاء إلى قلبي؟

ــ لأنك لن تتمكّن، إطلاقاً، من إسكاته. حتى وإن تظاهرت بعدم الإصغاء إلى ما يقوله لك، فإنه ماثل، هنا، في صدرك. ولن يكفَّ عن تكرار أفكاره عن الحياة والعالم.

ــ حتى وإن كان خائناً؟

ــ إن الخيانة هي الضربة التي لم تكن تتوقّعها. إذا كنت تعرف قلبك جيداً، فلن يقدم، إطلاقاً، على مفاجأتك على هذا النحو، لأنك تدرك أحلامه ورغباته، وتعرف كيف تهتمّ بها. لا أحد يستطيع الهروب من قلبه. لذلك ينبغي الإصغاء إلى ما يقوله، لئلّا يتمكن من توجيه ضربته إليك من حيث لا تدري.

مضى الفتى، إذن، في الإصغاء إلى قلبه، طوال سيرهما في الصحراء. وتوصَّل إلى معرفة مكائده ومناوراته. وانتهى به الأمر إلى قبوله كما هو. وكفّ، عندئذ، عن الاستسلام للخوف، وعن الرغبة في العودة على عقبيه، لأن قلبه أخبره، ذات مساء، بأنه مسرور، وأسرّ إليه قائلاً: «إذا شكوْتُ قليلاً، فلأنني لست سوى قلب إنسان.

وهكذا هي قلوب الناس، تخاف من تحقيق أحلامها الكبرى، لأنها تعتقد أنها لا تستحقّ بلوغها، أو أنها فعلاً لا تقدر على بلوغها. إننا نموت، نحن القلوب، خوفاً من حالات الحب الذي ولّى إلى الأبد، ومن الأوقات التي كان يمكن أن تكون أوقاتاً رائعة، ومن تلك التي ليست كذلك، ومن الكنوز التي كان يمكن اكتشافها، ولكنها ظلّت، إلى الأبد، مدفونة في الرمال، لأننا، متى حصل ذلك، نتألّم كثيراً من هول المعاناة التي تسبق النهاية».

ذات ليلة، قال الفتى للخيميائي، وهما يتأملان سماء لا قمر فيها:

ــ إن قلبي يخاف أن يتألّم.

ــ قلْ له إن الخوف من الألم هو أكثر سوءاً من الألم ذاته. وما من قلب يعاني الألم وهو يلاحق أحلامه، لأن كل لحظة سعي هي لحظة لقاء مع الله ومع الأبدية.

فقال الفتى لقلبه:

«إن كل لحظة سعي هي لحظة لقاء. عندما كنت أبحث عن كنزي، كانت الأيام، جميعها، أياماً مشرقة، لأنني كنت أعلم أن كل ساعة تشكّل جزءاً من الحلم بالعثور عليه. وعندما كنت أبحث عن كنزي، اكتشفت، في طريقي، أشياء لم أكن أحلم، إطلاقاً، بأن ألتقيها، لو لم تكن لدي الشجاعة كي أجرّب ما استحال على الرعاة».

عصر ذلك اليوم، وإثر ذاك الحديث، استقر قلبه على حالة من الطمأنينة، ونام ليلته بارتياح. وعندما استيقظ، بدأ قلبه يحدّثه عن أشياء تتعلّق **بروح العالم**. قال له: «إن الإنسان السعيد هو من يحمل الله في أعماقه. ويمكن أن توجد السعادة في حبّة رمل من رمال الصحراء، كما قال الخيميائي، لأن حبّة الرملِ هي لحظة خلقٍ، ولأن الكون قد استغرق ملايين السنين لخلقها.

«إن لكلّ إنسان على وجه البسيطة كنزاً ينتظره. ونحن، القلوب، نادراً ما نتحدّث عن ذلك، لأن الناس لا يريدون اكتشافها دائماً. لا نتحدّث عنها إلا للأطفال. وبعد ذلك، ندع الحياة تقود كلّ امرئ نحو مصيره. من المؤسف أن القليل من الناس يتبعون الطريق المرسومة لهم، طريق **الأسطورة الشخصية** والسعادة. إن غالبية الناس يرون أن العالم يشكّل خَطَراً. ولهذا السبب، بالذات، يغدو العالم، بالفعل، خَطِراً. عندئذ نلجأ، نحن القلوب، إلى الكلام بصوت ينخفض شيئاً فشيئاً، لكننا لا نسكت إطلاقاً. ونتمنّى ألّا يكون كلامنا مسموعاً، لأننا لا نريد أن يتألم الناس إذا لم يسلكوا الطريق التي أشرنا عليهم بسلوكها.

سأل الفتى الخيميائي:

ــ لمَ لا تقول القلوب لأصحابها أن من واجبهم متابعة أحلامهم؟

ــ لأن القلب، في هذه الحالة، هو الذي يتألّم أكثر، والقلوب لا تهوى الألم.

منذ ذلك اليوم، بدأ الفتى يصغي إلى قلبه. وطلب إليه ألّا يتخلّى عنه أبداً. كما طلب إليه أن ينقبض، داخل صدره، عندما يغدو بعيداً عن أحلامه، وأن ينذره، وأقسم أنه، في كل مرة يسمع فيها إشارة الإنذار، سوف يأخذ حذره.

تكلّم، خلال تلك الليلة، مع الخيميائي، عن كل هذه الأمور. فأدرك الخيميائي أن الفتى قد عاد إلى **روح العالم**.

سأله الفتى:

ــ ماذا ينبغي أن أفعل، الآن؟

ــ تابع سيرك باتجاه الأهرامات. وانتبه، دائماً، إلى الإشارات. لقد أصبح قلبك قادراً، الآن، أن يريك كنزك.

ــ أهذا هو الأمر، إذن، الذي كنت أجهله حتى الآن؟

ــ لا، إن ما ينبغي لك أن تعرفه أيضاً هو ما سأقوله لك:

«إن **روح العالم**، قبل أن تُحقِّق حلماً، تريد أن تقيِّم، دائماً، ما تعلمناه أثناء مسيرنا. وإذا كانت تتصرّف على هذا النحو، فليس بدافع أذيّتنا، بل لنتعلّم، مع أحلامنا في آن، الإفادة من الدروس التي نتعلّمها في طريقنا إلى تحقيق ذلك الحلم؛ وتلك هي اللحظة التي يتخلّى فيها معظم الناس عن حلمهم. وهذا ما نسميه، في لغة الصحراء: الموت عطشاً، عندما تكون نخلات الواحة باديةً في الأفق.

«إن أيَّ مسعى يبدأ، دائماً، **بحظ المبتدىء**؛ وينتهي، دائماً، **باختبار المقتحِم**».

تذكّر الفتى مثلاً قديماً، من بلاده، يقول إن الساعة الأكثر ظلمة هي الساعة التي تسبق شروق الشمس.



ظهرت أول إشارة خطر ملموسة في اليوم التالي، فقد أطلّ ثلاثة محاربين، واقتربوا من الرجلين، وسالوهما عمّا يفعلانه هنا.

قال الخيميائي:

ـ جئت أصطاد مع صقري.

فقال أحد المحاربين:

ـ يجب أن نفتّشكما لنرى ما إذا كنتما تحملان سلاحاً.

ترجّل الخيميائي عن حصانه، بهدوء، وكذلك فعل رفيقه.

سأل المحارب لدى مشاهدته نقود الفتى:

ـ لمَ هذا المبلغ الكبير من المال؟

أجاب الفتى:

ـ لكي أذهب إلى مصر.

وجد المحارب، الذي فتش الخيميائي، قارورة صغيرة من الكريستال مليئة بسائل ما، وبيضة من زجاج، صفراء اللون، لا تكاد تزيد كثيراً على حجم بيضة الدجاجة.

سأله:

ـ ما هي هذه الأشياء؟

ـ إنها حجر الفلاسفة، وإكسير الحياة، وهما **الإنجاز العظيم** للخيميائيين. من يشرب من هذا الإكسير، لا يُصاب بمرض البتّة، وقطعة صغيرة من هذا الحجر تحوّل أيَّ معدن، من المعادن، ذهباً.

انفجر المحاربون الثلاثة ضاحكين، وشاركهم الخيميائي الضحك.

لقد وجدوا الإجابة مضحكة جداً، وتركوا الرجلين يذهبان دون مضايقة، مع كلّ ما يحملان.

عمد الفتى، عندما ابتعدا قليلاً، إلى سؤال الخيميائي:

ــ أمجنون أنت؟ لمَ أجبت هكذا؟

ــ لكي أريك، من قوانين العالم، قانوناً بسيطاً جداً: عندما تقع كنوز كبيرة أمام عيوننا، فإننا لا نتبيَّنها، أوتعلم لماذا؟ لأن الناس لا يؤمنون بوجودها.

تابعا سيرهما في الصحراء. وبقدْرِ ما كانت الأيام تمرُّ، كان قلب الفتى يغرق في الصمت أكثر فأكثر؛ لم يكن يهتم قطّ بأمور الماضي أو المستقبل، بل كان يكتفي بأن يتأمّل، هو أيضاً، الصحراء، وأن ينهل، مع صاحبه الفتى، من **روح العالم**. لقد غدا وقلبه صديقين حميمين جداً، غير قادرين على أن يخون أحدهما الآخر.

عندما كان القلب يتكلّم، فلكي يحثَّ الفتى ويشجّعه، لا سيّما وأن الفتى كان يجد أيام الصمت الطويلة مملَّة، أحياناً، على نحو رهيب. ولأول مرة، حدَّثه قلبه عن مزاياه الكبيرة: الشجاعة التي أبداها يوم تخلَّى عن أغنامه، ومعايشة **أسطورته الشخصية**؛ ثم الحماسة التي تجلَّت عنده في متجر البلوريات.

وقال له، أيضاً، شيئاً آخر، لم يكن الفتى قد لاحظه من قبل، وهو الأخطار التي قاربته دون أن يدركها: يوم خبَّأ المسدس الذي سرقه من والده وكاد يلحق الأذى بنفسه؛ ويوم ألّمت به حالة من الإعياء؛ ويوم كان متوغّلاً في الريف، فتقيّأ، ونام وقتاً طويلاً، بينما كان، هناك، لصّان، في الجوار، يتربَّصان به لسرقة أغنامه وقتله، ولكن عدم وصوله، في الوقت المتوقّع، جعلهما ينصرفان، اعتقاداً منهما بأنه غيَّر خط سيره المعهود.

ثم عمد إلى سؤال الخيميائي:

ــ هل تساعد القلوبُ الناسَ دائماً؟

ـ تساعد، فقط، أولئك الذين يعيشون **أسطورتهم الشخصية**، ولكنها تساعد، كثيراً، الأطفال والسكارى والطاعنين في السن.

ـ أيعني هذا أنْ ليس للخطر وجود، إذن؟

ـ يعني، ببساطة، أن القلوب تفعل ما بوسعها.

كانا يعبران، ذات مساء، مخيّم أحد الفرقاء المتحاربين. وأبصرا العديد من العرب ينتشرون في كل مكان، وهم يرتدون الزيَّ الأبيض اللافت، وأسلحتهم مهيأة للقتال. كان الرجال يدخنون النراجيل، ويثرثرون. وكانت أخبار المعارك محور أحاديثهم. ولم يلفت المسافران انتباه أحد منهم.

قال الفتى عندما ابتعدا قليلاً:

ـ لا وجود لأي خطر.

فردّ الخيميائي غاضباً:

ـ ثِق بقلبك، ولكن إيّاك أن تنسى أنك في الصحراء. عندما يكون الناس في حالة حرب، فإن **روح العالم** تسمع، هي أيضاً، صيحات القتال. لا أحد بمنأى عن نتائج ما يجري تحت السماء.

أسرّ الشاب إلى نفسه: «ليس الكلّ إلاّ واحداً أحداً».

وكما لو أنَّ الصحراء أرادت أن تثبت أن الخيميائي على حقّ؛ فقد ظهر فارسان، فجأة، وراء المسافرَين.

قال أحدهما: «لا يمكنكما الذهاب، بعيداً، فأنتما، هنا، وسط ساحة المعارك».

قال الخيميائي، وهو يحدّق، مباشرة، إلى عيون الفارسيْن:

ـ لن أمضيَ بعيداً.

ظلّ صامتين، للحظات قليلة، ثم اتفقا على استئناف السير. وقد لاحظ الفتى المشهد المذهل، بكامله.

وقال:

ـ لقد سيطرت عليهما بنظرتك.

ـ العيون تعكس قوة الروح.

ظنّ الفتى أن ما قاله الخيميائي صحيح. ولاحظ أن رجلاً، كان بين جنود المخيم، قد ركّز نظره على الخيميائي، وعليه بالذات، إلا أنه كان بعيداً إلى درجة لم يتمكن معها من تمييز قسماته بوضوح. ولكنه كان على يقين أن ذلك الرجل يراقبهما.

أخيراً، وبينما كانا على وشك أن اجتياز سلسلة جبال تمتد على طول الأفق، قال الخيميائي إنهما باتا على مسافة يومين، سيراً، من الأهرامات.

قال الفتى:

ـ إذا كان لا بدَّ لنا من أن نفترق، قريباً، فعلّمني الخيمياء.

ـ إنك تعرف، مسبقاً، ما يجب أن يُعرف. ليس عليك سوى دخول **روح العالم**، واكتشاف الكنز الذي احتفظتْ به لكلٌ منا.

ـ ليس هذا ما أودُّ معرفته، بل أقصد تحويل الرصاص ذهباً.

احتراماً منه لصمت الصحراء، لم يُجب الخيميائي إلا عندما توقّفا لتناول الطعام:

ـ كل شيء، في الكون، ينمو ويتطوّر، فالعارفون يرون في الذهب أكثر المعادن تطوّراً. لا تسلني لما، لأني أجهل ذلك. لكنني أعرف، فقط، أن ما يعلّمنا إيّاه **التقليد** هو صحيح دائماً. إن الناس هم الذين أخطأوا تفسير كلام الحكماء. وبدل أن يكون الذهب رمزاً للتطوّر، غدا إشارة للحروب.

ـ إن الأشياء تتكلّم بلغات متعدِّدة. لقد رأيت أن رغاء الجمل ليس سوى رغاء، فأصبح إشارة خطر، ثم عاد، أخيراً، مجرَّد رغاء.

لكنّ الفتى لجأ إلى السكوت. لأن على الخيميائي أن يعرف ذلك كلّه.

فتابع الخيميائي:

«لقد عرفت خيميائيين حقيقيين. كانوا ينعزلون في مختبراتهم، ويحاولون أن يتطوّروا مثل الذهب؛ لقد اكتشفوا **حجر الفلاسفة**، لأنهم أدركوا أنه، إذا تطوَّر شيء ما، فإن كل ما حوله يتطوَّر أيضاً. ونجح آخرون، مصادفة، في العثور على الحجر. كانوا يملكون الموهبة، وكانت روحهم أكثر وعياً من روح الأشخاص الآخرين، ولكن هؤلاء لا يعتدُّ بهم، لأنهم نادرون. وثمّة آخرون كانوا يبحثون عن الذهب، فحسب؛ وهؤلاء لم يتوصّلوا إلى اكتشاف السرّ، لأنهم نسوا أن لكلٍّ من الرصاص، والنحاس، والحديد، **أسطورةً شخصيةً**، عليه إنجازها، وأن كل من يُقحم نفسه في **أسطورة**، الآخر، **الشخصية**، لن يتوصّل، أبداً، إلى اكتشاف **أسطورته الشخصية**».

رنَّت كلمات الخيميائي رنين اللعنة.

بعد ذلك، انحنى وأمسك صَدَفة عن رمال الصحراء، وقال:

ــ كان البحر، هنا، في ما مضى.

ــ لاحظت ذلك.

طلب الخيميائي إلى الفتى أن يضع الصَدَفة على أذنه. لقد فعل ذلك، غير مرة، عندما كان طفلاً، وسمع هدير البحر.

إن الصَدَفة تختزن بداخلها البحر، لأن البحر **أسطورتها الشخصية**. وهو لن يتخلّى عنها، حتى يغمر البحر الصحراء من جديد.

عقب ذلك، امتطيا الحصانين، وسارا باتجاه أهرامات مصر.

كانت الشمس قد بدأت تميل نحو المغيب، عندما أعطى قلب الفتى إشارة خطر. كانا محاطيْن بكثبان هائلة الحجم، وكان الفتى ينظر إلى الخيميائي. ولكن الخيميائي بدا أنه لم يلاحظ

شيئاً. بعد خمس دقائق، لاح على صفحة المغيب الممتدة خيال فارسَين اثنين. وقبل أن يُتاح له النطق بكلمة واحدة للخيميائي، أصبح الفارسان عشرة فرسان ثم مئة، حتى امتلأت بهم مساحة الكثبان بكاملها.

كانوا محاربين يرتدون اللباس الأزرق، ويضعون عُقُلاً مثلّثة سوداء حول الكوفيات. وكانت تحجب وجوههم إلّا العيون، لُثُم أخرى زرقاء اللون.

حتى من هذه المسافة، كانت العيون تعبِّر عن قوة الأرواح، وتنذر بالموت في آن.



اقتيد المسافران إلى مخيم عسكري قريب من المكان. ودفع أحد الجنود بهما إلى داخل خيمة تختلف عن الخيام المنتصبة في الواحة. وكان في الخيمة قائد حربي محاط بهيئة أركانه.

قال أحد الرجال:

ـ إنهما الجاسوسان.

فأجاب الخيميائي:

ـ لسنا سوى مسافريْن.

ـ ثمَّة من شاهدكما في المعسكر المعادي، قبل ثلاثة أيام، وكنتما تتحدثان مع أحد الجنود، هناك.

ـ إنني رجل يجوب الصحراء، ويعرف النجوم. ليس لديَّ أيُّ معلومات عن الجيوش، وعن تحرّكات القبائل. كنت أصطحب صديقي إلى هنا، فقط.

سأل القائد:

ـ من هو صديقك؟

ـ إنه خيميائي. وهو يعرف قوى الطبيعة، وبودّه أن يُري القيادة قدراته الخارقة.

كان الفتى يستمع بصمت، وقد غشيه الخوف.

سأل أحد الرجال:

ـ ماذا يفعل رجل غريب في أرض غريبة؟

فتابع الخيميائي، قبل أن يتفوّه الفتى بكلمة:

ـ وأحمل مالاً لكي أقدّمه إلى قبيلتكم.

وأخذ كيس الفتى، وأعطى القطع الذهبية للقائد، الذي أخذها دون أن يقول شيئاً. ثمّة مبلغ، في الكيس، يكفي لشراء كمية كبيرة من الأسلحة.

سأل القائد العربي، أخيراً:

ـ من هو الخيميائي؟

ـ إنه رجل يعرف الطبيعة والعالم. ويقدر إذا أراد، أن يدمّر هذا المعسكر باستخدامه قوة الرياح فحسب.

ضحك الحاضرون. ذلك أنهم تعوّدوا قساوة الحرب، وهم يعرفون أن الرياح عاجزة عن توجيه ضربة قاتلة؛ ومع ذلك شعر، كلّ منهم، بقلبه ينقبض داخل صدره. فهم رجال من الصحراء، ويخافون السَحَرة.

قال القائد:

ـ أريد أن أرى شيئاً من ذلك.

أجاب الخيميائي:

ـ نحتاج إلى ثلاثة أيام. سوف يتحوَّل صديقي ريحاً عاتية ليريكم مدى قدرته. وإذا لم ينجح، نقدّم، بكل تواضع، حياتنا تشريفاً لقبيلتكم.

أجاب القائد بغطرسة:

ـ لا يمكنك أن تمنحني ما هو في الأساس ملك لي.

ووافق على إمهال المسافرين ثلاثة أيّام.

وكان الفتى جزاء خوفه الشديد، عاجزاً عن الإتيان بأيٍّ حركة، فاضطر الخيميائي أن يمسك بذراعه، لكي يساعده على الخروج من الخيمة.

وقال له،

«لا تُريهم أنك خائف. فهؤلاء رجال شجعان، والشجعان، عادة، يحتقرون الجبناء».

فقد الفتى القدرة على الكلام. ولم يستعد صوته إلا بعد مرور بعض الوقت، وكانا آنذاك يسيران في وسط المعسكر. ولمَّا كان من غير المفيد احتجازهما، فقد اكتفى العرب بأخذ حصانيهما. وهكذا يكشف العالم، مرة أخرى، لغاته العديدة: فالصحراء التي كانت، قبل قليل، مدىً حراً لا حدود له، غدت، الآن، سوراً منيعاً.

قال الفتى:

ــ لقد أعطيتهم مالي كلَّه! أعطيتهم جنى العمر.

ــ ماذا ينفعك المال، إذا كنت ستموت؟ لقد أنقذك مالك لمدة ثلاثة أيام، ومن النادر أن يساعد المال على تأجيل الموت.

ولكن الفتى كان على درجة من الرعب تحول دون سماعه عبارات الحكمة. إنه لا يدري كيف يتحوّل ريحاً، فهو ليس خيميائياً.

طلب الخيميائي الشاي من أحد المحاربين، ثمّ سكب قليلاً منه على معصميْ الفتى، فغمرته نفحة من الهدوء، في حين كان الخيميائي يتلفَّظ ببعض الكلمات، لم ينجح في فهمها.

قال الخيميائي: بنبرة ملؤها الرّقة:

ــ لا تستسلم لليأس. إن ذلك يمنعك من التحاور مع قلبك.

ــ ولكنني لا أعرف كيف أتحوَّل ريحاً.

ــ إن من يعيش **أسطورته الشخصية** يعرف كل ما هو في

حاجة إلى معرفته. ليس هناك سوى شيء واحد يمكنه أن يجعل الحلم مستحيلاً: الخوف من الفشل.

ــ لست خائفاً من الفشل. ولكنني بكل بساطة، لا أعرف كيف أتحوّل ريحاً.

ــ حسناً، ينبغي لك أن تتعلّم! فحياتك رهن بذلك.

ــ وإذا لم أنجح؟

ــ ستموت وأنت تعيش **أسطورتك الشخصية**. وهذا أفضل بكثير من الموت كملايين البشر الذين لم يدركوا، إطلاقاً، أن ثمة وجوداً **لأسطورة شخصية**. ولكن لا تقلق، فالموت، عموماً، يجعلنا أكثر انتباهاً للحياة.

مرَّ اليوم الأول. ثمة معركة ضارية في الجوار، نُقل، إثرها، العديد من الجرحى إلى المعسكر. ردّد الفتى في سرّه: «لا شيء يتغيَّر مع الموت». من يقتلون من المحاربين يحلُّ محلَّهم آخرون، وتستمرُّ الحياة.

قال أحد المحاربين أمام جثة رفيق له في القتال:

«كان بإمكانك أن تموت في وقت لاحق، يا صديقي. كان بإمكانك أن تموت بعد حلول السلام. ولكنك ستموت، في نهاية المطاف».

ذهب الفتى، مساء، للقاء الخيميائي الذي كان متوجهاً، مع صقره، إلى الصحراء.

وقال من جديد:

ــ لا أعرف كيف أتحوّل ريحاً.

ــ تذكَّر ما قلته لك: إن العالم ليس سوى الجزء المرئي من الله.

ووظيفة الخيمياء هي، ببساطة، إحلال الكمال الروحي على الصعيد المادي.

ــ ماذا تفعل؟

ــ أطعم صقري.

ــ لن أنجح في أن أتحوّل ريحاً. سوف نموت، فما الفائدة من إطعام الصقر؟

ــ أنت، وحدك، ستموت. أما أنا، فأعرف كيف أتحوَّل ريحاً.

في اليوم الثاني، تسلَّق الفتى قمة صخرة تقع قرب المعسكر. سمح له الحراس بالمرور، فقد سمعوا عن ساحر يتحوَّل ريحاً، ولم يشاؤوا الاقتراب منه، ثم إن الصحراء تشكّل سوراً يستحيل اختراقه.

ظلّ، بقية عصر اليوم الثاني، يتأمّل الصحراء. أصغى إلى قلبه، وأصغت الصحراء إلى الخوف الذي يسكنه.

كانا، كلاهما، يتكلمان لغة واحدة.

في اليوم الثالث، جمع القائد الأعلى ضبّاطه الرئيسيين حوله.

وقال للخيميائي:

ــ هيَّا بنا، لكي نشاهد هذا الفتى الذي يتحوَّل ريحاً.

ــ فقال الخيميائي.

ــ هيَّا!

سار الفتى بهم إلى المكان الذي كان فيه بالأمس، وطلب إلى الجميع أن يجلسوا.

وقال لهم:

ـ سيتطلَّب الأمر بعض الوقت.

أجاب القائد الأعلى:

ـ لسنا في عجلة من أمرنا. نحن رجال من الصحراء.

راح الفتى ينظر إلى الأفق المواجه له. ثمَّة جبال في البعيد، وكثبان وصخور ونباتات زاحفة تتشبَّث بالحياة هناك، حيث الحياة غير محتملة. وهناك الصحراء التي عبرها طوال شهور وشهور، والتي لا يعرف منها سوى جزء صغير. في هذا الجزء الصغير، التقى الإنكليزي والقوافل وصراعات القبائل، وواحة فيها خمسون ألف نخلة وثلاثمئة بئر.

سألته الصحراء:

ـ ما الذي تريده مني، اليوم؟ أما تأمَّل أحدنا الآخر ما يكفي يوم أمس؟

ـ إنك تحتفظين، في مكان ما، بالمرأة التي أحبّ. لذلك، عندما أنظر إلى رمالك المترامية، فإني أتامل تلك المرأة، أيضاً. أريد العودة إليها. كما أنني أحتاج إلى مساعدتك لأتحوّل ريحاً.

ـ ما هو الحب؟

ـ الحب هو عندما يحلّق الصقر فوق رمالك. فهو يرى فيك حقولاً خضراء، وما من مرة عاد بلا فريسته. إنه يعرف صخورك وكثبانك وجبالك، وكنتِ،بالمقابل، سخيّة حياله.

ـ إن منقار الصقر ينتزع قطعاً مني. فأنا أطعم تلك الفريسة طوال سنوات، وأرويها من الماء القليل المتوافر لديّ، وأُريها أين تجد ما تأكله، ليهبط الصقر، من السماء، ذات يوم، وفي اللحظة التي أستمتع فيها بمداعبة الطريدة فوق رمالي، فيخطف ما تعهّدته حتى كبر

ـ ولكنّك، من أجل هذه النهاية، تحديداً، أطعمت الطريدة وتعهدتها: لكي تطعمي الصقر، الذي يطعم الإنسان. وليطعم الإنسان بدوره رمالك، حيث تولد الطريدة من جديد. هكذا يسير العالم.

ـ أهذا هو الحب؟

ـ أجل، هذا هو. أي ما يجعل الطريدة تتحوَّل صقراً، والصقر إنساناً، والإنسان، من جديد، صحراء. وهذا، هو، ما يجعل الرصاص يتحوّل ذهباً، والذهب يعود ليختبئ تحت الأرض.

ـ لا أفهم كلامك.

ـ إذن، حاولي أن تفهمي، على الأقل، أن ثمّة امرأةً تنتظرني في مكان ما، وسط رمالك. ولا بدَّ لي، كي أعود إليها، أن أتحوَّل ريحاً.

سكتت الصحراء بضع لحظات، ثم قالت:

ـ أعطيك رمالي، لكي تتمكّن الريح من الهبوب، ولكنّني، بمفردي، لا أستطيع، شيئاً. أطلب المساعدة من الريح.

بدأ نسيم خفيف يتحرّك. وكان قادة الحرب يراقبون، من بعيد، الفتى يتكلم لغة يجهلونها.

وكان الخيميائي يبتسم.

وصلت الريح إلى الفتى، ولامست وجهه. لقد سمعتْ حواره مع الصحراء، لأن الرياح تعرف، دائماً، كلّ شيء. وهي تتجوَّل في العالم، دون أن يكون لها مهدٌ ولا لحد.

قال الفتى:

ـ ساعديني، لقد سمعت فيك ذات يوم، صوت حبيبتي.

ـ من علّمك التكلُّم بلغة الصحراء ولغة الريح؟

ـ قلبي.

للريح عدة أسماء. هنا، يسمُّونها الشُلوق (Sirocco)، لأن العرب يعتقدون أنها تأتي من الأراضي التي تغزر فيها المياه، ويسكنها بشر ذوو بشرة سوداء. وفي البلاد البعيدة التي جاء منها الفتى، يسمونها الريح الشرقية، لأن الناس كانوا يعتقدون أنها تحمل معها الرمال وصيحات المحاربين المغاربة. وفي أماكن أخرى، بعيدة من الأرياف، حيث كانت ترعى الأغنام، يعتقد الناس أن الريح تولد في الأندلس. ولكن الريح لا تأتي من أيِّ مكان، ولا تذهب إلى أيِّ مكان؛ ولهذا هي أقوى من الصحراء. قد يأتي يوم يغدو فيه ممكناً زرع الأشجار في الصحراء، بل تربية الأغنام. ولكن من المستحيل السيطرة على الريح.

قالت الريح للفتى:

ـ لا يمكنك أن تكون الريح، لأن طبيعتينا مختلفتان.

ـ هذا ليس صحيحاً. لقد تعلّمت أسرار الخيمياء، وأنا أجوب العالم برفقتك. إني أحمل، في أعماقي، الرياح والصحارى والمحيطات والكواكب، وكل ما خُلق في هذا الكون. لقد كوّنتنا اليد ذاتها، ولدينا الروح ذاتها. أريد أن أكون مثلك، أتغلغل في كل مكان، وأعبر البحار، أرفع الرمل الذي يحجب كنزي، وأُدني صوت حبيبتي.

ـ سمعت حوارك، ذاك النهار، مع الخيميائي، الذي قال إن لكل شيء **أسطورته الشخصية**. فالكائنات البشرية لا تستطيع أن تتحوّل رياحاً.

ـ علّمني أن أكون ريحاً، لبضع لحظات، لكي نتحدَّث، معاً، عن الإمكانات، غير المحدودة، للبشر والرياح.

الريح فضولية، وما يقوله الفتى لم تكن تعرفه من قبل. وبودّها أن يتحدّثا عن هذا الموضوع. ولكنها لا تدري كيف تحوّل

إنساناً لريح، ومع ذلك، فإنها تعرف أشياء كثيرة! تبني صحارى، تُغرق سُفناً، وتقتلع غابات بكاملها، وتتسكّع في مدن زاخرة بالموسيقى والأصوات الغريبة. كانت تظن أن قدرتها بلا حدود، وإذا بفتىً، أمامها، يؤكد أن بمقدور الريح أن تفعل أشياء أخرى.

قال الفتى مشتمّاً أن الريح على وشك أن تلين لطلبه:

«هذا ما نسمّيه الحب. وعندما نحبّ نشعر أننا أصبحنا جزءاً من هذا الكون الغريب. وعندما نحب لا نعود في حاجة إلى فهم ما يجري، لأن كل ذلك يجري، عندئذ، في أعماقنا. إن بمقدور الناس أن يتحولوا رياحاً، شرط أن تساعدهم الرياح في ذلك، بالطبع».

ولمّا كان للريح كبرياؤها، فإن ما قاله الفتى قد أغاظها. فأخذت تهبُّ بمزيد من القوة، مثيرة رمال الصحراء. لكنها اضطُرت، أخيراً للإقرار بأنها، وحتى بعد أن جابت العالم كلّه، لا تستطيع أن تحوّل الإنسان ريحاً. إنها لا تعرف الحب.

قالت الريح، غاضبة من اضطرارها إلى الإقرار بمحدوديتها:

«خلال نزهاتي في أرجاء العالم، لاحظت أن العديد من الناس يتكلّمون عن الحب، وهم ينظرون نحو السماء».

ربَّما كان من الأفضل أن تسأل السماء.

قال الفتى:

ـ ساعديني، إذن. غطّي هذا المكان بالغبار، لكي أستطيع أن أحدّق في الشمس، دون أن أُصاب بالعمى.

راحت الريح تهبُّ بقوة، واجتاح الرمل السماء. ولم يعد، مكان الشمس، سوى أسطوانة مذهبة.

بات من الصعب، داخل المخيم، تمييز شيء من شيء. إن رجال الصحراء يعرفون، جيّداً، هذه الريح التي يسمّونها ريح السموم،

ويجدونها أسوأ من العاصفة البحرية، وإن كانوا، لا يعرفون البحر. راحت الجياد تصهل، والأسلحة تُغطّى بالرمال.

التفت ضابط، يقف فوق الصخرة، نحو القائد الأعلى، وقال:

«ربما كان من الأفضل التوقّف عند هذا الحد».

بات من الصعب عليهم أن يشاهدوا الفتى. كانت الوجوه، جميعها، مقنّعة باللُثُم الزرقاء، والعيون لا تعبّر إلا عن الخوف.

كرَّر ضابط آخر بإلحاح:

ــ لننهِ الأمر.

فقال القائد بصوتٍ مفعم بالاحترام:

ــ أريد أن أرى عظمة **الله**. أريد أن أرى رجلاً يتحوّل ريحاً.

ولكنه احتفظ، في ذهنه، باسمي الضابطين اللذين عبَّرا عن خوفهما لأنه قرّر أن يعزلهما حين تهدأ الريح. لا ينبغي لرجال الصحراء أن يتملَّكهم الخوف.

خاطب الفتى الشمس قائلاً:

ــ قالت الريح لي إنك تعرفين الحبّ. فإذا كنت تعرفينه، فإنك تعرفين، في الوقت ذاته، **روح العالم** المصوغة من **الحب**.

ــ أستطيع، من حيث أنا، أن أشاهد **روح العالم**، إنها على اتصال بروحي، ونحن نعمل، معاً، لينمو الزرع، وتتابع الأغنام، الباحثة عن الظل، سيرها. حيث أنا (وأنا بعيدة جداً عن العالم)، تعلَّمت أن أُحب. أعرف أنني إذا دنوت، قليلاً، من **الأرض**، يهلك كلّ من عليها، وتزول **روح العالم**. لذلك، نحن نتبادل النظر والحبّ؛ أُعطيها الحياة والدفء، وتعطيني سبباً لكي أعيش.

كرَّر الفتى:

ــ تعرفين **الحب**.

ـ وأعرف **روح العالم**، لأن بيننا أحاديث طويلة دارت أثناء سفرنا اللامتناهي في الكون. تقول لي إنَّ مشكلتها الأخطر هي أن المعادن والنباتات، وحدهما، قد أدركتا، حتى الآن، أن الكلّ شيء واحد أوحد. لهذا، ليس من الضروري أن يكون الحديد شبيهاً بالنحاس، والنحاس شبيهاً بالذهب. لكلٍّ وظيفته المناسبة في إطار هذا الكلّ الواحد. ولو أن **اليد** التي كتبت هذا، كلَّه، توقفت في اليوم الخامس، لغدا الجميع سيمفونية سلام.

«ولكن هناك اليوم السادس».

قال الفتى:

ـ إنّك على علم بكل ذلك، لأنك تشاهدين كل شيء عن بعد. لكنّك لا تعرفين الحب. فلو لم يكن، هناك، يوم سادس، لما وُجد الإنسان، ولما استمرَّ النحاس نحاساً، والرصاص رصاصاً. لكلٍّ **أسطورته الشخصية**، هذا صحيح. ولكن **الأسطورة الشخصية** سوف تُنجز يوماً ما. ينبغي، إذن، التحوُّل لشيء أفضل. كما ينبغي أن تكون، لدينا، **أسطورة شخصية** جديدة، إلى أن تغدو **روح العالم**، بالفعل، شيئاً واحداً أوحد.

استمرت **الشمس** مُطرقةً، وراح نورها يسطع بقوة أكبر. أما الريح التي راقها هذا الحديث، فقد راحت تعصف، أيضاً، بقوة أكبر لئلّا تُعمي الشمس الفتى.

قال الفتى:

ـ «من أجل ذلك، كانت الخيمياء. ليبحث كل إنسان عن كنزه، ويجده. ويغدو، بعد ذلك، في حالة أفضل ممّا كان عليه في حياته السابقة. سوف يؤدي الرصاص دوره حتى تُنتفى الحاجة، في العالم، إلى الرصاص. عندئذ، ينبغي له أن يتحوَّل ذهباً.

«بإمكان الخيميائيين أن يحققوا هذا التحوّل. ويبيّنوا لنا أننا،

عندما نسعى إلى أن نكون أفضل حالاً ممّا كنّا عليه، فإن كل شيء يغدو أفضل من حولنا».

سألت **الشمس**:

ـ لمَ تقول إنني لا أعرف **الحب**؟

ـ لأن **الحب** لا يعني البقاء في حالة من الجمود كما هو شأن الصحراء؛ ولا يعني التجوال في العالم، مثلما تفعل الرياح؛ ولا مشاهدة كل شيء عن بعد، كما تفعلين. إن **الحب** هو القوة التي تحوّل **روح العالم** وتحسِّنُها. عندما دخلت في صميمها، لأول مرة، اعتقدت بأنها كاملة. لكنني رأيت، بعد ذلك، أنها انعكاس لكل ما جرى خلقُه؛ وأن لها، هي أيضاً، حروبها وأهواءها. إننا، نحن، من يغذّي **روح العالم**؛ وستكون الأرض، التي نعيش فوقها، أفضل أو أسوأ، تبعاً لحالتنا نحن. هنا، تتدخّل قوة **الحب**. لأننا، عندما نحبّ، نريد، دائماً، أن نكون أفضل مما نحن عليه.

ـ ماذا تريد مني؟

ـ أنْ تساعديني لأغدوَ ريحاً.

ـ إنَّ الطبيعة تدرك أنني أَعْلَم الكائنات كلّها. بيد أني لا أعرف كيف أحوّلك ريحاً.

ـ إلى من ينبغي لي أن أتوجه، إذن؟

سكتت الشمس لحظة. وكانت الريح تصغي، وتوشك أن تعلن، في العالم بأسره، أن علمها محدود. بيد أنها لا تستطيع أن تُفلت من هذا الشاب الذي يتكلّم **لغة العالم**.

قالت الشمس:

ـ سلِ اليد التي كتبت كل شيء.

أطلقت الريح صيحة رضى، وهبَّت على نحو لا مثيل له من

قبل، فاقتلعت الخيام المنصوبة فوق الرمال، بينما كانت الحيوانات تتحرَّر من رباطها. وتمسَّك الرجال، فوق الصخرة، بعضهم ببعض، خوفاً من أن تحملهم الريح معها.

استدار الفتى، عندئذ، إلى **اليد** التي كتبت كل شيء. وبدل أن ينطق بأيِّ كلمة، شعر أن الكون ظلّ صامتاً، ولبث، هو أيضاً صامتاً.

فيض من الحب انبثق من أعماقه، فانصرف إلى الصلاة. كانت صلاة لم يسبق له أن أدَّاها، لأنها بلا كلام، ولأنه لم يطلب من خلالها شيئاً، ولم يتقدّم بالشكر لعثوره على مرعى لأغنامه، ولم يتوسَّل ليبيع المزيد من الأواني البلورية، ولم يطلب أن تنتظر المرأة، التي أحبها، عودته إليها. وفي غمرة الصمت الذي تلا ذلك، أدرك أن الصحراء والريح والشمس تبحث، هي أيضاً، عن الإشارات التي كتبتها تلك **اليد**، وأنها تريد أن تتبع طريقها، وتدرك ما الذي حُفر على تلك الزمردة البسيطة. كان يعرف أن تلك الإشارات مبعثرة على الأرض وفي الفضاء، دون أن يكون في الظاهر، أيُّ غاية لوجودها، وأيُّ دلالة؛ وأن لا الصحارى، ولا الرياح، ولا الشموس، ولا البشر يعرفون لما خُلقوا. إن هذه **اليد** تدرك العلّة التي من أجلها خلقت الكائنات؛ هي وحدها، قادرة على صنع المعجزات، وتحويل المحيطات صحارى، والرجال رياحاً. لأنها تدرك، هي وحدها، أن ثمَّة تدبيراً سامياً يدفع بالكون إلى نقطة تتحول عندها، أيام الخلق الستة **إنجازاً عظيماً**.

توغّل الفتى في روح العالم، ورأى أن **روح العالم** هي في **روح الله**، وأن روح الله فيه.

وبات باستطاعته، منذ الآن، أن يجترح المعجزات.

عصفت ريح السموم، هذا اليوم، كما لم تعصف، من قبل. وسوف يروي العرب، لعدة أجيال، أسطورة فتى تحوَّل ريحاً، وكاد يزيل معسكراً من الوجود، متحدّياً بأس أهم قائد حربي في الصحراء.

عندما هدأت ريح السموم، اتجه الجميع بأنظارهم نحو المكان الذي يقف الفتى فيه. لم يكن هناك، بل كان إلى جانب حارس، كادت الرمال تغطّيه، كان يحرس الجهة الأخرى للمخيّم.

استبدَّ الخوف بالناس أمام هذا السحر، باستثناء شخصين، كانا، رغم ذلك يبتسمان: الخيميائي لأنه وجد تلميذه الحقيقي، والقائد الأعلى لأن هذا التلميذ قد تناهى إلى سمعه مجد الله.

وفي اليوم التالي، ودّع القائد الفتى والخيميائي، وأرسل معهما فريق حراسة، يرافقهما حتى المكان الذي يريدان بلوغه.



ساراً نهاراً بكامله. ومع حلول المساء، بلغا دير قبطي. طلب الخيميائي من مجموعة الحراسة العودة إلى الواحة، وترجَّل عن حصانه.

وقال:

ــ ابتداءً من هنا، تتابع السير بمفردك. لم يعد أمامك سوى ثلاث ساعات من السير لتبلغ الأهرامات.

ــ شكراً. لقد علّمتني **لغة العالم**.

ــ لم أفعل سوى تذكيرك بما كنت تعرفه من قبل.

طرق الخيميائي باب الدير. ففتح الباب راهب يرتدي ثوباً أسود. تحادثا، قليلاً، باللغة القبطية، ثم أدخل الخيميائي الفتى.

وقال:

ــ طلبت إليه أن يسمح لي باستخدام مطبخ الدير لبعض الوقت.

توجّها إلى المطبخ. أوقد الخيميائي النار. وجاء الراهب بكمية صغيرة من الرصاص أذابه الخيميائي في وعاء من حديد. عندما أصبح الرصاص سائلاً، تناول من كيسه البيضة الزجاجية الصفراء الغريبة، التي كان يحملها معه، وكشط عنها قشرة بسماكة شعرة، وغلّفها بالشمع، وألقاها في الوعاء الذي يحتوي على الرصاص الذائب، فاتّخذ المزيج لوناً قانياً كالدم. عندئذٍ، رفع الخيميائي، الوعاء عن النار، وتركه يبرد، وبانتظار ذلك، تبادل الحديث مع الراهب حول حرب القبائل.

فقال له:

ـ يبدو أنها حرب ستطول.

شعر الراهب بالضيق. فمنذ وقت طويل، والقوافل المجمَّدة في الجيزة تنتظر نهاية الصراع.

فقال:

ـ لكن، لتكن مشيئة الرب.

ـ لتكن مشيئته.

عندما برد المزيج في الوعاء، حدَّق الراهب والفتى مذهولَيْن: لقد جفَّ المعدن حول الجانب الداخلي للوعاء، ولكنه ليس رصاصاً، إنه ذهب.

سأل الفتى:

ـ هل بمقدوري أن أفعل ذلك يوماً؟

ـ إنها **أسطورتي الشخصية**، وليست أسطورتك. لكنني أريد أن أريك أن ذلك ممكن.

رجعا إلى مدخل الدير. وهناك قسَّم الخيميائي الأسطوانة إلى أربع قطع.

قال، وهو يقدم أحد الأجزاء الأربعة إلى الراهب:

ـ هذه القطعة لك، وهي بمثابة شكر لكرمك تجاه الحجّاج.

أجاب الراهب:

ـ إنه شكر يتعدّى ما أبديته نحوك من سخاء.

ـ لا تقل مثل هذا الكلام. فقد يتناهى إلى أسماع الحياة، فتغدو أقلّ سخاء معك، في المرة اللاحقة.

ثم اقترب من الفتى، وقال:

ـ وهذه لك، تعويضاً عن الذهب الذي بقي مع القائد الحربي.

كاد الفتى يقول أن هذا أكثر بكثير ممّا فقده. ولكنه، بعد أن سمع ما قاله الخيميائي للراهب، لزم الصمت.

وقال الخيميائي:

ــ وهذه القطعة لي، لأنني يجب أن أعود فأجتاز الصحراء من جديد، والحرب ما تزال دائرة بين القبائل.

ثم تناول القطعة الرابعة وأعطاها أيضاً للراهب، قائلاً:

ــ هذه الحصة للفتى. ولا تكون له إلا في حال احتياجه إليها.

فقال الفتى:

ــ ولكنني سأبحث عن كنزي، وقد بتُّ، الآن، قريباً منه.

ــ وإنني على يقين بأنك سوف تجده.

ــ لماذا هذه الحصة الإضافية، إذن؟

ــ لأنك فقدت مالك، الذي جنيته خلال سفرك، مرتين: مرة مع اللص، ومرة مع القائد الحربي. وأنا رجل عربي طاعن في السن ومتطيّر أؤمن بأمثال بلادي. وثمة مثل، منها، يقول: «ما يحدث مرة قد لا يتكرر حدوثه إطلاقاً. ولكن ما يحدث مرتين، يحدث حتماً مرة ثالثة».

وامتطيا حصانيهما.

قال الخيميائي:

«أودُّ أن أروي لك حكاية تتعلّق بالأحلام».

فقرّب الفتى حصانه.

«في روما القديمة، وفي عهد الأمبراطور تيبريوس، كان يعيش رجل، صالح جدّاً، مع ولديه: أحدهما انخرط في الجيش وأُرسل إلى المقاطعات البعيدة التابعة للأمبراطورية، والثاني كان شاعراً يفتن روما بقصائده الجميلة.

«راود الأب، ذات ليلة، حلم ظهر فيه ملاك وأخبره أن أقوال أحد ولديه سوف تُعرف، وترددها الأجيال المقبلة في العالم بأسره. استيقظ الأب العجوز وهو يبكي من شدة الفرح، لأن الحياة تبدو كريمة تجاهه، ولأنه حظي برؤيا تملأ قلب أيِّ أبٍ بالاعتزاز.

«بعد وقت قصير، مات الأب وهو يحاول إنقاذ طفل كاد يسحق تحت عجلات إحدى العربات. وبما أنه تصرَّف على نحو عادل وشريف، طوال حياته، فقد صعد إلى السماء، والتقى الملاك الذي ظهر له في حلمه.

«قال له الملاك:

«ـ لقد كنت رجلاً صالحاً، عشت حياتك في الحب، ومتَّ كريماً. وأنا على استعداد، الآن، لتحقيق أي أمنية من أمنياتك.

«أجاب العجوز:

«ـ والحياة كانت طيبة، أيضاً، معي. فعندما ظهرت لي في الحلم أدركت أن كل جهودي كانت جهوداً في مكانها، لأن قصائد ابني ستبقى في ذاكرة الناس طوال العصور المقبلة. ليس، هناك، ما أطلبه لنفسي. بيد أن كل أب يشعر بالاعتزاز عندما يرى ذلك الذي أولاه العناية حين كان طفلاً، وأدَّبه يافعاً، يحظى بالشهرة. أودُّ لو أسمع، في المستقبل البعيد، كلمات ابني.

«لمس الملاك كتف العجوز، فإذا بهما يقذفان، معاً، في مستقبل بعيد، وظهرت، أمامهما، ساحة بالغة الاتساع، حيث يوجد ألوف من الناس يتحدّثون بلغة غريبة.

«بكى الرجل العجوز من الفرح.

«وقال للملاك:

«ـ كنت أعلم أن أشعار ابني أشعار جميلة وخالدة. فهلّا أخبرتني عن قصائده التي يتلوها هؤلاء الناس؟

«تقدم الملاك منه، عندئذ، بمنتهى اللطف، وجلسا على أحد المقاعد الموجودة في تلك الساحة الواسعة.

«وقال له:

«ـ إن قصائد ابنك، الشاعر، كانت قصائد مشهورة جداً في روما، وكان جميع الناس يحبّونها ويستمتعون بها، ولكن عندما انتهى عهد تيبريوس، نسوْها. أما الكلام الذي يتلوه هؤلاء الناس، فهو كلام ابنك الآخر، الجندي.

«نظر العجوز إلى الملاك مندهشاً.

«وتابع الملاك قائلاً:

«ـ لقد ذهب ابنك للخدمة في مقاطعة بعيدة، وأصبح «**قائد المئة**». وكان، هو أيضاً، رجلاً عادلاً وصالحاً. ذات مساء، أُصيب أحد خدمه بالمرض وكاد يموت. ولمَّا كان ابنك يعرف حَبراً يشفي المرض، فقد قضى أياماً عديدة وهو يبحث عنه. وخلال بحثه اكتشف أن الرجل الذي يبحث عنه هو **ابن الله**. قابل أناساً، آخرين، نجوا من المرض على يده. وبعد أن سمع أخباره، وعلى الرغم من كونه قائد المئة، ورومانيا، فقد آمن به. وذات صباح وصل، أخيراً، إلى ذاك الحَبر.

«أخبره أن أحد خدمه مريض، فذهب الحَبر، برفقته، إلى منزل المريض. ولكن قائد المئة كان رجلاً مؤمناً. وعندما حدّق إلى عيني الرجل أدرك أنه في حضرة **ابن الله** فعلاً، لا سيما وأنه رأى الموجودين يقفون حول المكان، احتراماً.

قال الملاك للرجل العجوز:

«ـ تلك الكلمات هي كلمات ابنك، الكلمات التي قالها لذاك الحبر، والتي لن تُنسى أبداً: «**يا ربّ، أنا لست أهلاً أن تدخل تحت سقف بيتي، لكن قل كلمة واحدة فيبرأ بها خادمي**».

تقدّم الخيميائي على صهوة حصانه. وقال:

«كل كائن على هذه الأرض يؤدّي دوراً أساسيّاً في كتابة تاريخ هذا الكون، وهو بصورة طبيعية لا يدرك شيئاً من هذا الواقع».

ابتسم الفتى. لم يكن يتصوَّر، إطلاقاً، أن تكون الحياة على هذا القدر من الأهمية قياساً على راعٍ.

قال الخيميائي:

ــــ وداعاً.

أجاب الفتى:

ــــ وداعاً.



سار في الصحراء، ساعتين ونصف الساعة، وهو يحاول أن يُصغي، بانتباه إلى ما يقول قلبه، قلبه الذي سيكشف له المكان الصحيح الذي يوجد فيه كنزه المخبوء.

أولم يقل له الخيميائي: «حيث يكون كنزك، هناك يكون قلبك».

ولكن قلبه حدّثه عن أمور أخرى، إذ روى له باعتزاز، حكاية راعٍ تخلّى عن أغنامه للاحقة حلم رآه مرتين. وحكى له عن **الأسطورة الشخصية**، وعن كل أولئك الأشخاص الذين عاشوا تلك الأسطورة، بحثاً عن أراض نائية، أو عن نساء جميلات، وهم يجابهون أناس عصرهم، بأفكارهم وأحكامهم المسبقة. وطوال تلك الرحلة، تحدَّث عن الاكتشافات والكتب والتغيُّرات العظيمة.

وبينما هو يتأهب لتسلُّق أحد الكثبان، وفي تلك اللحظة فقط، همس له قلبه: «انتبه إلى المكان الذي ستبكي فيه، لأنني، هناك، أكون، وهناك يكون كنزك».

راح يتسلَّق الكثيب ببطء، وكانت السماء، المليئة بالنجوم، مضاءة، من جديد بالبدر: لقد سارا شهراً كاملاً في الصحراء. وكان ضوء القمر ينير الكثيب. وهو يُلقي ظلالاً تتخلّل الصحراء، وكأنها بحر هائج. وتذكَّر الفتى، من جديد، ذلك اليوم الذي أطلق، فيه، العنان لحصانه، وأعطى الخيميائي الإشارة التي كان ينتظرها.

كذلك كان ضوء القمر يغمر صمت الصحراء، وذلك السفر الطويل الذي يتجشَّمه الرجال بحثاً عن الكنوز.

عندما بلغ، بعد دقائق، قمة الكثيب، قفز قلبه في صدره. فقد انتصبت أمام نظره أهرامات مصر، بكل عظمتها وجلالها، وهي مضاءة ببدر السماء، وبياض الصحراء.

جثا على ركبتيه، وبكى. شكر الله، لأنه آمن **بأسطورته الشخصية**، والتقى، ذات يوم، ملكاً، ورجلاً إنكليزياً، وخيميائياً، بل، وهذا هو الأهمّ، التقى امرأة من الصحراء، جعلته يفهم أن الحب لا يمكنه، أبداً، أن يُبعد رجلاً عن **أسطورته الشخصية**.

كانت كل عصور الأهرامات تتأمل، من أوج عليائها، ذاك الواقف، هناك، عند أقدامها. لو شاء لاستطاع العودة، الآن، إلى الواحة، وتزوج فاطمة، وعاش حارساً عادياً لخرافه، لأن الخيميائي يعيش في الصحراء، ومع ذلك يفهم لغة العالم، ويعرف كيف يحوّل الرصاص ذهباً، وليس مضطراً أن يكشف، لأيٍّ كان، علمه وفنه؛ وبينما كان يسير باتجاه **أسطورته الشخصية**، تعلَّم كلَّ ما كان بحاجة إلى معرفته، وعاش كل ما كان يحلم أن يعيشه.

ولكنه وصل إلى كنزه. وما من عمل يُعتبر منجزاً إلا مع بلوغ الهدف. هناك، على قمة الكثيب، بكى. نظر إلى الأرض، فشاهد حيث سقطت دموعه، حشرة صغيرة تتنزّه. وقد تعلّم خلال وجوده في مصر، أن هذا النوع من الحشرات يمثّل رمزاً عظيماً.

وتلك إشارة أيضاً. بدأ، عندئذ، يحفر، وهو يتذكر تاجر البلوريات: لا يمكن لأحدٍ أن يبني أهراماً، في حديقة منزله، حتى لو استمرَّ يكدّس الحجارة، طوال حياته.

ظلّ يحفر، الليل بطوله، في المكان المحدَّد، دون أن يجد شيئاً. وكانت العصور تتأمله، من قمة الأهرامات، بصمت. حفر، وحفر، دون توقُّف، مقاوماً الريح التي تعيد الرمل إلى الحفرة، تكراراً.

كلّت يداه، وجُرحتا، ولكنه لم يشكّك في قلبه، الذي قال له أن يحفر، حيث تسقط دموعه.

فجأة، وبينما كان يحاول رفع بعض الحجارة التي أزاح الرمال عنها، سمع وقع أقدام. اقترب رجال لم يتمكّن من مشاهدة عيونهم ووجوههم، لأن ظهورهم كانت باتجاه القمر.

سأل أحد القادمين:

«ماذا تفعل هنا؟».

لم يجب؛ لكن تملَّكه الخوف. لديه، الآن، كنز يستخرجه من الرمال، ولهذا شعر بالخوف.

وقال آخر:

«نحن هاربون من الحرب. ونريد أن نعرف ماذا تخبّئ هنا. إننا في حاجة إلى المال.

أجاب الفتى:

ـ لا أخبّئ شيئاً.

إلا أن أحد الرجال أمسك بذراعه، وجرَّه خارج الحفرة، في حين عمد آخر إلى تفتيشه؛ فعثر على قطعة الذهب القابعة في أحد جيوبه.

قال أحد المهاجمين:

«لديه ذهب».

أضاء القمر وجه الرجل الذي يقوم بتفتيشه، وكان الموت ماثلاً في نظراته.

وقال آخر:

«لا بدَّ من وجود المزيد من الذهب مطموراً في الأرض».

أرغموه على متابعة الحفر، ولمَّا لم يجد شيئاً، انهالوا عليه ضرباً،

ضربوه حتى أرسلت الشمس أولى شعاعاتها. كانت ثيابه ممزقة، وكان يحسّ أن الموت قريب منه.

«ماذا ينفع المال إذا كنا سنموت؟ من النادر جداً أن يتمكّن المال من إنقاذ أحد من الموت». أَوَليس هذا ما قاله الخيميائي؟

وعلى الرغم من الجراح التي ملأت فمه المتورّم جرّاء ما انهال عليه من ضربات، فإنه حكى لمهاجميه كيف حلم، مرتين، بكنز مطمور قرب أهرامات مصر.

ومَن بدا منهم أنه الزعيم، كسر الصمت الذي ران للحظة، مخاطباً أحد أتباعه:

ـ لندعْه يذهب، فليس لديه شيء آخر. أما هذا الذهب، فلا بُدّ أنه قد سرقه.

هوى الفتى على وجهه فوق الرمال. ثمّة عينان، اثنتان، تبحثان عن عينيه، إنهما عينا زعيم العصابة. ولكن الفتى كان ينظر باتجاه الأهرامات.

قال الزعيم لمرافقيه:

«هيَّا، لنذهب».

ثم استدار نحو الفتى، قائلاً:

«لن تموت. ستعيش وتتعلَّم أنه لا ينبغي لنا أن نكون على هذه الدرجة من الغباء. هنا، بالضبط حيث تقبع أنت، رأيت حلماً، قبل سنتين تقريباً، راودني غير مرة. فقد حلمت أنَّ عليّ أن أسافر إلى إسبانيا، وأبحث، في الريف، عن أطلال كنيسة يتردد إليها الرعيان ليناموا فيها مع أغنامهم، وحلّت فيها شجرة جميز محلّ الغرفة الملحقة بالمذبح. حتى إذا حفرت عند جذع الشجرة، أجد كنزاً مخبَّأً، ولكنني لست على هذه الدرجة من الغباء، لكي أجتاز الصحراء بكاملها، لمجرّد أنني رأيت الحلم نفسه مرّتين.

ثم انصرف.

نهض الفتى، تحت وطأة الألم، وألقى نظرة أخيرة على الأهرامات، فابتسمت الاهرامات له، وابتسم لها. وقفل راجعاً، وقلبه مفعم بالبهجة.

لقد وجد الكنز.

❊ ❊ ❊



خاتمة

كان اسمه سانتياغو. وصل إلى الكنيسة المهجورة، في حين كان الليل على وشك أن يهبط. كانت شجرة الجميز لا تزال مكانها، في الغرفة الملحقة بالمذبح، وكان بالإمكان، دائماً، مشاهدة النجوم عبر السقف المنهار جزئياً. تذكَّر أنه جاء، مرة، إلى هذا المكان، مع نعاجه، وقضى ليلة هادئة باستثناء الحلم الذي رآه.

وها هو، الآن، في هذا المكان من دون قطيعه، لكنّه يحمل رفشاً.

لبث، وقتاً طويلاً، يتأمّل السماء، ثم أخرج من كيسه قنينة نبيذ، وشرب منها. تذكَّر تلك الليلة التي قضاها في الصحراء يتأمل النجوم، أيضاً، ويشرب النبيذ مع الخيميائي، وفكَّر بكلّ الدروب التي سلكها، وبالطريقة الغريبة التي هداه الله، بها، إلى الكنز. لو لم يكن يؤمن بالأحلام التي تتكرر، لما التقى تلك الغجرية، ولا الملك، ولا اللصّ، ولا... ردّد في سرّه: «إن اللائحة طويلة جداً، هذا صحيح؛ ولكن الطريق كانت مُوضَّحةً بالإشارات، ولم يكن بإمكاني أن أضلّ السبيل».

أخذه النوم دون أن يعي. وعندما أفاق كانت الشمس في كبد السماء. فراح، عندئذٍ، يحفر عند جذع شجرة الجمّيز.

وأسرّ إلى نفسه:

«أيها الساحر العجوز: لقد كنت على علم بكل شيء، بل

تركت لي حفنة من الذهب لكي أتمكّن من العودة إلى هذه الكنيسة. ضحك الراهب عندما شاهدني أعود، من جديد، ممزق الثياب. أما كان بإمكانك أن تجنّبني ذلك كلّه؟».

سمع الريح تجيبه: «لا، لو أخبرتك بذلك، لما شاهدت الأهرامات. إنها جميلة جداً، أليس كذلك؟».

إنه صوت الخيميائي. ابتسم، واستأنف الحفر. بعد نصف ساعة، اصطدم الرفش بشيء صلب. وبعد ساعة، وجد، أمامه، صندوقاً، مليئاً بقطع الذهب الإسبانية القديمة، وبأحجار كريمة، وأقنعة من الذهب مزيّنة بريش أبيض وأحمر، وتماثيل حجرية مرصّعة بالماس، ومخلّفات غزو نسيته البلاد منذ زمن بعيد، ونسي الغازي أن يحكي عنه لأحفاده.

أخرج من كيسه أوريم وتوميم. لم يستعن بهذين الحجرين سوى، ذات صباح، في إحدى الأسواق. كانت الحياة، وكذلك طريقه، مأهولة، دائماً، بالإشارات.

وضع أوريم وتوميم في صندوق الذهب. إن هذين الحجرين يشكّلان، هما أيضاً، جزءاً من كنزه، باعتبارهما يذكّران بالملك العجوز الذي لن يلتقيه أبداً.

ردّد في سرّه:

«إن الحياة، في الحقيقة، سخية مع من يعيش **أسطورته الشخصية**».

وتذكّر، عندئذٍ، أنَّ عليه الذهاب إلى طريفا ليعطي المرأة الغجرية عُشر الكنز. وأسرّ إلى نفسه: «كم هم أذكياء هؤلاء الغجر!.. ربما عُزي ذلك إلى أنهم يرحلون باستمرار».

ولكن الريح عادت تهبُّ من جديد. إنها الريح الشرقية، تلك التي تأتي من أفريقية، ولكنها لا تحمل معها رائحة الصحراء، ولا التهديد بالغزو.

بل على العكس، كانت تحمل أرج عطرٍ يذكره جيداً، وبوح قُبلة ترفّ بعذوبة لتنطبع على شفتيه.

ابتسم. لقد كانت قبلتها الأولى.

وقال: «ها أنذا، يا فاطمة، إنني قادم».

* * *

سلسلة الأدب واللغة

صدر منها:

- **الاستراحة** ـ ليلى عسيران
- **الحوار الأخرس** ـ ليلى عسيران
- **المدينة الفارغة ـ ليلى عسيران**
- **جسر الحجر** ـ ليلى عسيران
- **خط الأفعى** ـ ليلى عسيران
- **عصافير الفجر** ـ ليلى عسيران
- **قلعة الأسطة** ـ ليلى عسيران
- **لن نموت غداً** ـ ليلى عسيران
- **فروخ ناز (ألف يوم ويوم)** ـ نعمة الله ابراهيم
- **السير الشعبية العربية** ـ نعمة الله ابراهيم
- **الأيام والناس** ـ برهان الدجاني
- **علم الإبداع** ـ د. مروان فارس
- **آن الأوان** ـ طلال حيدر
- **انظر إليك** ـ مرام المصري
- **بائع الفستق/رواية** ـ سمير عطا الله
- **اللباس والزينة** ـ أ. بينول
- **أُخذَةُ كِشْ** ـ ألبير نقاش
- **صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية** ـ د. محمد أبو علي
- **المساجلات** ـ أحمد حاطوم
- **في مدار اللغة واللسان** ـ أحمد حاطوم
- **كتاب الإعراب** ـ أحمد حاطوم
- **إميل بجاني، كاتب في الغربال** ـ بقلم شخصيات عدة
- **طه حسين، من الشاطئ الآخر** ـ عبد الرشيد محمودي
- **الله بالخير** ـ ابراهيم سلامة
- **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** ـ منير عبود
- **عشرون روائياً عالمياً يتحدثون** ـ عصام محفوظ
- **مختارات من الشعراء الرواد في لبنان** ـ عصام محفوظ
- **قصة يوطوبيا . قصة مشربية** ـ حسن فتحي
- **جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران** ـ د. بطرس حبيب
- **ألف ليلة وليلة . الجزء الأول** ـ قدري قلعجي
- **ألف ليلة وليلة . الجزء الثاني** ـ قدري قلعجي
- **ألف ليلة وليلة . الجزء الثالث** ـ قدري قلعجي
- **ألف ليلة وليلة . الجزء الرابع** ـ قدري قلعجي
- **ألف ليلة وليلة . الجزء الخامس** ـ قدري قلعجي
- **الناس والآخرون** ـ قدري قلعجي

- **سلسلة «شهرزاد تروي»** ٣٠ جزءاً
- **سلسلة «شهرزاد تقدم»** ٣٠ جزءاً
- **الحب والتصوف عند العرب** ـ د. عادل كامل الآلوسي
- **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** ـ هادي محيي الخفاجي
- **الطربوش** ـ روبير سوليه
- **مهما قلت لا تقل** ـ د. نبيل سليمان
- **امرأة تبحث عن وطن** ـ ماريا المعلوف
- **لا أحد يفهم ما يدور الآن** ـ روحي طعمة
- **خطوات أنثى** ـ رُدينة الفيلالي
- **أثواب الحزن** ـ هدى السراري
- **كنوز العرب** ـ شكري نصرالله
- **قالوا وفعلوا : وقائع من تاريخ العرب وتراثهم** ـ شكري نصرالله
- **الثالث** ـ شكري نصرالله
- **دريد لحام/مشوار العمر** ـ د. فاروق الجمال
- **بساطٌ من الزهر الأحمر** ـ نيلوفر بازيرا
- **إمرأة. . . وظلّان** ـ خلود عبد الله الخميس
- **تاريخ اللغات ومستقبلها** ـ هارولد هارمن
- **فلسطين في الشعر الاسباني المعاصر** ـ د. محمد الجعيدي
- **هل كنا مثل أي عاشقين؟** ـ نافتج سارنا
- **اعترافات غايشا** ـ آرثر غولدن
- **خريف من ذهب** ـ جوزيف طوبيّا
- **عودة النبض** ـ نوال نجم
- **مغامرة حب في بلاد ممزقة** ـ جاين ساسون
- **يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى** ـ غسّان علم الدين
- **طلاق الحاكم** ـ منى دايخ
- **مصائر الغبار** ـ راوي حاج
- **نقوش** ـ أحمد حاطوم
- **حقيبة حذر** ـ عاطف البلوي
- **ألف عام من الصلاة** ـ ييون لي
- **حبٌّ محرَّم** ـ يوكيو ميشيما

مؤلفات پاولو كويلو

- □ إحدى عشرة دقيقة
- □ الشيطان والآنسة بريم
- □ الخيميائي
- □ على نهر پيدرا هُناك جلست فبكيت
- □ حاجّ كومبوستيلا
- □ الجبل الخامس
- □ ڤيرونيكا تقرر أن تموت
- □ الزَّهير
- □ ساحرة پورتوپيللو

«الخيميائي خرافة آخّاذة عن القدر»

The Independent

بريطانيا العظمى، مارس ١٩٩٨

* * *

«الخيميائي كتابٌ ضخمٌ ومثيرٌ يعالج قضايا خطيرة بأسلوب ذكي وبسيط»

Trud

جريدة يوميّة بلغاريّة

* * *

«الخيميائي قصّة خرافيّة مدهشة، إنها كناية عن حياة كل فرد»

ماسيمو داليما، رئيس الوزراء الإيطالي، يوليو ١٩٩٨

* * *

«الخيميائي زمردة صغيرة تلمع مثل لافتة فضّية في الصحراء ونورها يشير إلى اتجاه الواحة والكنوز»

Romerikes Blad

النروج، ديسمبر ١٩٩٥

يوبيل الخيميائي الـ ٢٠

الكتاب الذي حفّز العالم على الحلم

"أردت أن أفسّر أسباب الوجود. فبدل أن أكتب أطروحة في الموضوع، قمت بمحادثة الطفل الموجود في داخلي. وكم كانت مفاجآتي سارّة عندما وجدت أن داخل الملايين من الناس في العالم طفل يشبهه. فأردت أن أشارك قرّائي الأسئلة التي، لغياب الأجوبة عنها، تجعل الحياة مغامرة فريدة من نوعها."

باولو كويلو

"عندما تطمح إلى أمر متقد،
يتآمر الكون حولك ليجعل حلمك حقيقة"

"يبدو أنّ موهبة باولو كويلو الفريدة تكمن في قدرته على محاكاة الجميع في آن. فهو معلّم ليّن ومتعاطف، لذلك نجده فائق الجاذبيّة فنفهم السبب خلف أرقام مبيعات رواياته العالية والتي بلغت ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسخة في العالم."

دينا غودبير/ صحيفة النيو يوركر الأمريكيّة



ISBN 978-9953-88-250-5
9 789953 882505

tradebooks@all- prints.com
www.all-prints.com

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص ب: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٣٥٠٧٢٢ - ٩٦١١+
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٧٥٢٥٤٧ - ٩٦١١+

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر